

الصداقة والاغتراب في فكر أبي حيان التوحيدي

اعداد

سناء محمد خيري قطان

اشراف

ال[redacted]ب نايف ذياب

(قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في الفلسفة بكلية الاداب في الجامعة الاردنية)

توقيع المشرف

الى أولادي الاحبـــاء

يزيد وسهير ورائدة وعبير وديما ورشــــــا

الى أخواتي وإخواني وأزواجهم الاعــــزاء

الى كل صديق صدوق

إحياءً لفكر التوحيدي

واعـتزازاً بإنسانيتـــــه

ســـنا

تنويه

أحمد الله وأشكره على ما هداني اليه ، وأدعوه من كل قلبي أن يوفق والدتي لما يحبه ويرضاه ، فقد كان لها دور كبير في تشجيعي والوقوف بجانبي حتى نهاية الرسالة . وأسأل الله أن يرحم زوجي توفيق رفيق الصلاح ، الذي وقف بجانبي بكل امكاناته من أجل استكمال دراستي ، ولقد كانت وفاته من بين العوامل التي عوقت العمل في هذه الاطروحة . ثم أتقدم بالشكر الى أستاذي الدكتور أديب نايف ذياب للجهد الذي بذله في توجيه خطة هذا البحث وفحصه بأناة ، في مختلف مراحل تحريره ، ولافساحه المجال لي لحضور مساق " التصوف " ، كما انني أشكر زوجته الكريمة لحسن استقبالها وضيافتها لي . وأحمل مشاعر العرفان لاستاذي الدكتور أحمد ماضي حيث أنه ومشرفي الدكتور أديب ذياب قد زوداني بالكتب اللازمة لبحثي ، كما أحيي الدكتور صلاح جرار لتشجيعه لي ولنقده البناء . وأتوجه بالشكر الى كل من تعاون معي سواء أكان بالنيابة عني في بعض المسؤوليات التي كانت منوطة بي ، أم بالتعاون والتعاطف معي وتقدير الظروف العصيبة التي كنت أمر بها أثناء دراستي .

وأشكر بشكل خاص الطالب خالد محمد الشولي ، كلية الحقوق ، الجامعة الاردنية ، والسيد حسن السفاريني ، على تعاونهما الفعال وذلك بملازمتهما لي وبذل ما أمكنهما من مساعدة في مراجعة هذه الرسالة وطباعتها .

- = = = = -

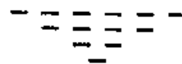
ج

اختصارات مؤلفات أبي حيان التوحيدي الـــتي اعتمدتها في الاشارات الهامشيـــة

الاشـــــارات	=	الاشارات الالهية ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي . دار القلم ، بيروت ، ١٩٨١م .
الامتـــــاع	=	الامتاع والمؤانسة ، ٣ أجزاء ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين . المكتبة العصرية ، بيروت وصيدا . اختصرت الاشارة الى الليلة ب ل .
البصـــائر	=	البصائر والذخائر ، عدة مجلدات ، تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني ، مكتبة أطلس ، دمشق .
الحـــياة	=	رسالة الحياة ، تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني . دمشق ، ١٩٥١م .
الرســـالة	=	" رسالة الى القاضي أبي سهل علي بن محمد " ياقوت الحموي معجم الادباء ، تحقيق أحمد زيد رفاعي بك ، مصلحة الصحافة والنشر ، القاهرة .
السقيفـــة	=	" رسالة السقيفة " ، رسائل أبي حيان التوحيدي ، تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني . طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق .
الصداقـــة	=	الصداقة والصديق ، تحقيق علي متولي صلاح . مكتبة الاداب ومطبعتها ، القاهرة ، ١٩٧٢م .
العلـــوم	=	" رسالة العلوم " ، رسائل أبي حيان التوحيدي ، تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .
المثالـــب	=	مثالب الوزيرين ، تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني . دار الفكر ، دمشق .
المقابســـات	=	المقابسات ، تحقيق حسن السندوبي . المكتبة التجارية الكبرى . ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩م .
المقابســـات	=	المقابسات ، تحقيق محمد توفيق حسين . مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٠ ، واختصرت الاشارة الى " المقابسة ب م .
الهوامـــل	=	الهوامل والشوامل ، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠هـ / ١٩٥١م . واختصرت الاشارة الى " المسألة " ب س .

- = = = -

الفهـــــرس



ا
ص

مقدمة حول موضوع الاطروحة ومنهجهـــا

لقد عالج عدد من الفقها* والمفكرين العرب مشكلة الحب في بعض جوانبها ، واهتموا بها أكثر مما فعلوا بالنسبة الى الصداقة . وربما لم يكن هناك تمييز واضح بين المشكلتين في كثير من الاحيان ، بل ثمة خلط بينهما في عدد من الاعمال الادبية والفكرية ، لكن الاديب المفكر أبا حيان التوحيدى كان قد ميز بين مفهومي الحب والصداقة على أساس أن الحب يقوم على الهوى والشهوة ، بينما قوام الصداقة هو العقل . وكان منحنى حياة المؤلف قد مر بمنعطفات وأزمات حادة مما جعل مفهومي الصداقة والغربة يستحوذان على اهتمامه حتى آخر سني حياته .

لانقصد مما تقدم أن مشكلة الصداقة لم تحتل مكانة مهمة في الفكر العربي في القرن الرابع الهجرى ، بل انها كانت تعكس جانبا من العلاقات الاجتماعية في ذلك العصر . ويعتبر التوحيدى أبرز من تصدى لهذه القضية من منطلق انساني عام ومضى في معالجته من الصداقة الى نقيضها ، وهو حالة الغربة التي كابدها ابان رجولته ونضجه ، وعانى من آثارها حتى خاتمة حياته . وتعكس دراسة هذه الاشكالية بطرفيها حاجتنا الى استكمال المعرفة بالجوانب الروحية ـ الفكرية في حياة التوحيدى وشخصيته .

ربط التوحيدى الصداقة بالاخلاق ، ووضح موقفه مبينا أهمية القيم الاخلاقية التي تقوم عليها الصداقة . واذا كانت الاسرة هي نواة المجتمع ، فان الصداقة في نظر التوحيدى هي صلة خاصة بين اثنين ، وهي عماد العلاقة الانسانية العامة . فما المبادئ والمفاهيم التي تشتمل عليها الصداقة الاسر التي لامناص منهـا لدعم الاخوة الانسانية ، وبها يسود الصفا* ، ويتحقق التعاون الاجتماعي الذى هو أساس العمران البشرى ، ومن خلاله تتسع قاعدة السلام والوئام بين الناس. لكن من المحتمل أن يكون للواقع الذى عاشه التوحيدى أثر هام في تشاؤمه وتشككه في امكانية الصداقة . ولقد سجل مرارة وقعه في نفسه بعبارات تجيش بالاسى والالم . ومن ظلمة الحرمان وفرجة الامل ، " وقدم الدا* " نبتثق كلماته في هذا الموضوع : " سمع مني في وقت بمدينة السلام كلام في الصداقة والعشرة والمؤاخاة

والالفة ، وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة والجود والتكرم " . (١)

ويحاول التوحيدي أن يتخطّى أزمته ومعاناته الممتدة في أبعاد التجربة الحياتية إلى صورة مثلى لما ينبغي أن تكون عليه الصداقة . ولايكتفي بتعريف الصداقة نظرياً ، وانما يستقرئ الواقع بتجاربه الحيّة ليستخلص من مجملها نموذجاً مثالياً للصداقة (٢). ويتوخّى من ذلك أن يبين الاسس الدينية والمعايير الاخلاقية التي يجب على الاصدقاء أن يتمثّلوا بها ، ومن ثم قيمة الصداقة التي تتجسد في آخر يعكس الذات بصفاء . ذلك أن الصديق " انسان هو أنت الا أنه بالشخص غيرك " . (٣) هنا يبدو وكأنه يتجاوز ما لقيه من إحباط ، ويواجه معاصريه بمفهوم عن الصداقة لايقبل المساومة أو الوَسَطيّة وأساسه الصدق والوفاء بلا أدنى شائبة ، " انما الصداقة لغة ... والصداقة إذا أخَذْتَها من جانب لفظها

١. الصداقة ، ص١ .
٢. أنظر ، مارك بيرجيه ، " المثل الاعلى للصداقة عند أبي حيان التوحيدى "، مجلة المعرفة ،(دمشق)، العدد ٣٦ ، ١٩٦٥ ، ص ٦٧ .
٣. الصداقة ، ص٦٦ ، " الصديق آخر هو أنت.ويقال : الصديق هو أنت الا أنه بالشخص غيرك " ، المقابسات (سند) ، م / ١٠٦ ، ص٣٥٩ ، المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص٤٤٩ . ويبدو أن هذا التعريف يرجع في الاصل الى أرسطو وقد ترجمه اسحق بن حنين " الصديق آخر هوهو" ، الاخلاق ، تحقيق د. عبدالرحمن بدوى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص٣١٤ . قارن نصوص أرسطو في حد الصديق كما وردت في عدة صفحات على التوالي :" الصديق هو ذات أخرى" ، " الصديقان روح واحدة " ، " صديقة هو ذات ثانية له ". وقد فهم الكندى مقصد ارسطو في هذا التعريف ، فقال : " الصديق " انسان هو أنت الا أنه غيرك " ، " رسالة في حدود الاشياء ورسومها " ، رسائل الكندى الفلسفية ، تحقيق : محمد عبد الهادى أبو ريدة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ١٧٠ .
The Nicomachean Ethics, Translated by J.A.K Thomson Penguin Books, Harmands worth,(U.K)1976,pp.244;303;306.
ويقول مارك بيرجه : " ثمة ... عنصر حصرى قد أضيف الى تعريف أرسطو ولانستطيع أن نقول اذا كان هذا العنصر في مكان آخر من كتاباته ، على أية حال فلا وجود له في كتاب الاخلاق الى نيقوماخس ، " المثل الاعلى للصداقة عند أبي حيان التوحيدى " ، مجلة المعرفة ، (دمشق)، ص ٦٧ .

كانت من الصِدْق ، والصِدْق ميزان النفس ... وصورة العقل ، وكمال الجملة ، وزينة التفضيل " [٤]. وهكذا فالصداقة لها أصول ومعانٍ تستند الى العقل وكمال الانسان وتدمل العلاقات الصحيحه بين الناس . ومن شأن هذه الأصول أن تُرشِدَهم إلى مستوى راقٍ من التعامل : ان الصداقة عند التوحيدي ضَرْبٌ من الوجود له صفة الامتداد الى ما بعد المـــوت .

ـ ١ ـ

ليس هناك ما يدعونا ، على أية حال ، الى سرد ترجمة حياة التوحيدي بكـــل تفصيلاتها ومنعطفاتها وما تتصل به من جوانب اجتماعية . فقد سَبَقَنا الى تحقيـــق هذا الجانب باحثون بارزون ، فأصبحنا على وعي بهذا الامر . حسبنا إذن أن نوجـز هنا منحنى حياته في المستوى الظاهر بابراز النقاط المهمة فيه . فقد وُلِـــــدَ عليّ بن محمد بن العبّاس أبو حيان التوحيدي سنة ٣١١ هـ وتوفي سنة ٤٠١ هـ فـــــي شيراز . وهو من أصل عربي[٥]. وقد عاش في العصر العباسي الثالث ، زمـــــــن البويهيين [٦] ، تنقل بين بغداد وواسط والري ونيسابور وقومسين وشيراز وغيرها ، وحجَّ الى مكة ماشياً عام ٣٥٣ هـ .[٧]

---

٤ المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣ ، ٤٥٥ . الصداقة (لغةً) " قـــــوة المودة مأخوذة من الشيء الصدق وهو الصلب القوى " . وهو على معنى ثـــان قريب ، " عاطفة مكتسبة متبادلة تقوم على ضرب من الاختيار والتفضيــــــل منشؤها التعاطف والمشاركة في الميول والمشارب وأساسها المساواة بـــين الاصدقاء تعززها المخالطة والمصاحبة " . المعجم الفلسفي ، د. مراد وهبة ، ط ٢ ، ١٩٧٩م ، ص ٢٣٩ . " والصداقة الحقة بريئة من الغرض " ، المعجـــم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٠٥ .

٥ انظر د. عبد الامير الاعسم ، أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابســـات ، د. ر الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٠ ، ص ٥٥ ـ ٥٩ ؛ د. أحمـــــد محمد الحوفي ، أبو حيان التوحيدي ، مطبعة نهضة مصر ، ط ٣ ، القاهـــرة ، ص ٤٥ ـ ٥٣ .

٦ انظر محمد كرد علي أمراء البيان ، دار الامانة ، مطابع دار الكتب ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٦٩ ، جـ ٢ ، ص ٤٤٥ ـ ٤٤٨ .

٧ انظر د . محمود ابراهيم ، أبو حيان التوحيدي وقضايا الانسان واللغـــــة والعلوم ، الدار المتحدة للنشر والطباعة ، بيروت ، ص ٣٦ ، ٤٠ ؛ د. احسان عباس ، أبو حيان التوحيدي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٤٧ ؛ محمد توفيق حسين ، مقدمة المقابسات ، ص ٥ ، ٩ .

درس على عدد كبير من أساتذة العصر الذين برزوا في حقول العلوم والآداب . ومن شيوخه في النحو أبو سعيد السيرافي (ت٣٦٧هـ) ، وفي اللغة والأدب علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤ هـ) ، وفي الفقه القاضي أبو حامد المروروذي (ت ٣٦٢ هـ)، وأبو الفرج النهرواني (ت ٣٩٠ هـ) ، وأبو بكر الشاشي (ت ٣٦٥ هـ) . ومن أساتذته في الفلسفة والمنطق يحيى بن عدي (ت ٣٦٤ هـ) وأبو سليمان السجستاني الملقّب بالمنطقي (ت ٣٩١ هـ)، ودرس أيضًا على أبي الحسين محمد بن أحمد بن سمعون (ت٣٨٧ هـ) وعلى جعفر الخلدي المتصوف .(٨)

كان ذا فكر مستنير ، وُهِبَ ذكاءً حادًا ، وذاكرة حافظة ، ولقد كانت له نظرات قيمة في موضوع علم الجمال (٩). اطلع على مؤلفات الجاحظ في عهد مبكر من حياته ، وأُعْجِبَ به كثيراً . ولازم مجلس السجستاني الذي ضمَّ جهابذة العلم والادب من شتى المذاهب والنحل في ذلك العصر ، ولم يكن ليعرف الباحثون آراء السجستاني لو لم يسجلها التوحيدي في مؤلفاته (١٠). ارتاد مجلس أبي الحسن محمد بن يوسف العامري ويحيي بن عدي ، وابن السمح ، ونظيف الرومي ، وعيسى بن علي ، وحضر مجلس أبي القومسي ، ومجلس أبي زكريا الصيمري أيضا .(١١)

امتهن الوراقة فأتاحت له فرصة التعرف على أمهات الكتب ، مما وسَّع ثقافته وزاده تعمقًا في اللغة وفي النحو وفي غيرها من المعارف . عمل " خبيرا للبيمارستان العضدي "فترةً قصيرةً ، واستمر في ممارسة الوراقة والتأليف في أثناء عمله هذا (١٢). واتصل أبو حيان بوزير معز الدولة ، الحسن المهلبي لفترة قصيرة ، وانتهت علاقته به بالطرد والنفس من مجلسه(١٣). ثم رحل الى الري

---

٨ . انظر د. ابراهيم الكيلاني ، مقدمة المقابسات ، وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة ، دمشق ، ١٩٨٤ ، ص ١٠ ـ ١٥ ، د . محمود ابراهيم ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٢٨ ـ ٣٢ .

٩ . انظر د. عفيف بهنسي ، علم الجمال عند أبي حيان التوحيدي ومسائل في الفن ، وزارة الاعلام ، ١٩٧٢ ، ص ٩ .

١٠. د. ماجد فخري ، تاريخ الفلسفة الاسلامية ، نقله الى العربية د. كمال اليازجي ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

١١. انظر د. عبد الامير الاعسم ، أبو حيان التوحيدي ، ص٢٢٧ ـ ٢٣٣ .

١٢. انظر د. احسان عباس ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٧٢ .

١٣. انظر د. عبد الامير الاعسم ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٦٧ .

وتعرّف على وزير ركن الدولة ، أبي الفضل ابن العميد (ت ٣٦٠ هـ) . ثم اتصل بابنه أبي الفتح ، الذي تولّى الوزارة من بعده حتى سنة ٣٦٣ هـ ، ولم يَحْظَ بشيء منهما ، فعاد الى بغداد خالي الوفاض . وبعد ذلك استوزر مؤيد الدولة وأخوه فخر الدولة الصاحبَ بن عباد فتولى الوزارة بعد أبي الفتح ابن العميد سنة ٣٦٣ هـ . فالتحق التوحيدي بحاشية ابن عباد حتى سنة ٣٧٠ هـ ، لكنه عاد مرةً أخرى الى بغداد بائساً حانقاً . ثم ارتاد مجلس أبي عبد الله الحسن ابن أحمد بن سعدان واستمر في ملازمته حتى استوزره صمصام الدولة بن عضد الدولة سنة ٣٧٣هـ ، فأصبح التوحيدي من ندمائه وسمّاره . وحَظِيَ باحترام الوزير وتقديره مدةً من الزمن . وكان مقتل ابن سعدان سنة ٣٧٥ هـ نقطة تحول في حياة أبي حيان ، إذْ تشهد فترة ما بين ٣٤٧ ـ ٣٧٥ هـ وَفْرةً في انتاجه الأدبي فضلاً عن فعاليّات اجتماعية أخرى . ثم تنقطع أخبار أبي حيان بعد هذا التاريخ وحتى نهاية القرن الرابع الهجري ، لكن نشاطه الثقافي يتجلّى في مؤلفات ومراسلات ورواية حديث . ويعترف التوحيدي أنه أحْرق مؤلفاتِه في فترة قاتمةٍ من اليأس انتابته ، وكان ذلك في رمضان سنة ٤٠٠ هـ . وفي نفس العام كتب رسالته الى القاضي أبي سهل علي بن محمد ، يعتذر فيها اليه عن إحْراق كُتُبِه بعد أن لامه القاضي على فعلته . وأعلن أبو حيان التوحيدي في هذه الرسالة ، انفصاله عن العالم من حوله مُفْصِحاً عن زُهْده وتَوْبته وانقطاعه الى عبادة الله (١٤).

وأغلب الظن أن التوحيدي لم يبدأ حياته متصوفاً ، فميوله الصوفية لم تكن كافية لأن تجعل منه صوفياً على مستوى السلوك العملي (١٥). ومع أن مؤلفاته تشهد له بصدق الايمان الا أن بعض المصادر العربية اتهمته بالزندقة (١٦). ويصف

١٤. انظر الرسالة ، ص ١٨ ـ ١٩ ، قارن عبد الرزاق محيي الدين ، أبو حيان التوحيدي : سيرته ومؤلفاته ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٢٦٠ ـ ٣٢٢ ، ٢٣ ـ ٢٥ ؛ د. عبد الامير الاعسم ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٦٧ ـ ٦٨ ؛ د. جعفر هادي حسن ، " دفاع أبي حيان التوحيدي عن إحْراق كتبه " ، مجلة العربي (الكويت) ، العدد ٣٢٣ ، اكتوبر ١٩٨٥ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

١٥. D.S. Margoliouth, "Abū Hayyān Al-Tawhīdī". The Ency. of Islam, 1960, vol. I, pp. 126-127.

١٦. انظر د. زكريا ابراهيم ، أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الادباء ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر ، مطبعة مصر ، ص ١٦٣ ـ ١٧٤ ؛ د. أحمد الحوفي ، أبو حيان التوحيدي ، ص ١٦٧ ـ ١٧٧ ؛ حسن السندوبي مقدمة المقابسات ، ص ١٤ ـ ١٦ .

ياقوت الحموي أبا حيان بأنه " صوفي السمت والهيئة ... فهو شيخ الصوفية "(١٧).
ومما هو جدير بالذكر أن المؤلفات والدراسات الخاصة بالصوفية ، سواء منها المعاصرة للتوحيدي أو المتقدمة عليه ، لم تأت على ذكر تصوفه أو انتمائه الى فرقة أو مدرسة صوفية معينة . ومن المعروف أن أساس البناء الصوفي كان قد أرسى قواعده حشدٌ كبير من الزهاد والأولياء في القرن الثالث الهجري (١٨).

لم يذكر التوحيدي أنه التزم بطريقة أحد رجال الصوفية المعروفين في وقته، وقد نجده يشير في بعض كتبه الى أنه جالس الفرق الصوفية واحتك بأفرادها (١٩) ، وخاصة في مقتبل عمره وفي آخره ، الا أننا لانجد دلائل على التزامه بالمجاهدات الصوفية . واذا كان له أسلوب خاص في التصوف بالمعنى الفردي من حيث هو سالك الى الله ، يحيا حياته الخاصة في عالمه الروحي . زد على ذلك أنه لم يشر صراحة في مناجاته الى شيخ معين ، وما يُفْهِمُ من خطابه أنه كان موجّهاً الى شيخ مجهول الاسم بين الفينة والاخرى . ومن ناحية أخرى ، فقد اتسمت ايحاءاته ودعوته المخلصة بالمحبة والعطف والاشفاق أحياناً ، كأنه امام روحاني يستقطب المريدين من حوله . ويستعمل التوحيدي بعض المصطلحات الصوفية ، كما أنه يصف ويعرف أحوال السالك ، وما يتعرض له من تطورات نفسية وأحوال روحية ، ويحاول أبو حيان أن يستعمل الرمز والاشارة ، الا أنه لايتعمق رموز الصوفية التي يصطنعها في الاشارات ، وتأتي عباراته في هذا الكتاب واضحة فيها بلاغة وفصاحة فضلا عن دلالتها الروحية :(٢٠)" هذا لسان التصوف ، والتصوف معناه أكبر من اسمه ، وحقيقته أشرف من رسمه ، والتصوف اسم يجمع أنواعا من الاشارة وضروبا من العبارة ، وجملته التذلل للحق ، بالتعزز على الخلق " (٢١).

١٧. معجم الادباء ، مصلحة الصحافة والنشر ، مطبعة دار المأمون ، ج ١٥ ، ٧-٨، قارن آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، مكتبة الخانجي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة، بيروت، ١٩٨٠ ، ج ٢ ، ص ٩٢ .
١٨. انظر تمهيد د. اسعد قنديل لكتاب كشف المحجوب للهجويري ، دار النهضة العربية للطباعة و لنشر ، بيروت، ١٩٨٠ ، ص ٢٧ ـ ٣٢ .
١٩. قارن عبد الرزاق محيي الدين ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٢٤ ـ ١٦٢،٢٥ـ ١٦٣.
٢٠. انظر عبد الرحمن بدوي في تصدير الاشارات الالهية ، دار القلم ، وكالة المطبوعات، ط١ ، بيروت، الكويت، ١٩٨١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .
٢١. الاشارات، ص ١٤٢ ، ١٨٣ ـ ١٨٤ .

والتوحيدي واحد من المفكرين العرب الذين غزر انتاجهم وتنوعت جوانبه ومراميه . فلا تفي حقهم بضع دراسات يغلب الطابع التاريخي الادبي على أكثرها . وأهمية دراسته أنها تلقي الضوء على اتجاهات عصره في القرن الرابع الهجري ، وهو عصر نضج الحضارة العربية الاسلامية وازدهارها بلا خلاف . وقد اتسم بنزعة علمية فكرية باهرة على الرغم من الضعف السياسي الذى تراءت بداياته في ضعف الخلافة العباسية وانقسامها الى دويلات صغيرة متنافرة . وتجدر الاشارة هنا الى أن أبا حيان التوحيدي ظل مغمورا حتى عصر ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) الذى يقول أنه لم يرَ " أحداً من أهل العلم ذَكَره في كتاب ولا دمجه في خطاب "(٢٢). هذا مع أنه كان من مشاهير القرن الرابع الهجري في مجال التأليف ، وله نشاط كبير وأثر بارز " في حلقات الادب والفلسفة " (٢٣). لم تذكره كتب تاريخ الادب العربي ، مع أن بعضها قد أشاد بأدباء امتاز عليهم التوحيدي بدرجة كبيرة جداً (٢٤). وهكذا فقد تأخَّرت الدراسات التي بحثت في نتاج التوحيدي (٢٥). ويمكن القول بأن الاعمال التي تناولت فكره من قبل اهتمت عموما بالجوانب الادبية في نتاجه ، وظل نصيب الجانب الفلسفي الانساني فيها نزراً يسيراً (٢٦) . ويحتاج منا الى تحليل وإعادة نظر .

٢٢ . معجم الادباء ، ج ١٥ ، ص ، قارن مرجوليوث ، " أبو حيان " ، دائرة المعارف الاسلامية ، مج ١ ، ١٩٣٣ ، العدد الاول ، ص ٣٣٥ .

٢٣ . د. ماجد فخري ، تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

٢٤ . انظر R.A. Nicholson, Aliterary History of the Arabs, Cambridge Univ. Press, London, 1965, P. 257.

قارن آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، مج ٢ ، ص ٤٤٢ .

٢٥ . انظر د . عبد الامير الاعسم ، أبو حيان التوحيدي ، ص ١٦ .

٢٦ . انظر المصدر السابق ، ص ٢٢ ، ٣٠ - ٣٢ ، ٤٤ - ٤٦ ، ٣٢٩ ، ٣٤٠ . قام الدكتور فهمي جدعان بدراسة جانب من مشكلة الصداقة عند التوحيدي في مقالته " داعي المشاكلة في نظرية الحب عند العرب " ، دراسات عربية واسلامية ، تحرير وداد القاضي ، الجامعة الاميريكية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٩١ - ٩٥ . وألمح الدكتور زكريا ابراهيم الى مشكلة الصداقة عند التوحيدي في كتابه مشكلة الحب ، دار مصر للطباعة ، ١٩٧٠ ، ص ١٩ - ٢٢٣ ، كما أنه تعرض بشكل موجز الى غربته ورأيه في الصداقة في كتابه أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الادباء ، المؤسسة العامة للتأليف والانباء والنشر ، مطبعة مصر ، ص ٢٢٤ - ١٤٦ .

وتتمثّل صعوبة البحث في محدودية آراء التوحيدي الخاصة بهذا الموضوع ،وهي آراء مبعثرة في صفحات كتبه المنشورة . وأما رسالته الوثيقة الصلة ببحثنا وعنوانها الصداقة والصديق ، فهي حشد لاقوال وأشعار في الصداقة . ويمتاز التوحيدي بأسلوب العرض المنوّع لمأثورات أدبية وفلسفية تفصح عن اهتمام أصيل بثمار الفكر من جانبه . وعندما يعلق على هذه المأثورات التي ينقلها ، فان أحكامه تأتي مقتضبة وغامضة أحياناً . وقد يُغفِلُ التعليق أحياناً أخرى على هذه المأثورات ويكتفي باثارة التساؤ لاتحول مراميها (٢٧).ونادرا ما نراه يهتم بتحليل المفاهيم الفلسفية وتفسيرها ، وتفتقر خواطره الخاصة ومنقولاته ، بشكل عام ، الى المحاكمة العقلية . ونجده أحياناً يتمنى على غيره لو برّر أقواله وبيّن عللها ومسوغاتها في الخبرة الانسانية . (٢٨)

وكثيرمن خواطر التوحيدي ومقتبساته يدور على الانسان وقواه وخصائصه التي تميزه عن الحيوان وتؤهله للاضطلاع بالتكليف الالهي ، وعواطفه وقيمه الخلقية وشؤون حياته وخبرته ، وعلاقاته بالاخرين وعزلته ، وصداقته واغترابه على وجه الخصوص . والمهم في هذا الامر أن أبا حيان يتناول الانسان من غير أن يتوافر له المنهج والاطار الفكري الذى ينظم هذا الجانب من كتاباته المشتتة. ونجد اليوم أن موضوع الصداقة والاغتراب ، الذى هو محور البحث في هذه الاطروحة ، يندرج في حقل فلسفي نشأ حديثاً في ألمانيا في عشرينات هذا القرن . وهذا الحقل الناشيء ، الذى تمتد ارهاصاته الى الفلسفة القديمة ، هو الانثروبولوجيا الفلسفية .

تهتم الانثروبولوجيا الفلسفية ببحث جوانب الانسان على نحو شمولي ،وتحاول أن تجمع معطيات عنه من مختلف الحقول العلمية والفكرية ، ثم تناقشها وترتبها " ومن خلال تنظيم المعرفة المجزأة وتأويلها ، تهدف الانثروبولوجيا الفلسفية الى فهم خصائص الانسان الجوهرية وامكانياته ... وتميّزه ، عن الكائنات الأخرى " (٢٩) .

---

٢٧. قارن ، عبد الرزاق محيي الدين ، أبو حيان التوحيدي : ، ص ٣٤٤ .

٢٨. انظر البصائر ، ج ٣ (٢) ، ص ٤٤٠ ، ٦٣٨ .

٢٩. H.D. Pappé "Philosophical Anthropology", Ency. of Philosophy, 1967, vol. 6, p. 166.

وليس للأنثروبولوجيا الفلسفية منهج محدد يتبعه كل الباحثين في هذا الحقل. انما يتحدد المنهج في هذا النطاق حسب ما تقتضيه طبيعة الموضوع.ويجيز لنا هذا أن نعتمد في اقامة بحثنا للصداقة والغربة عند التوحيدي على تحليل آرائه وخواطره مع دَمْج بعض الآراء التي ينقلها عن غيره اذا لزمت لتكميل مسار البحث . وقد ذهب العرب إلى أن " اختيار الحقل عقل " في حد ذاته ، أي يعبّر عن قدرة خاصة في التمثل وتثقيف الذات (٣٠). ونأخذ بهذا الاعتبار مع تحفظات معينة يقتضيها منهج البحث المعاصر . وبشكل رئيسي ، ارتأيت أن أعتمد النصوص الواردة في الصداقة والصديق على اعتبار أنّ ما اختاره التوحيدي هو صدى لهاجسه في الصداقة . وهي تتفق ، في مجملها ، مع خواطره الخاصة التي ترد في رسائله الاخرى . فبصيرة التوحيدي الانتقائية كانت تتجه نحو ما يتسق مع فكره في أغلب الأحيان .

ان تنوع وجهات النظر وتعددها في كتاب الصداقة والصديق من العقبات التي تقف أمام ادراكنا لمفهوم الصداقة عند التوحيدي ، الا أن هذا التنوع يلقي الاضواء على أبعاد اشكالية الصداقة في الحياة الانسانية . ويذكر لنا التوحيدي أنه ألفّ هذا " ليكون ... رسالة تامة يمكن أن يستفاد منها ، وينتفع بها في المعاش والمعاد " (٣١). وقد تكون الفائدة ، اذا ما قُرِئَتْ كما هي ، وقد تكون اذا ما كثرت في النفس وكبرت في العقل (٣٢). وعلى أية حال ، فان هذا البحث لم يُعنَ بكل الأمثلة والشواهد التي تتعلق بالمشكلات العينية التي قد تعوق الصداقة أو تحفزها ، انما ناقش عينات ممثلة منها ، وينشد من وراء ذلك توضيح الخصائص العامة لهذه العلاقة .

وثمة صعوبة أخرى تكمن في مشكلة مؤلفات التوحيدي ذاتها ، حيث أن معظمها يخلو من التصنيف والتبويب ، ولمّ الموضوعات تحت عناوين رئيسية . كما أن

---

٣٠. قارن د. عبد الامير الاعسم ، أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات ، ص ٢١٥ ـ ٢٢٠ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٦ ، ظافر القاسمي ، " الصداقة والصديق ... لابي حيان التوحيدي " ، مجلة المعرفة ، عدد ١٠ ، (دمشق) ، ١٩٦٢ ، ص ٤٣ ـ ٤٤.

٣١. الصداقة ، ص ١ ـ ٢ .

٣٢. انظر الصداقة ، ص ٤٧٥ .

النصوص كثيرة وتتضمن مواضيع شتى بحاجة الى فهرس يرتبها ، بالاضافة الى أن منهج الرجل في الكتابة يعتمد على الرواية والاسناد في معظم الأحيان ، وأحياناً أخرى على الاسئلة والاجوبة التي تجري بينه وبين غيره من أدباء ومفكرين ، أو بين هؤلاء المفكرين أنفسهم . وهكذا نراه ينتقل ، من موضوع الى آخر مختلف ، في نفس الصفحة الواحدة ، وبشكل عام ، فان أصعب ما يواجه الباحث هو دراسة الانسان وأصعب منها البحث في علاقة الصداقة التي تتسم بالتعقيد ، ذلك أنها تفاعل وتداخل ما بين حاجات أثنين وميولهما ودوافعهما ومعتقداتهما (٣٣).

ويصطنع التوحيدي أسلوباً محكماً من حيث بلاغته وفصاحته ، غنياً بالتعبيرات النادرة التي امتاز بها على أدباء عصره ، وتأتي لغته خطابية مُشَبهة في كثير من الاحيان . وهي تختلف عن اللغة الفلسفية التي تلتزم الدقة والوضوح . يجب أن نذكر هنا أن عمل الباحث في فكر الاديب يختلف عنه في الفكر الفلسفي أو الكلامي . فهو يضطر في حالة الاديب أن يصطنع مبدأ ى التحليل والتركيب لصياغة المفهوم المبعثر في الشعر والنثر . فاذا تم للباحث ذلك عمد الى مناقشته . فعمل الباحث في مؤلفات التوحيدي ينصبّ أولاً على جمع الشذرات الخاصة بالموضوع ثم إعادة المفاهيم على ضوء ذلك ثم مناقشتها في سياق انثروبولجي فلسفي ، معاصر على قدر الامكان . وتظل نظرات التوحيدي في عمومها واعدة عميقة ، على الرغم من نبرتها الخطابية ، وتدعو الباحث الى أن يمعن النظر فيها .

يمكن اعتبار كتابي الصداقة والصديق والاشارات الالهية ، والرسالة التي كتبها التوحيدي إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد ، المصادر الثلاثة الرئيسية للبحث . وتشكل نصوص الكتاب الاول محور مفهوم الصداقة وأوجهه المهمة . ففي النصوص الشعرية والنثرية المقدمة فيه ، نجد مثلا أن التوحيدي ينتخب النصوص التي تتضمن المقومات والمبادئ التي تؤلف نموذج الصداقة وتبين مقوماتها استمرارها ، وينتقي أيضا النصوص المتضمنة للعوامل التي تسبب الفرقة . وقلما نعثر على نص لا يتصل بعناصر الصداقة المهمة وهي قيم خلقية دينية بشكل عام .

أما المصدر الرئيسي لموضوع الاغتراب فهو الاشارات الالهية ، ورسالته الى القاضي أبي سهل علي بن محمد . ويتميز الكتاب الاول عن كتب التوحيدي الاخرى

٣٣. قارن Gabriele Taylor, "love", Philosophy as it is, Edited by ted Honderich and Myles Burnyeat, Penguin Books, U.S.A., 1978, P. 170.

بصبغته الصوفية واسلوبه الرفيع الذي يكشف عن مرارة المعاناة وعمق الصراع في نفس المؤلف وحياته المضطربة • وتعتبر رسالته الى القاضي الباب الذي يلج منه الباحث الذي يتوخى استخلاص أسباب غربته ومكوناتها المختلفة وهي تبرز مجمل الدواعي النفسية والاجتماعية التي حَدَتْ به الى إحراق كتبه • اذ يوضح في هذه الرسالة نيته على اعتزال الناس ،كما تتجلى فيها بعض مظاهر اغترابه •

- ٣ -

يتشكل هذا البحث من ثلاثة أقسام وتسير خطته على هذا النحو :

القسم الاول : الوجه والقناع في العلاقات الاجتماعية • هنا نناقش أولا دور العقل في ترشيد هذه العلاقة سواء أكانت مما يندرج تحت الصداقة الودية أم العداوة، ثم نفحص دور العقل في لجم الاهواء وشحذ الارادة باتجاه الخير في نطاق " العلاقات الاجتماعية " ، وهذا هو الفصل الاول • ثم تفحص هذه الدراسة " موانع الصداقة وأسباب الفرقة " بين الناس كما يراها التوحيدي • فنتوقف عند الرذائل الاجتماعية كالنميمة والتجني والغدر والمراء وعند بعض المواقف المذمومة في الصداقة كالعتاب والهجر مثلا ، فنبين آثارها في هدم امكانيات المودة ، وهذا هو الفصل الثاني • ثم ننظر في الجهة المقابلة لاسباب الفرقة فنجد دواعي التآلف وتتلخص في " المشاكلة " التي جعلها التوحيدي مع غيره من المفكرين العرب المبدأ الاساسي للصداقة ، فنفحص أفكاره في هذا الموضوع ونبين الى أي مدى وعلى أي الوجوه تكون المشاكلة ممكنة ، وهذا هو الفصل الثالث الذي نختتم به القسم الاول •

أما القسم الثاني : النموذج والواقع في الصداقة ، فنتقدم في الفصل الرابع منه تصور التوحيدي " لحوافز الصداقة وأماراتها " • فنعرض للمواقف الودية وأسسها الدينية-الاخلاقية التي تؤثر في تآلف القلوب • ونحاول أن نستجلي طبيعة مشاعر الصداقة في مستوى التجربة الباطنية للانسان التي قد تختلف عن سلوك المرء ، المتجلّي في حركاته واشاراته • وفي الفصل الخامس ننظر في الصداقة القائمة بالفعل المتعينة في الواقع ، فتواجهنا مجموعة أصول نفسية وقيم خلقية تشكل " شيم الصداقة ومقوماتها " وتغذى دوامها وتعمل على رسوخها،ونتبصر فيها موقف التوحيدي الذي يتذبذب بين المثالية والواقعية • ثم ننظر في

" نموذج الصداقة وامكانية تحقيقه " في الواقع • فنتناول في هذا النطاق مجموعة تعريفات للتوحيدي وغيره ، يَبْرز في معظمها موقف مثالي في تحديد ماهية الصديق ، كما أنها تجسّد القيم والمبادئ المثلى في الصداقة ، وهذا هو الفصل السادس •

القسم الثالث : العزلة والفرار الى الله ، هنا نعرض في الفصل السابع لمظاهر اغتراب التوحيدي ، فنفحص الشروط الاساسية الموضوعية الماثلة في الواقع الذي عايشه هذا المفكر ، وأثرت في تشكيل انتحائه الخاص نحو اعتزال المجتمع وتسويغ هذه العزلة في مستوى العقل والايمان • ونتلمس وطأة الصراع بين الميول الذاتية والاجتماعية • ثم ننظر من خلال الفصل الاخير وهو الثامن في أوجه عزلته عن المجتمع ونتبصرها من خلال مفهوم " الاغتراب " ، ونناقش العلاج الروحي لهذا الاغتراب الشخصي عن العالم من خلال موقف التوحيدي نفسه • وثمة خاتمة البحث التي تقيّم من منظور تركيبي أهم الافكار التي ناقشناها في الفصول السابقة •

" فلو ثبتم على الصراط المستقيم وعلقتم حبل العقل المتين المستبين ، واعتصمتم بالعروة الوثقى من الهدى والدين ، كنتم كنفس واحدة في كل حال ، ذللت أو صعبت تجمعت أو تشعبت ، تعرفت أو تنكرت . "

الصداقة

الفصـــل الاول

العقل والعلاقات الاجتماعيـــة

اهتم التوحيدي بالعلاقة الانسانية . نظر في العداوة فوجدها نزعة شره وبحث في الصداقة فأدرك أنها قيمةٌ لاتتجسد الا في الأخيار . وهي صلة روحية لا تتوفـــر بين الناس عامة وانما في خواصهم ، وهي المرتبة السامية في العلاقات الانسانية(١). ويرجع الفرق بين الاخيار والاشرار ، وما ينتج عن أفعالهم من نفع أو ضـــرر ، الى تفاوت الاعتقاد بالحق وبالباطل لدى الناس (٢)، والى قدرة كل منهم بالطبع على استعمال عقله وارادته باتجاه العمل الصالح . وهذا هو معنى من معانـــي العقل ، وهو التعقل ، وعلى أساس منه يوصف الانسان أنه عاقل بمعنى الفاضـــل القادر على فعل الخير وتجنب الشر والتمييز بينهما (٣). فالشر عامل يزيد مـــن نقصه في حين أن الخير هو غاية كماله . اذن فالانسان مكلف بكسب " الكمـــال بالقصد " (٤) . ذلك أن الله تعالى قد وهب الانسان القدرة على الاختيار بخـــلاف الملائكة الذين جُبلوا على طاعة الله وحده دون معصية ، فأحوالهم ثابتـــــة

١. أنكر أبو حيان الصداقة على معظم طبقات المجتمع ، فاعتبر قيام الصداقـــة بين الاقطاعيين والتجار وأصحاب الاسواق أمراً مستحيلاً ، وذلك لخسة نفوسهـــم وحقارتها ، ولغلبة الشر عليها . انظر الصداقة ، ص٥ ـ ٧ ، الامتـــاع ، ج ٣ ، ل / ٣٢ ، ص ٦١ ، ويشير التوحيدي الى امكانية اتفاق مؤقت بـــين الاشرار ، لكن صداقتهم لاثبات فيها ، انظر الصداقة ، ص٣٥٢ ، ٢ وهكـــذا يتفق التوحيدي في نظرته هذه مع تصور أرسطو فيرى الاخير الصداقة فـــي أصدق معانيها والتي يمكن أن يتحقق فيها الثبات والكمال في صداقـــة الاخيار فقط .
قارن The Nicomachean Ethics, Book 8, pp. 265-267.

٢. انظر المثالب ، ص ٣ ، وحول مشكلة الشر و " التناقض أو التناقض الظاهري" بين واقعية الشر والتأويلات الدينية ، انظر
John Hick "The Problem of Evil" The Ency. of Philosophy, 1967, vol. 3, pp. 136-140.

٣. انظر الفارابي ، رسالة في العقل ، أنايلي بار ، موريس بوجيه ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت . ولقد كان هذا المعنى أيضا محور اهتمام الجمهـور والمتكلمين . في حين أن اهتمام فلاسفة المسلمين انصب على تبيان مستويات العقول ومظهر كل واحد منها ووظيفته ، انظر د. محمود قاسم ، في النفـس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام ، مكتبة الانجلو المصرية ، ج٣، ص ١٩٣ـ٢٥٠.

٤. الامتاع ، ج ٤ ، ل / ٩ ، ص ١٥٨ ، ثم انظر المثالب ، ص ٢١ ـ ٢٢ .

لاتذبذب فيها ، وكأنهم محكومون بالطاعة [٥].

وما كانت حرية الاختيار في الانسان ممكنة لولا العقل ، ويدل فعل الانسان على الاختيار [٦]. ولا يمتاز انسان على آخر الا بالتقوى وتوخي العدل وهما اختيار للخير . فالاختيار اذن ميزة انسانية وعلى الانسان أن يشحذ ارادته ، ويعمل عقله ، فيحاول أن يخرج ما استتر في نفسه من امكانيات خيره الى حيز الوجود بالفعل ، أي الى السلوك الفعلي [٧]. يقول التوحيدى : " إنَّ الاختيار اشتقاقه بحسب اللغة من الخير ، وهو افتعال منه ، واذا قيل : اختار الانسان شيئا فكأنه افتعل من الخير أى فعل ماهو خير له ، اما على الحقيقة ، واما بحسب ظنه" [٨] . وهكذا يربط أبو حيان الاختيار بالخير الذى هو جوهر الصداقة السوية كما أسلفنا . وما الانسان الا مشروع يتشكل تدريجياً في الحياة من خلال سلسلة اختياراته التي يعتمدها وينفذها . فكأنه بأفعاله يحدد ما سيكون عليه في نهاية المطاف . " والرجل بمواقع اختياره ، اذا مالي ووالى ، واذا انحرف وعادى ، واذا اجتنب يدل على خطره وقدره ، ويقوّم نفسه قيمة يرجع اليها من عاقله وعدل عليه" [٩].

٥. انظر المقابسات ، م / ٦٦ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

٦. انظر الهوامل ، س / ٩٠ ، ص ٢٢٦ .

٧. انظر المقابسات ، م/ ٦٨ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

٨. الهوامل ، س / ٩٠ ، ص ٢٢٣ . يقترب مفهوم الاختيار هذا من التحليل الذي قدمه بول فولكييه ، " لايعتبر علماء النفس المحدثون لفظ " ارادية " الا الاعمال الموجهة شطر الخير أو الافضل، فاننا لانريد بكامل ارادتنا الا في النشاط الاخلاقي وهو الذي يتجه نحو الخير ... فاننا في سعينا وراء الخير انما نسعى الى خيرنا ، وغالبا ما نبحث عنه أكثر بكثير من بحثنا عن الخير " . الارادة ، ترجمة جهاد نعمان ، سلسلة ماذا أعرف ، المنشورات العربية ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢٨ - ٢٩ . وهذا قريب من نظرية المعرفة السقراطية ، التي ترى الانسان لايفعل الشر وهو عالم به ، وقد أكده التوحيدى بعرضه للتفسير اللغوى والمعرفي للاختيار ، فالانسان يفكر باختيار الخير أو مايظن أنه خير . وبشكل عام ، فان الاختيار يكون لافضل الممكنات .

٩. الصداقة ، ص ٤١٢ - ٤١٣ . في هذه النقطة يحمل فكر التوحيدى بذور الفلسفة الوجودية التي ازدهرت في القرن العشرين . " الصداقة حال ، وهي تختلف تماما عن المحبة الممكنة تجاه أى شيء ، ذلك أن [عاطفة] المحبة المتبادلة [في الصداقة] تتضمن الاختيار . وينبثق الاختيار [بالطبع] من حالة اخلاقية " . انظر Aristotle, The Nicomachean Ethics, Book 8, P. 267.

يُسْهِبُ التوحيدي في تبيان مفهوم العقل ودوره في حياة الانسان ، وأثره على سعادة المرء وشقائه ، فبسبب العقل سُمِّيَ الانسان ناطقا . وفي كل انسان قسط منه يتجلّى في تدبيره لسلوكه وشؤون حياته وتحصيله للمعرفة " بالموجود في العامة انما هو قوة متصاعدة على الطبيعة قليلاً ، بعد التباسه بها . فقاءَ عليها ظل النفس الناطقة ... وبها باينوا كل حيوان دونها مباينةً تامةً من وجه ، وضارعوا كل حيوان دونها مضارعة مختلفة من وجه "(١٠). وهكذا فالعقل أعظم نعمةٍ مُنِحَتْ للانسان وبواسطته تُنال السعادة الحقيقية من الله وهو منبع " الخير كله " (١١).

ويرى التوحيدي أن العقل هو أساس الصلة بين المخلوق والخالق ، فهو مناط التكليف : به يعقل الانسان كلام الله تعالى ويتدبره ، ويتعرف على سُنّة النبوة ، وبه يدافع عن دينه ويحميه ، ويدعو الله عن طريقه (١٢). وبه أيضا يَفْرُقُ الانسان على غيره من الكائنات . والعقل من ناحية أخرى هو وسيلة البحث في سر الوجود (١٣)، على أن للعقل حدوداً يقف عندها ، فلا يتجاوز الخبرة ، بل يسلم بأمور الغيب السماعية ، أي الامور التي لايكاد يقاربها العقل الا من خلال الوهم والخيال (١٤) . ان الوجود بأسره عبث لولا أن العقل الانساني تبين ضربا من الغائية فيه . " نحن مكانيون ، زمانيون ، خياليون ، وهميون ، ظنيون ، منقسمون مما كان وما يكون ، حريون بالجهل جديرون بالنقص ، وانما ندرك بعض ما ندرك اذا صفت طينتنا ، وزال عنا تقسمنا ، وفارقنا وهمنا ، وزال حسنا ، وعلا زماننا الى دهرنا ، وعطف علينا العقل بمعاده، وأودعنا ماهو من جواهره ودرره "(١٥). فبالعقل اذن يتغلب الانسان على جزئيته وانقسامه وأوهامه وجهله، ويحاول أن يصل الى مرتبة الثبات التي تتعالى على تغير الانسان في الزمان . ويعتبر العقل صديق الانسان الحق ، فقد يخدع الانسان أخاه الانسان ، وقد يسيء

---

١٠. المقابسات، م / ٥٤ ، ص ٢٢٤ .
١١. المقابسات، م / ٦٢ ، ص ٢٤٩ .
١٢. انظر البصائر ، ج ١ ، ص ٧ – ٨ ، وقارن ص ٥٤٨ – ٥٤٩ وانظر ص ٢٤٥ .
١٣. انظر الحياة ، ص ٨٠ وقارن المقابسات، م / ٢٠ ، ص ١١٨ – ١١٩ .
١٤. انظر الحياة ، ص ١٢ .
١٥. الحياة ، ص ٦٢ – ٦٣ .

اليه ، ويضله ويكذب عليه (١٦)، وقد يحلف اللسان كاذبا أما " العقل فلا "(١٧) . فالعقل هو حليف الانسان الاصيل " وعدوه جهله "(١٨). انه العقل الذى ينصح ويرشد ، فبه يسيطر على الاهواء والنزوات . وبقدر ما يطيع الانسان هذا الصديق يحقق النجاة والسعادة لنفسه وربما لغيره أيضا . وقد ينشأ عدم امتثال الانسان للعقل في أحيان كثيرة بسبب أن الانسان مطبوع على الجهل في حين أن التعقل مكتسب ، وتأثير الطبع المتأصل في النفس أقوى من العلم المكتسب (١٩).

يسوغ أبو حيان صداقة العقل هذه بالنظر في كيفيّة الصداقة وأساسها النفسي ـ الاخلاقي ، وذلك أن الانسان " مركب من الأخلاط الاربعة التي هي عناصره وأصوله . ففيه نَفْساً ذات قوى ثلاث : وهي الناطقة التي مسكنها الدماغ ، والغَضَبيّة التي مسكنُها القلب ، والشَهْوية التي مسكنها الكبد ، وان كان مرجعُها الى واحدة فيقال : نفس ناطقة ، ونفس غضبيّة ، ونفس شهوية "(٢٠) واذا لم تمارس النفس الغضبية الشهوية وظائفها الحيوية باتزان فانها تؤدي بالانسان الى الهلاك ، وذلك بتشبهها بعقله فتخدعه . ويظن الانسان أنه في انقياده لقوى الغضب والشهوة يطيع العقل فيستعمل " الشر على أنه خير "(٢١) . ويرد التوحيدي علة وصف الافعال الاخلاقية بين محمودة ومذمومة " وبين المشوبة بالحمد والذم ، وبين الخارجة منهما " (٢٢) الى ارتباط هذه الاخلاق بالانفس الثلاث (٢٣) لذلك كان الاختلاف في الفعل الانساني الاخلاقي طبقاً لتغلب احداهما على الأخرى مما يجعل عملية تحديد كل مرتبة خلقية بحد " واحد " مستبعدة . والاخلاق تصفو أيضا بصفاء

---

١٦. انظر الصداقة ، ص ١٦١ .
١٧. الهوامل ، ص ١١٣ ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ؛ قارن البصائر ، ج ١ ، ص ٥٨ ، ١٥١ ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ ، ص ٥١٦ ـ ٥١٧ .
١٨. الصداقة ، ص ٢٤٠ .
١٩. انظر الصداقة ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ . تختلف وجهة النظر هذه عما جاء في نظرية " التذكر " عند افلاطون " فهو يعتبر أن العلم فطرى في النفس وليس مكتسبا قارن Plato, "Phaedo", The last days of socrates, Translated by Hugh Tredennick, Penguin Books, Great Britain, 1982, pp. 119-126.
٢٠. الاشارات ، ص ٣٧٧ .
٢١. الاشارات ، ص ٣٨٠ .
٢٢. الامتاع ، ج ١ ، ل / ٩ ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ، ١٥٢ .
٢٣. قارن يحيي بن عدي ، " تهذيب الاخلاق " ، الفكر الاخلاقي العربي ، تقديم د. ماجد فخري ، الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٩، ج٢، ص ٩٠ـ٩٣ .

القوة الناطقة وتكدر بالنفسيين الاخريين ، الا أن الناطقة تهذبهما وتطهرهما بالتغلب عليهما ، فتطفئ نار القوة الشهوية ، وتأخذ بزمام الغضبية ، فتعدل بفعليهما الى فضيلتهما " فيعود السفه حلما أو تحالما ، والحسد غبطة أو تغابطا ، والغضب كظما أو تكاظما ... وهناك يصير العفو عند القادر ألذ من الانتقام ... والصداقة عند الموتور آثر من العداوة ، والمداراة عند المحفظ أطيب من المماراة "(٢٤).

ينطلق التوحيدي من هذا التحليل ليقيم الصداقة على أساس العقل ومعاييره ويستنكر الصداقة المبنية على الهوى . ويبدو أن مشكلة الحب لم تشغل حيزاً مهماً في فكره مثلما كان الوضع بالنسبة الى الصداقة التي جعلها أهم العلاقات الانسانية والاجتماعية . اهتم مفكرُنا على أية حال بالتمييز بين الحب والصداقة ، واعتبر الصداقة أسمى علاقة انسانية ، إذ إنها ترتبط بالعقل وهو أسمى جوانب الذات . وجعل علاقة الحب مما يدخل في اشباع الحاجات الحيوية الدنيا . ذلك أن الصداقة " مدبرة بالعقل ، ومجراة على أحكامه ، ومحمولة على رسومه . فأما العلاقة (يقصد علاقة الحب والعشق) فهي من قبل الحس ، والطبيعة عليها أغلب ، وآثارها فيها أبْيَن " (٢٥).

تتمثل في الصداقة الرصانة ، وكبح الشهوات ، والاستقامة ، خلافاً للحب الذي " ليس للعقل فيه ظل ولا شخص "،(٢٦) فهو يتغلغل في الانسان كالمرض.

٢٤. الامتاع ، ج ١ ، ل / ٩ ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ، ١٥٤ . ترجع هذه القسمة الثلاثية في الاصل الى أفلاطون ، انظر د. ناجي التكريتي ، الفلسفة الاخلاقية الافلاطونية ، عند مفكري الاسلام ، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ج ١ ، ١٩٧٩ ، ص ١٧٨ ـ ١٨٨ ، ثم قارن

Plato, The Republic, introduction by Desmond Lee, Penguin Books, second Edition, Great Britain, 1983, Part 3 (book 4) pp. 208-222.

وقد شاع في الفكر الاسلامي ، ان وظيفة العقل الاخلاقية هي قمع سلطان الهوى والشهوة والرغبة العابرة ." وأما الهوى فهو عن الخير صاد ، وللعقل مضاد ، لانه ينتج من الاخلاق قبائحها ، ويظهر من الافعال فضائحها ، ويجعل ستر المودة مهتوكا ، ومدخل الشر مسلوكا "، أبو الحسن الماوردي ، أدب الدنيا والدين ، تحقيق مصطفى السقا ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط ١ ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م ، ص ١٧ .

٢٥. المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص ٤٥٩ .

٢٦. الصداقة ، ص ١٣٦ .

ويستحوذ عليه فيفسد المزاج . وفي الصداقة تتمثل الحكمة، والنفس القوية وفضائل الاخلاق العليا . وتصلح التجربة في الصداقة لتكون مقياسا يستفاد به على خلاف العلاقة التي تنحرف فيها " النفس الضعيفة والطبيعة القوية " الى جهة الهوى وتحقيق الشهوة . إنّ " الصداقة أذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروّة ، وأبعد عن نوازي الشهوة ، وأنزه عن آثار الطبيعة ، وأشبه بذوي الشيب والكهولة ...فأما العلاقة فهي من قبل العشق والمحبة والكلف والشغف ... والهوى والصبابة ... وهذه كلها أمراض أو كالامراض ... ولهذا تسرع هذه الامراض الى الشباب من الذكران والاناث وتنال منهم ، وتملكهم ، وتحول بينهم وبين أنوار العقول وأداء النفوس ، وفضائل الاخلاق ، وفوائد التجارب . ولهذا وأشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواعظ ، ليفيئوا الى ما فقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط"(٢٧).

يرى التوحيدي إذن أن علاقة الحب أدنى درجة من الصداقة . فهي تقوم على تجربة عاطفية تتغير وتختلف من شخص الى آخر ؛ فلا يشتق العقل منها معايير للتقويم ؛ إذ إن قوام الحب شهوات النفس فتنأى بالانسان عن التعقل الذي هو أصل في الصداقة . فاذا كانت هناك صفات محمودة في علاقة الحب فان منبعها صداقة الروح الحقة ، وهي لاتقوم الا على أساس خُلُقي قويم ، وهذا على خلاف علاقة العشق التي تدعو بطبيعتها الى انتهاك قواعد الاخلاق (٢٨). وهكذا يتوسم في الحب وهماً وخداعاً ، وفي الصداقة صِدْقاً وأُنساً أكثر . ومجون العشق كامنة في فطرة الانسان (٢٩)، بينما الصداقة استرواح للعقل والروح : فيصقل العقل باللقاء، ويُشحَذ الذهن بالمحادثة ، ويسكن القلق عن الروح بايداع سرها في مأمن لدى صديق (٣٠). وفي الصداقة استقرار ، فضمان استمرارها أوثق ، وفيها العلانية والسر بلا خوف في غالب الاحيان . أما علاقة الحب فيكتنفها الشك والرِّيَب والخوف ، ويعتورها التقلب في الاحوال (٣١). وبالعقل تُدْرَك قيم الخير والحق والباطل . ولأن هذه قيم ثابتة لاتغير فيها ، فان الصداقة التي تقوم عليها تميّزت بالخير المحض والثبات والاستقرار ، في حين أن العلاقة العشقية مبنية على الامور

---

٢٧ الصداقة ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

٢٨ انظر الصادقة ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

٢٩ انظر الصداقة ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

٣٠ انظر الصداقة ، ص ٣٦٩ ؛ وقارن البصائر ، ج ٢ (٣) ، ص ٥٤٣ .

٣١ انظر الصداقة ، ص ٣٥٢ .

الحسية القابلة للتحول والتغير . وقد ينطوي العشق على عناصر من الشر مدمرة فيصير الى عداوة وهي نفي الصداقة ، أو هي الوجه السالب لها . وتتضمن العداوة كثيراً من الرذائل كالافتراء والكيْد .

إلى هذا المدى يبدو أن العقل هو أساس الصداقة ، وحتى العداوة تستدعي أيضا التعقل والدهاء . فهي وإنْ كانت علاقة سَلْب ونفي بين طرفين ، الا أنها تشترك مع الصداقة في احتياجها لتدبير مَلَكَة العقل . وبيّنّ أيضاً أن العداوة تستدعي الإنْصاف والعدل حتى تظل في نطاقها المشروع . يأخذ العقل اذن دورا أساسيا في العداوة والصداقة على السواء . فكيف يفسر التوحيدي هذه المشاركة مع أن العداوة شر والصداقة خير ؟ كأنه يمتثل لقوله تعالى (ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لاتعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى)(٣٣). ومن الجلي أن هذه الاية لاتطلب من المسلم أن يخص الصديق أو المسلم بالانصاف . انما العدل قيمة أساسية يجب أن تسود في علاقات أخوة الايمان بالاصدقاء والخصوم من المسلمين وغيرهم .

ويقدّم لنا التوحيدي نموذجاً من الواقع لعداوة شخصيتين بارزتين في القرن الرابع الهجري ، يثق الواحد منهما في نوايا الاخر على الرغم من العداوة الظاهرة بينهما ويعتبر هذا المثل مقياس كل علاقة يشوبها البغض ويتضح هنا دور العقل في التغلب على العداوة الا التنافس فانه يصعب على العقل تخطيه . فالعدل مبدأ فاصل يتبصر الحق ، في حين أن التنافس اتجاه يؤكد الذات ومصلحتها فإذا كانت الوسائل المستخدمة لتحقيق الاهداف المرجوة شريفة كان التنافس بَنّاءً ، وإذا كانت خلاف ذلك أصبح هدّاماً (٣٤) .

ان البغض والحب ، على أية حال ، أمران منوطان بالهوى ، وقد يقوى على الارادة أحياناً . وليس الخير كله في الحب بالضرورة أو الشر كله في البغض ، لكن ينبغي أن لايؤثر البغض أو الحب بين اثنين على الاخرين فيمسهم بشر ، والظلم

---

٣٢. انظر المقابسات ، م / ٩٩ ، ص ٤٢٦ .

٣٣. سورة المائدة ، آية ٥ .

انظر البصائر ، ج ١ ، ص ٣٩٦ ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .

٣٤. كان بين القاضي أبي حامد المروروذي وابن حربية عداوة وشحناء راسخة ، ومع هذا فقد كان كل منهما يعترف لصاحبه بالفضل . انظر الصداقة ، ص ٤٩-٥٠ .

شرفي حين أن العدل والانصاف خير . وقد يعادي المرء من يبغض ، وقد يصادق من يرضى عنه ، وفي كلتا الحالتين عليه بالعدل (٣٥). وعندما يستنير الانسان بالمعايير العقلية فانه سيحكم على عدوه أوله بالعدل والقسط : " ان الانصاف ينبغي أن يكون عاماً مع الناس كلهم " (٣٦). ويُفْضي العدل الى ائتلاف الناس ، " وبالعدل والمساواة تشيع المحبة بين الناس وتأتلف نياتهم وتعمر مدنهم وتتم معاملتهم وتقوم سننهم " (٣٧).

ليس العدل هو المطلب الوحيد في العداوة ، وانما هناك أيضا النزاهة (أو الموضوعية بلغة اليوم) وهي شرط العدالة ومن غيرها لا تتحقق . إذْ يفترض في العادل أن يستبعد نوازع الذات وهواها على قدر الامكان عند إصْدار حكم من أحكامه . فاذا ما اضطر الواحد الى الاحتكاك بالعدو ، فمن المستحسن أن يكون " بالاعذار اليه ، والحجة فيما " (٣٨) بينه وبين عدوه . ويتضح مما تقدم أن العقل حاكم الصداقة والعداوة معا ، ويشير التوحيدي في هذا المجال الى مثل مأثور مفاده أن العدو العاقل خير من الصديق الاحمق (٣٩). وهناك مأثورات أخرى بعضها ينسب لحكماء الصحابة وبعضها لحكماء اليونان وغيرهم تربط العقل بالخير من ناحية ، وتجعل الشر نتيجة للجهل . ولما كانت الصداقةُ توجها اجتماعياً يَحْكمه العقل فانها خير . والناس بطبيعتهم ينشدون صداقة العاقل ويبتعدون عن اقامة العلاقة مع الجاهل . و" العاقل الكريم صديق كل أحد الا من ضره ،والجاهل اللئيم عدو لكل أحد الا من نفعه " (٤٠)

٣٥ انظر البصائر ، ج ١ ، ص ٢٩ . حدد التوحيدي المقولات التي هي من الخلق أو تلحق به ، كما أنه ربط كثيرا منها بمعاملات الناس وعلاقاتهم الانسانية . أما الحب والبغض ." فهما خلقان ، وطرفاهما متعلقان بالخلق " . الامتاع ، ج ١ ل / ٩ ، ص ١٥١ ـ ١٥٧ : ولايخلو مفهوم العدل أيضا ، عند الحارث بن أسد المحاسبي ، (ت ٢٤٣ هـ) من التعقل الذى من شأنه أن " يفهم عن الله " ويميز بين الحق والباطل ، انظر "كتاب مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه " ، العقل وفهم القرآن ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م ، ص ٢٠١ ـ ٢٣١ ،

٣٦ الصداقة ، ص ٤٨ ، وانظر الشعر في ص ٣٣٤ . وقارن البصائر ، ج ٢(١) ، ص ٣٢٨.

٣٧ الهوامل ، س / ٢٩ ، ص ٨٤ . ونجد الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) يربط بين العدل وتآلف الناس ، أيضا انظر أدب الدنيا والدين ، ص ١٢٥ .

٣٨ الصداقة ، ص ٣٦٤ .

٣٩ انظر الصداقة ، ص ٥١ ـ ٥٢ .

٤٠ الصداقة ، ص ٣٢٢ .

وقد يحتج أحدُنا بأن الصداقة ذات جانب عاطفي أساسي ينأى بها عن تدبير العقل . فهي في نموذجها الاسمى ايثار للصديق وتضحية من أجله . لكن التوحيدي يفهم الصداقة من خلال مفاهيم عقلية أخرى كالوَسَطية والاعتدال . فالاسراف والشطط في العواطف شيء لايحمد عقباه . ذلك أن من يصادق عليه أن يضع في حسبانه احتمال انقطاع هذه العلاقة لسبب أو لآخر ،(٤١) وفي هذا صدمة شديدة لمن كان عاطفياً في صداقته .

كيف يخفف العقل من تدخّل الهوى والعاطفة في الصداقة ؟ يعي العقل اذا كان سليماً راشداً أن الصداقة مثل أي علاقة أخرى في هذا الوجود تصير الى التلاشي بموت أحد الطرفين أو بسفر أحدهما أو بسبب وجود خلافات من نوع ما . لذلك كان من المستحسن الاحتكام الى العقل حتى يخفف قدر المستطاع من النتائج السيئة المترتبة على الاندفاع في العواطف . ومثل هذا الحكم ينطبق على العداوة أيضا . انما يتوقع الانسان في هذا النطاق أن مآل العداوة قد يكون الى ضدها ، أي الى صداقة ، ويكون ذلك بالطبع في حالة الاحتكام الى العقل وعدم الانجراف وراء العواطف والمشاعر السلبية المسرفة تجاه الاخرين .(٤٢) ومن الافضل في كل حال أن يتجنب المرء الخلط بين الصديق والعدو ، وأن يكون على وعي بعدو يداجيه وخليل يكن له المودة في صمت . فمن المحتمل أن العدو المداجي حين يضحك " لك فانه يضحك منك ، فان لم تتخذه عدواً في علانيتك ، فلا تجعله صديقاً في سريرتك".(٤٣)

ويبدو لنا أن نظرة التوحيدي الى علاقة المرء بعدوه عملية في مجملها ، مستقاة من التجربة ، فمثلا يضطر المرء أحياناً الى التظاهر بمودة العدو لظروف قاهرة ، أو لاعتبارات معينة تجبره على ذلك . ومثل هذا التظاهر تمليه الحكمة العملية ، وهو سلوك تمجه النفس الحرة لكنه قد يدفع مكاره أعظم (٤٤). ويشكل هذا السلوك معاناة لدى الانسان الصدوق . ذلك أن المرء يعاني كثيراً اذا لم يكن

---

٤١. قارن الصداقة ، ص ٣٣٤ .
٤٢. انظر الصداقة ، ص ٣٧٦ .
٤٣. الصداقة ، ص ٣٦٩ ، قارن إبن حزم ، الاخلاق والسير في مداواة النفوس ، منشورات دار الافاق الجديدة ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٩ م ، ص ٨٢ .
٤٤. انظر الصداقة ، ص ٢٥٣ ، قارن ص ٣٧٦ ، ص ٣٢٢ .

من طبعه الرياء والنفاق ، وقد يصبح وضعه هذا لايطاق ، إذ عليه أن يتحمل هـذه المداجاة ومن ثم الصبر على ماليس منه بد " فليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد بدا من معاشرته ، حتى يجعل الله له من ذلك مخرجا " (٤٥).

ان الحالة السابقة سلوك اضطراري بالامكان تسميته التقية من العدو . الا أن هناك وجهاً آخر وهو نوع من أنواع الحيلة والخبث يستعملها الشخص الماكـر عندما يريد أن يظهر بمظهر الصديق فيمثل دور الاخير أحسن تمثيل . وقد يكتشف المرء حقيقة هذا المداجي وأساليب خداعه ، ولا يجد مع ذلك مناصاً من قبولـه . ذلك أن المرء يُرَهّق فكره سدى عندما يحاول تفسير التناقضات في سلوك بعض الناس. والتوحيدي يُعلن أن " الصراخ ممن يظن أنه صديق ثم يخرج في مسك عدو قديـم ، والتشكي منه مردود ، وليس الا الصبر والاغضاء . ودفع الوقت ، وطرح الاذى عـن الفكـر "(٤٦).

بيّنّ أن ظاهر الحالات السالفة هو الصداقة وباطنها العداوة ، وغاياتهـا نفعية بحتة . وهناك منافع أيضا في العداوة الظاهرة ، فكثيراً ما يكون العداء هو الحافز الذي يستثير حصافة الانسان ومقدرته ، أو ينبهه أحياناً إلى مجـالات وآفاق لم يكن لينتبه إليها أو يحقّق في نطاقها أهدافاً لو لم يدفعه الى ذلـك استهزاء عدو أو سخرية حاقد . وقد ينتصر المرء عند تحديه للعدوه وقد يكـون المُسْتَهزَأ به هو المستفيد الاول في المعركة . وفي كل معركة ، مهما يكن شكلهـا ونوعها ، دروس مفيدة للخاسر والمنتصر معاً . ومن المفارقة أن يكون قرب العـدو مفيداً أحياناً ، وقُرْب الصديق مضراً في أحيان أخرى . فالصديق قد لايرى عيـوب صديقه مثلما يراها العدو ، فاذا ما أظهر العدو عيوب الاخر ، فأخذها الاخر بعين الاعتبار ، ووجد أن دعوى خصمه صحيحة ، عمل على تحسين وضعه وتغيير سلوكـه ، فيترقى بذلك أو ينأى بنفسه عن الانحدار . فنقد الاعداء يفتح ـ عن غير قصـد ـ طريق الاصلاح الذاتي أحياناً .

---

٤٥. الصداقة ، ص٥٤ ،
" ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ∴ عدوا له ، ما من صداقته بـد "
ص٣٤ ، ٣٦ ، قارن الجاحظ " رسالة المعاش والمعاد " رسائل الجاحظ
تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ١٩٦٤ ، جـ١، ص١٠٩.
٤٦. الصداقة ، ص٥٨ ، أنظر ص١٠١ ، ص٣٧٦ ، قارن البصائر ، جـ١ ، ص٣٣٩ .

وهناك قرب مضر في الصداقة وذلك حين يكشف أحد الطرفين أسرار صديقه ويعرف مثالبه . ذلك لان الواحد منا يكون على سجيته عند لقاء صديقه فلا يتحفظ في تصرفاته ، بمعنى أنه يثق فيه فيتصرف بتلقائية تسقط كثيراً من الاقنعة الاجتماعية والنفسية ، فاذا فترت علاقة الصداقة أو تحولت الى عداء طارئ ، فان الواحد منهما قد يهتك ستر الاخر ويفضحه ، وهذا أخطر ما يكون في الصداقة (٤٧).

تتداخل الصداقة والعداوة في علاقة ذوي القربى . ويرى التوحيدي أن الازعاج والذل يكمنان في الصداقة بين أفراد الفئة من الناس التي تجمعها عصبة الدم . وثمة حالات حادة ترويها كتب التاريخ عن العداوة بين ذوي القربى ، وتدل على حدة الصراع الخفي (والجلي أحيانا) الناشب فيما بينهم وهو داء مهلك لاعلاج له في بعض الاحيان . وهل هناك ماهو أشد غضاضة على النفس من عداوة القريب؟ فأصعب مشكلة يمكن أن يواجهها المرء هي " شماتة الاعداء خاصة اذا كانوا متيامنين في النسب " (٤٨).

وكان لهذه المسألة تأثير بالغ في نفس التوحيدي ، وهو يتساءل عن سرها في أكثر من كتاب ، لانه يلاحظ أن التنافس والعداء في " ذوي الارحام أو القربى " أشد بكثير مما هو عليه في غيرهم ، ذلك أن اشتراك الاقارب في نسب واحد يعرض كل من ينفرد بجاه أو مال منهم للحسد والمنافسة . ويرجع السبب في ذلك الى افتراض " المؤازرة والمعاونة والتساوي في الاموال " (٤٩) في ذوي الارحام أساسا . فكل فرد فيهم يرى أن له حقوقاً عند الآخرين توجبها نفس الصلة من القربى . فاذا تفردّ بها قريبه غضب وامتلأ صدره بالحقد عليه ، ويدعم التوحيدي رأيه هذا بالاشارة الى واقعة كثيرة الحدوث وهي صفاء الصداقة بين أناس لاقرابة بينهم (٥٠).

ومهما ارتقت العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة أو بين الاقرباء في المجتمع ، فانها لاتبلغ مرتبة الصداقة التي تضرب جذورها في أعماق الوجود

---

٤٧. انظر الصداقة ، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ ؛ وقارن الجاحظ ، " كتاب كتمان السر وحفظ اللسان " ، رسائل الجاحظ ، ص ١٥٨ .

٤٨. البصائر ، ج ٤ ، ص ١٠٩ .

٤٩. الهوامل س/ ٣١ ، ص ٩٠ ـ ٩١ ؛ وقارن ، الصداقة ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، ص ٢٤٦ .

٥٠. انظر الصداقة ، ص ١٤٩ ، قارن ص ٤٦٧ .

الروحي والوجداني • ويعبّر التوحيدي عن الالتحام في الصداقة فيفرق بين العواطف والمشاعر التي تتسم بها كل علاقة داخل الاسرة الواحدة وخارجها فعلاقة الابن بأبيه تختلف عنها مع أمه ، وعلاقة الاخ مع أخيه تختلف عنها مع صديقه وهكذا في بقية العلاقات (٥١). ومهما يكن من أمر صلة الدم بين ذوي القربى فانها تهون في نظر الواحد إذا كانت تسبّب له أذىً فادحاً • وليس الامر كذلك في ضروب الصداقة خارج دائرة العصبة ، اذا كانت مشاعر الصديق متوازية مع مشاعر الاخ الاخر وخالصة من الشوائب • وفي هذا النطاق يفضل الصديق الوفي أحيانا القرب من صديقه على القرب من قريبه اذا خير في صديق من ذوى قرباه • وقد "يفارق الاوطان والاهلين في ايثار " (٥٢) موافقته • ومن المعروف أن القريب لايختار قريبه والصديق لايفرض على صديقه ، وليس القريب بالضرورة صديقاً • إنّ صلة ذوي القربى تتعلق بالبدن والدم الذي يسري فيه ويرجع مع غيره الى حد واحد • بينما تبدو صلة الصداقة تقاربا في المستوى الروحي لا البدني • وهي على أشد ما تكون إذا ما جَمَعَت بين نسب الجسم والروح • يقول التوحيدي : " إن الأخ إذا لم يكن صديقا فهو نسيب الجسم ، والصديق اذا لم يكن أخاً ، فهو نسيب الروح "(٥٣).

---

٥١. انظر الصداقة ، ص ١٦٩ ـ ١٧٢ ؛ وقارن مارك بيرجيه ، " المثل الاعلى للصداقة عند أبي حيان التوحيدي " ، مجلة المعرفة ، ص ٧١ ـ ٧٢ •

٥٢. الصداقة ، ص ٤٢١ •

٥٣. الصداقة ، ص ٣٩٨ ، قارن ص ٣٣٣ ، ص ٢٨ يستعمل التوحيدي لفظة قربة لتعني تمازج الروح والنفس ، ولفظة قرابة لتعني صلة العصبية والدم • انظر السقيفة ، ص ٣٣٠ ، وقارن د • أحمد الحوفي ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ •

الفصل الثانـــي

موانع الصداقة وأسباب الفـــرقـــة

تدعو موانع الصداقة في حد ذاتها الى العداوة في أكثر الاحيان ، فهي إمّا أن تكون مسبّبةً لها أو نتيجة • وقد تُهدَم الصداقةُ بكلمة أو بموقف يتخـــذه الانسان • ويتعرض التوحيدي لبعض القضايا التي تعتبر من الامور المفرِّقة بيـــن الناس وتُضعِفُ صداقةً قائمةً بالفعل • ومن هذه الامور المفرّقة النميمة، والمراء، والحسد ، والعتاب ، والهجر وغيرها •

حاول التوحيدي تفسير العداوة فوجد أنها تحدث أحياناً بسبب جهل الواحد بشخصيته لاخر أو بالظروف المحيطة به • ومن شأن هذا الجهل أن يشكل تصـــوراً خاطئاً قد يُفْضي الى عداوة • وقد يكره الانسان عِلْماً أو عالِماً بسبب جهله بهما ، ولو أن كل انسان حاول أن يفقه غيره لما " عادى الناس ما جهلوا " (١)• فمــــن المحتمل أن يؤدي الجهل الذي يحدث بين طلاب عِلْمين مختلفيْن ، أو بين طلاب العلم الواحد الى العداوة • فجهل الواحد بعلم الاخر يجعله يكره صاحبه مما يشكــــل عداوة بينه وبين الاخر • وقد يكون التنافس هو عامل العداوة بينه وبين زملائـه في العلم الواحد (٢)• كما أن هناك من يرى الجهل والجّد سببين للعداوة فـــي كل موقف وفي كل حالة • " وأصل اختلاف العباد في جميع الامور من علتين : إمـــا جهل بما يدعون ، وإما جحد لما يعرفون • والجاهل بما يدعي أرجى رجعة مـــن الجاحد لما يعرف وان كان لاعذر له في ترك علم ما يجهل • كما لاعذر لاحد في جحد ما يعلم " (٣)• وكذلك فان الحماقة هي من دواعي العداوة بين الناس ، خاصـــة تلك التي تحدث بين الكتاب ، بسبب الشك والغرور وتحقير للغير • والحماقـــة تكون في وَضْع الذات في مرتبة من هو أعلى منها • فلو عرف كل امرئٍ قَدْر نفســه

١• الهوامل ، س/ ٧٥ ، ص ١٨٩ •
٢• أنظر الهوامل ، س/ ٧٥ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ •
٣• الصداقة ، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ •

لما تعدّى على منزلة غيره ، وهذه من الحماقات المؤدية الى " العـــــداوة والمغالبـة " (٤).

إذا كان التقارب هو بداية التآلف فان التباعد هو بداية الفرقة والوحشة، ومن شأن النميمة أن تقوّض أساس العلاقة بين طرفين من البشر • وهي تثير الشقـاق بين الناس ، لذلك يمكن اعتبارها من العوامل المنفّرة الواجب تجنبها لمن أراد أن يكسب ودّ الآخرين (٥). فالنميمة عامل مُفسد يولد أحقاداً وضغائنَ وعـــداوات كثيرة • والنمّام هو الذي لايكتم الحديث ، فيذيعه مع ما فيه خطورة الشّقـــاق والفرقة ، وما فيه من إساءة إلى المنقول عنه ، وهو بافشائه أسرار غيره انمـا يهتك ستره ، فالنمّام لايُؤْمَنُ جانبُه ولا يوثق به • وقد قال صلى الله عليه وسلـم " أن من شرار الناس من اتقاه الناس لشره ، والنمّام منهم " (٦).

ويبحث التوحيدي الاثر السلبي للمزاح في سياق علاقات الصداقة ، وهـــو يشجب المبدأ العملي الذي يصطنع فيه المرء المزاح وسيلة لتحقيق غرض ما مـــن الآخرين ويحذر من " فلتات المزاح "،(٨) وقد يهجو بعض الناس أصدقاءهم وينتقصـون من كرامتهم بحجة المزاح (٩). وباختصار فان التوحيدي يُعطي المزاح قيمة سلبيـة في مجال الصداقة خاصة ، فهو مفتاح الضغائن • زد على ذلك ، أن المـــزاح يسقط هيبة الانسان ويدل على قلة عقله ، ويصِمُه بالسوء ، هذا عدا عن الاضـــرار التي يُلْحِقُها بالاخرين في كثير من الاحيان • " وقيل : انما سُمي المزاح مزاحـاً ، لانه يزيح عن الحق " (١٠).

٤• المثالب ، ص ٩ •

٥، انظر الصداقة ، ص ٢٩٧ •

٦• " حديث أن من شرار الناس من اتقاه الناس لشره ، متفق عليه من حديـــث عائشة " ابو الفضل العراقي ، هامش احياء علوم الدين ، للغزالي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ج ٣ ، ص ١٥٧ •

٧• " توقَّ من الاخوان كل ممازح ∴ يزول مع الافياء حيث تزول " ، الصداقة ، ص ٢٠٧ •

٨• الامتاع ، ل / ٢٩ ، ج ٢ ، ص ٤٨ ، وانظر الصداقة ، ص ٣٥١ •

٩• انظر البصائر ، ج ٢ ، ص ٢٥ ، ق • • ٣ (٢) ، ص ٥٧٩ •

١٠• الماوردي ، أدب الدنيا والدين ، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ؛ قارن الغزالي ، احياء ج ٣ ، ص ١٢٧ ـ ١٣١ •

ويقرن التوحيدي المزاح بالمراء(١١) . ولاعجب في ذلك ، إذ " المراء يفسد الصداقة القديمة ، ويحل العقدة الوثيقة "(١٢) . لان الخصومة تكمن في المراء والجدال ، وهي تتعارض مع الصحبة ، وقد تُفضي الى العداوة . وعلى المؤمن أن يبتعد عن المراء ما استطاع ، لا مع أصدقائه فحسب وانما مع الناس بشكل عام ، لانه صفة مكروهة . ويتضمن النقدُ والتجريح للآخرين وذلك بالاعتراض على أقوالهم وأفعالهم والطعن فيها . فالمُجادل يقدّمُ حُجّته ليعلو بمنطقة على الاخر، ويحاول في عمله هذا أن يظهر النقص والعجز في الغير وفي هذا ضرب من الكِبْر أو الترفع في نفس المُماري ، وإظهار فضله وعلمه على الآخر(١٣) . وفي حالة افحامه ، فان النتيجة إما تكذيبه أو إغضابه ، وقد يَخْلِق حقداً في صدور الآخرين في كلتا الحالتين . " لا أماري صديقي ، فاما أن أكذبه ، واما أن أغضبه "(١٤)، أي " لا أجادله ولا أنازله ولا أطعن في قوله ولا أعترض عليه ، ... ما من شيء أضر على الاديان ولا أفسد بين الاخوان ، من الجدل "(١٥).

ويُعتبر الحسد أيضاً من العوامل المفرّقة ، بل من الامور التي تضر بالعلاقة بين الناس . فالحسد " أكمل الشرارات "(١٦) وممارسته مع الاعداء فيها شر كبير ، فكيف اذا كان الحاسد صديقا ؟ فالحسود " هو الذي لايحب لاحد خيراً ، ويجتهد في الاضرار بهم وبنفسه ، حتى يلحقهم بذلك مكروه "(١٧) . وينشأ الحسد أحياناً بسبب إخفاق الحاسد في إحراز ما حاز عليه الآخرون من علم أو مال أو مكانة ، وقد يكون بسبب أن الاخر وصل الى ما وصل اليه الحاسد . وهو على أية حال مظهر من مظاهر الانانية والتمركز حول الذات . فاذا ما حاز آخر على حظ من حظوظ

---

١١. " أما المزاحة والمراء ، فدعهما ∴ خلقان لا أرضاهما لصديق
اني بلوتهما فلم أحمدهما ∴ لمجاور جارا ، ولا لرفيق" الصداقة ، ص ٣٥٥.

١٢. الصداقة ، ص ٥٤ ، انظر البصائر ، ج ٤ ، ص ١٣١ .

١٣. انظر الغزالي ، احياء ، ج ٣ ، ص ١١٦ - ١٢١ .

١٤. الصداقة ، ص ٤٩ ، " وذكر عند النبي صلى الله عليه وآله رجل كان يألفه قبل أن يبعثه الله نبيا يقال له أبو السائب ، فقال : نعم الصاحب كان أبو السائب ، لايماري ، ولايشاري " ، الصداقة ، ص ٨٥ .

١٥. البصائر ، ج ٣ (٢) ، ص ٥٩٨ .

١٦. الكندي " رسالة يعقوب بن اسحق الكندي في الحيلة لدفع الأحزان "، رسائل فلسفية للكندي والفارابي وابن باجة وابن عدي . تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ ، ص ١٧- ١٨

١٧. المقابسات ، م / ٩١ ، ص ٣٨٦ .

الدنيا استنكر الحسود ذلك ، وانتقص من أهلية المحسود لما حصل عليه" (١٨). ان الحسد هو غم يلحق الانسان بسبب خير ناله مستحقه ، ثم يتبع الانفعال الــــردئ أفعال آخر رديئة ، فمنها أن يتمنى زوال ذلك الخير عن المستحق ، ويتبع هــــذا التمني أن يسعى فيه بضروب الفساد فيتأدى الى شرور كثيرة ، فمن عرض لــــه عارض الحسد ... فهو شرير ، والشرير لايكون فاضلاً "(١٩) ثم ان الحسد يعتبر مــــن العوامل المهلكة للحاسد والحسود معا ؛ " فالحسد أهلك الجسد "(٢٠). وهو يوقــع صاحبه بالكمد والملامة (٢١). وقد لايتعدى الضرر الحاسد نفسه أحيانا " ولــــن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ، ويشغل فكره ... ولايجاوز ضره نفسه " (٢٢).

وعلى كل حال فان بعض الناس يرى أنه لامعنى للحسد على أي نعمة فــــي عالم متغير متكثر ، فالموجود ذاته يصير " الى عدم كأنْ لم يوجد "(٢٣) . إنّ الحاسد في نظر التوحيدي إنسان جاحد . والحسد فساد يتغلغل في نفوس كثير مــــن الناس ، وخاصة الذين يشتركون في مهنة واحدة أو يصلون مرتبة عالية مشتركـــة. " والبلية مضاعفة من جهة النظراء في الصناعة ، وللحسد ثوران في نفوس هــــذه الجماعة "(٢٤) . " ان الاثنين أو الجماعة من الناس اذا اشتركو في أمــــر ، وجمعهم سبب فتساووا فيه مع تساويهم في الانسانية ثم تفرد من بينهم واحــــد بفضيلة ـ حسد نظيره ، أو غبطه "(٢٥). وهناك علاقة طردية بين تنعم المــــرء وكثرة فضله،وبين الحسد ، فكلما ازداد نعمة وفضلا ازداد حسّاده (٢٦). وثمـــة أسباب تدعو للحسد أهمها : " العداوة والبغضاء " ، وخوف الحاسد من تكـــبر المحسود عليه عندما يزداد ماله ويعلو جاهه ، وقد يكون السبب استصغار الحاسد

---

١٨. انظر الهوامل ، س/ ٧٥ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .
١٩. الهوامل ، س/ ٣٣ ، ص ٧١ ، انظر الامتاع ، ج ٣ ، ل/ ٣٧ ، ص ١٣٠ ؛ والبصائر ، ج ٣ (٢) ، ص ٥٦٦ .
٢٠. الامتاع ، ج ٢ ، ل/ ٢٦ ، ص ١٥١ ، انظر البصائر ، ج ٤، ص ٢٩٢ ، ج٣ (٢)، ص ٤٨٥ ، ٥٩٨ .
٢١. انظر البصائر ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .
٢٢. البصائر ، ج ١ ، ص ١٨٢ .
٢٣. البصائر ، ج ١ ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .
٢٤. الامتاع ، ج ٢ ، ص ٢٠١ .
٢٥. الهوامل ، س/ ٣١ ، ص ٩٠ .
٢٦. الماوردي ، أدب الدنيا والدين ، ص ٢٤٦ .

لئأن المحسود في كثيرمن الاحيان (٢٧). ويُعتبر الحسد أخطر من العداوة ، فهو تركيب في السجية لاسلطان للانسان عليه ، لانه لادور للعقل في الحسد كما هو في العداوة . والحسد يُنتْج العداوة أيضاً في حين أن العداوة قد تخلو من الحسد . واذا لم يتداخل الحسد في العداوة ، فمن المحتمل أن يتحول العدو ولياً . لكن الحسد لايستحيل الا بزوال أحد عناصره ، ذلك أنه " جوهر "(٢٨) .

ويحمل العتاب في طياته معنى من معاني الحساب ، أي تحميل مسؤولية ذنب ما للآخرين ، وهذا بدوره يحمل معنى اللوم الذي يزعج النفس ويقلقها سواء أكان لوم الاخرين أم لوم النفس ذاتها ، وسواء أكان المعاتب مُحِقّاً أم لا ، فان فيه إحْراجاً للصديق ، خاصة أن بعض المفكرين يرى أن " الصديق لايُحاسب " (٢٩). يرتبط العتاب بالظن والتجّني عند بعض من يقتبس عنهم التوحيدي ، فيُفْضي في نظرهم الى نتائج غير محمودة ، فاذا حدث من غير ذنب ، فهو من الامور السلبية في الصداقة (٣٠). وكذلك فهو تجنٍ (٣١)، والتجني بداية القطيعة . ودلالة العتاب من صديق الى صديقه أنه " وَجَد عليه مَوْجِدَه ، وأنكر منه شيئا من فعله "(٣٢). أما من خلا قلبه من الموجدة ، فيمكن أن يُعْزَىٰ عتابه الى عوامل نفسية تعتبر سلبية في مجال الصداقة ، واذا لم يتحفظ المرء فيها ويحذر ، فَسُدَتْ صداقته .

يرفض الكثيرون مبدأ العتاب بين الاصدقاء ويحذّرون منه (٣٣). ويعتقد بعض أصحاب هذا الاتجاه بأن ثمة تباينا أصليا بين أمزجة الاصدقاء . إذ يستحيل أن يتماثل اثنان من البشر في كل سمة وسجية ، لذلك كان لابد من وجود اختلاف ما بين

---

٢٧. انظر الغزالي ، احياء ، ج ٣ ، ص ١٩٢ – ١٩٣ .

٢٨. انظر الجاحظ ، " كتاب فصل ما بين العداوة والحسد " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٣٧ – ٣٧٣ .

٢٩. الصداقة ، ص ٩٣ .

٣٠. انظر الصداقة ، ص ٢١٣ – ٢١٤ ،
" فمن شاء رام الصرم أو قال ظلما .. لذي وده ذنبا وليس له ذنب " ص ٢١١ .

٣١. انظر الصداقة ، ص ٢٢٧ ، ويعتبر ابن حزم سوء الظن في الحب أصل العتاب بين المحبين ، طوق الحمامة في الالفة والالاف ، ضبط وتحرير د. طاهر مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٣٤ .

٣٢. البصائر ، ج ١ ، ص ١٩ . " وَجِدَ عليه اذا غضب .. وجدت على الرجل مَوْجِده أي غضبت عليه وأنا واجد عليه أي غضبان ". ويعني الوَجْد في سياقات أخرى الحب ، وأنه ليجد بفلانه وَجْداً شديداً اذا كان يهواها ويحبها حباً شديداً ". الزبيدي ، تاج العروس ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي ، مادة وَجَدَ .

٣٣. انظر الصداقة ، ص ٤٢ .

الصديقين معا يؤدي أحياناً الى اختلاف في مسلكيهما أحيانا . وبناء على هذا ، فالافضل لكل منهما التغاضي عما يراه من صاحبه حتى لاتنقطع أواصر المودة. ومن هذا المنظور ليس ثمة ضرورة للعتاب ، انما لابد من أن يتقبل كل منهما الطرف الاخر على علاته[٣٤]. وثمة أدباء يستنكرون العتاب لانه من عوامل الفرقة التي تؤدي الى الهجر[٣٥]. وبالتالي الى تهديد العلاقة الحميمة برمتها ، ويتفق أصحاب هذا الرأي مع آخرين يرون أن للعتاب أثرا سيئا على الاخوة لانه " ما افترق متعاتبان قط الا على حسيكة "[٣٦]. وبشكل عام ، فان هذا الاتجاه يرى أنه لاخير ولا فائدة في أصدقاء يعاتِبُ بعضُهم بعضاً في كلِّ كبيرة وصغيرة[٣٧].

ويرى آخرون أن العتاب يمكن أن يكون علاجا يأتلف على اثره الصديقان ، وتَرْكُهُ يعمل على إضْعاف العلاقة بينهما . فالعتاب يمكن أن يحقق يقيناً بعد شك[٣٨]. أما نَبْذُه "فذريعةُ الهجر" [٣٩]، لأن " العتاب حدائق المتحابين "[٤٠] . وهو مُستَحبٌ عند من يرى أنَّ عتاب الأخ قد يعيدُ أخاه الى الحق،وهذاخير من انهيار الصداقة في حالة غياب المعاتبة . لذلك كان " الصبر على أخ تَعْتَبُ عليه ، خير من آخرَ تستأنفُ مودته " [٤١] . ولاشك أن اساءة الواحد الى صديقه تتناقض مع منطق المودة الخالصة التي هي قوام الصداقة ومع ذلك فقد يسيء الصديق الى صديقه أو يستخف به ، فعليه أن لايغضب من صديقه اذا استعتبه في هذه الحالة. فاذا غضب من المعاتبة ، يكون قد عادى العقل ، وانتهك حقوق الاخوة أيضا ، لان " من احتج في اساءته ، وأغضبه على أخيه أن يستعتبه ، فقد جعل العقل خَصْمَه ، وظلم الاخاءَ حَقَّه "[٤٢].

---

٣٤. انظر الصداقة ، ص ١١٤ .

٣٥. انظر الصداقة ، ص ١٤٧ .

٣٦. الصداقة ، ص ٢٤٢ . " والحسك والحسكة والحسيكة : الحقد على التشبيه. قال الازهري : وحسك الصدر حقد العداوة " ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، ١٩٥٥ ، مادة حسك .

٣٧. انظر الصداقة ، ص ٢٥٨ ، ص ٢٩٦ .

٣٨. انظر الصداقة ، ص ١٤٥ .

٣٩. الصداقة ، ص ٢٥٦ .

٤٠. الصداقة ، ص ٣٦٠ ، ص ١٧٧ .

٤١. الصداقة ، ص ١٨ .

٤٢. الصداقة ، ص ٤٣٣ .

رأينا أنّ العتاب من غير ذنب غير مستحب في الصداقة ، وبعض العتاب يورث الحقد • وقد يؤدي الى انقطاع المودة بين الصديقين • وكذلك ترك العتاب يُفضي الى هذه النتيجة أحياناً • ونقدم الان موقفاً وسطاً في هذه القضية فحـواه أن " كثرة العتاب الحاف ، وتركه استخفاف " (٤٣). وهذا الاتجاه لايستنكر العتاب بين الاصدقاء ، ولكنه يريده أن يكون لوماً هيّناً من غير شدة تؤذي احساس الناس (٤٤)، وتُحْدِثُ شقاقاً أو نفورا بين الاصدقاء ، فاذا كان العتاب مُسْرفاً فانه يكون مشوبا بالتعنّت والحقد الذي يفرق بين الاصدقاء • وبعض أصحاب هذا الاتجاه يعتبرون العتاب عامل مصالحة في الصداقة ، ومن شأنه أن يرأب الصدع ويلم الشعث ، ويعمل على صفاء القلوب (٤٥). وكذلك فان ترك العتاب عند بعض الناس يعني عدم الاكتراث بالاخرين مما يدل على تراخ يضر بالصداقة ، ومن أصحاب هذا الاتجاه من ينصح الذي يرى من أخيه عيبا ، أن لايكتمه فيخونه ، وأن لايصارح به غيره فيغتابه ، وأن لايواجهه به فيوحشه ، بل يكني عنه ويعرض به ، ويجعله " في جملة الحديث " (٤٦)، ومنهم من يرى في بعض العتاب ، شكلا من أشكال النصيحة المطلوبة بين الاصدقاء ، والتي هي حق من حقوق الصديق على صديقه خاصة اذا بنيت على الامانة والثقة وحسن النية (٤٧).

ويرتبط العتاب بمشكلة العذر وقبول الاعذار بين الاصدقاء ، فعلى المرء بادئ ذي بدء ألا يعجل في عتابه حتى تتوافر له الاسباب الموجبة له ، وعليه التمحيص في مسوغات العتاب حين يقدم عليه (٤٨). ويقبل بعذر صديقه في المسألة بعد عتابه فيها (٤٩)، سواء أكان العذر سائغا مقبولا في العقل أم غير ذلك • ويدل قبول الاعذار في حد ذاته على رغبة الصديق الاخر في دوام الصلة • وعلى المرء قبل البدء بالعتاب أن لايألو جهدا في البحث عن الأعذار لصديقه حتى

٤٣• الصداقة ، ص ١٨ ، ص ١١٤ ، ص ٣٨١ •
" اقلل عتابك فالزمان قليل ∴ والدهر يعدل مرة ويميل " •
البصائر ، ج ٢(١)، ص ٧ ، قارن الجاحظ " رسالة المعاش والمعاد "، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ •
٤٤• انظر الصداقة ، ص ١٧٥ ، ص ٣٥ •
٤٥• انظر الصداقة ، ص ١١٢ •
٤٦• الامتاع ، ج ٢ ، ل / ٢٤ ، ص ١٢٦ •
٤٧• انظر الصداقة ، ص ٤١٨ •
٤٨• انظر الصداقة ، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ •
٤٩• انظر الصداقة ، ص ٢٥٦ •

يتجنب تبكيت الصديق ولومه ، ومن شأن هذا اللوم أن يدكل إفساداً للصداقة (٥٠).

يعرض التوحيدي وجهات نظر عديدة تدور حول موضوع الهجر وتعالج أسبابه ونتائجه على الصداقة . وتعكس هذه الآراء مواقف متباينة ، الا أن معظمها يفيد بأن الهجر ، خاصة المتعمد منه ، هو عامل يفسد الصداقة ذلك أن " لكل جليلة دقيقة ، ودقيقة الموت الهجر " (٥١)، وما يقصد بالموت هو انقطاع الصداقة . ويعتبر الهجر عند معظم من يستنير التوحيدى بآرائهم عاملا من عوامل الفرقة بين الاصدقاء ، وهو حافز القطيعة بينهم اذا تكرر أو دام طويلاً . وللهجر دواع كثيرة . منها ما ورد سابقاً عن الاسراف في العتاب (٥٢) ، ومنها عدم رعاية الصديق لصديقه وتعهد أموره وتفقد أحواله ، فاذا ما قصّر أحدهما في حق الآخر بعد ارتباطهما بعهد الصداقة ، فمن المحتمل أن تفسد المودة بينهما فتنقطع أواصرها (٥٣).

ومن دواعي الهجر أيضا ظلم الاخ لاخيه . وإشارة التوحيدي للانصاف في الهجر تحتمل تفسيرين : الاول وهو معاملة الصديق بالمثل " ان قَطَعَ قَطَعَ وان وَصَلَ وَصَل " (٥٤) . والثاني وهو التفسير العام للانصاف الذي يعطي كل طرف حقاً مساوياً لحقّ الاخر ، مع الاخذ بعين الاعتبار مسألة تحكيم العقل في الصداقة بدلاً من الانسياق وراء الاهواء المدمرة ، ويرتبط التعقل بمبدأ الانصاف (كما مر سابقا).

وفي مجال الصداقة يرى بعض المفكرين علاقة عكسية بين الانصاف والهجر ، ذلك أن غياب الاول ، معناه الاستسلام لهوى النفس ونزواتها ، مما يؤدى الى انقطاع الصلة . فاذا كان الانصاف متطلباً أساسياً في العلاقة الانسانية ، فالاولى أن يعتمده الصديق من أجل أن ينصف صديقه فلا يظن به السوء . فاذا ما لاحظ هجراً من صديقه فعليه بادئ ذى بدء أن يتحمله فلا يعامله بالمثل ، لانه قد يظلمه ، وينبغي عليه أن يحافظ على صديقه بكل وسيلة ، لعل صرمه عارض ، وملله

---

٥٠. " اذا ما أتت من صاحب لك زلة ∴ فكن أنت مختارا لزلته عذرا"
البصائر ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

٥١. الصداقة ، ص ٢٥٨ .

٥٢. قارن ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٠١ .

٥٣. انظر " ترك التعهد للصديـ ∴ ـق يكون داعية القطيعة"
الصداقة ، ص ٤٥ .

٥٤. الصداقة ، ص ١٤٦ ، انظر ص ١٦٣ ، ٣٩٦ ، ٣٣٢ .

من غير عقيدة ، وقطعه غلط ، كأن الصديق مكسوب بسهولة ، وموجود متى طلب ! هيهات ! " (٥٥).

يبين لنا التوحيدي أيضا أن الغَدْر بالطبع يقوّض الصداقة من أساسها (٥٦). إذ ينبذ الانسان في مألوف العادة من يغدر به ، فما " يدعو المحب الى الهجر ... ادمان المحبوب للغدر " (٥٧). وعلى أية حال فان من يتمسك بالمبادئ الخلقية لايلجأ الى المعاملة بالمثل في حالة غدر الآخرين (٥٨).

يرتبط المَلَل بالهَجْر من حيث إنه عامل من عوامل الفرقة . فآفة الإحساس بالمَلَل " كثرة الإدْلال " (٥٩) . ويعني الادلال هنا وثوق الصديق بمحبة صديقه ، فيسرف في مطالبه ، وقد يطلب ما لا طاقة للصديق به ، ولا يعذره في المنع عليه . وهذا يحمل في طياته بعض الافتراء على الصديق . ثم إن إلْحَاح الواحد على الاخر بالمسألة قد يُفْضي الى الملل . وقد يكون للملل أسباب ، فيرجع مثلاً إلى طبيعة متأصلة أو إلى مزاج متقلّب في المرء ذاته . ولايغيب عن ذهن التوحيدي أن يشير الى الملل من حيث هو " حال " نفسية لبعض الناس ، فيقع أثرها السيء على من يصاحبونهم ، لان الملول لا مبدأ له ولا عهد (٦٠). وبالامكان النظر الى كثرة اللقاء والتزاور بين الصديقين على أنها من دواعي الملل الذي يُفْضي الى الهجر . ويرى بعض المفكرين أن للوصال آثارا سلبية على الصداقة ، فان رؤية الصديق لصديقه دوماً قد تشعره بضيق وملل وضجر من هذه العلاقة ، وتنطوي مثل هذه النظرة على اعتبارات واقعية . ولكل انسان أوقات معينة يخلد فيها للراحة

---

٥٥ . الصداقة ، ص ١٣٨ ، انظر ص ٣٧ ، ٤٨ ، البصائر ، ج ٣ (٢) ، ص ٥٥٤ .

٥٦ . يميز ابن حزم بين الغدر والهجر ، فمن يقطع حبيبه ليصل غيره فهو ليس من " باب الهجر في شيء ، لانه الغدر الصحيح " ، طوق الحمامة ، ص ١٤٣ .

٥٧ . الصداقة ، ص ٣٢٩ .

٥٨ . انظر الصداقة ، ص ١٤٦ . ان العلاقة بين الغدر والهجر في الصداقة مبهمة هنا ، وللغدر معان كثيرة ، فهو يعني انتهاك حرمة الصداقة ومبادئها ، وتجاهل بعض المبادئ الانسانية .

٥٩ . قارن ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٠٤ .

٦٠ . انظر الصداقة ، ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، ٢٥٠ ،

" لاتصحبن متطرفا ذا ملالة ... فليس على عهد يدوم ملول ".

البصائر ، ج ٣ ، (٢) ، ص ٤٩٧ .

ولشؤونه الخاصة أحياناً ، ولايستطيع رؤية صديقه (٦١). ومسألة التقليل من زيارة الصديق خوفاً من الملل ، وطمعاً في زيادة المودة قد ذهبت مثلاً مأثوراً يتمثل به الناس في علاقاتهم ، ويرى بعض الأدباء أن في الهجر نفعاً اذا لم يستمر طويلاً ، فهو يحرّك لواعج الشوق ويحفز النفس الى اللقاء (٦٢). ويذكر التوحيدي على لسان أبي هريرة أنه قال : " لقد دارت كلمة العرب (زرغبّاً ، تزدد حبّاً) ، الى أن سمعت من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولقد قالها لي . قال العسجدي : ليست هذه الكلمة محمولة على العام ، لكن لها مواضع يجب أن تقال فيها ، لان الزائر يستحقها " (٦٣) .

قد يكون الهجر ردّ فعل غير متعمّد أو نتيجة غضب عارض ، فيكون الاعراض عن الصديق موقفاً مؤقتاً لاتتأثر به مشاعر القلب العميقة (٦٤). وباختصار فان الهجر ، على تنوع أسبابه وضروبه ، هو الجفاء الذي يندرج عند التوحيدي تحت " فاحش الخطأ " (٦٥) . وأسوأ ما في الهجر سوء الظن الذي يعني أن الثقة واهية الأسباب بين الصديقين ، وأن أحدهما أو كليهما لايعرف صاحبه حقّ المعرفة (٦٦) . ومع استفحال سوء الظن ، تتسع شقة الخلاف وتفسد الصداقة . وبعض الظن هو بالطبع تجن وافتراء ، وسبيل هيّن للجفاء ، ان " التجني رسول القطيعة ... وأول التجافي ، ومنزل التهاجر " . (٦٧) وهناك أسباب كثيرة يمكن أن تحول أية علاقة انسانية الى عداوة . من هذه الاسباب كثرة التجني وكثرة صد الصديق لصديقه ودَفْعه عنه ، وجفاؤه له . " وقد تستحيل الصداقة بالمصارفة عداوة ، لان التجني والاستزادة يعتورانها ، والاعتداء والاحتجاج يمحقانها " (٦٨) .

٦١ . " ان الصديق يَغمّه ∴ أنّ لايزال يَراكَ عندَهُ " البصائر ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

٦٢ . انظر الصداقة ، ص ١١٢ .

٦٣ . الصداقة ، ص ١٤٣ . قارن الماوردي ، أدب الدنيا والدين ، ص ١٦٢ ، الجاحظ ، " رسالة المعاش والمعاد " ، رسائل الجاحظ ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

٦٤ . انظر الصداقة ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، ٣٦١ .

٦٥ . الصداقة ، ص ٤٢٧ .

٦٦ . انظر الصداقة ، ص ٢٢٦

٦٧ . الصداقة ، ص ٣٦٠ ،

" واذا ارادك صاحب بخيانة ∴ جعل التجني للجفاء سبيلا
فترى دواعي الهجر في حركاته ∴ وكفى بذلك شاهدا ودليلا "

الصداقة ، ص ٢٢٧ ، قارن ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٠٢ .

٦٨ . المثالب ، ص ١٩٢ .

الفصل الثالث

مبدأ المشاكلة في الصداقة

عُني المفكرون العرب القدماء بمفهوم المشاكلة ، وعالجوا من خلاله تفسير قضايا وجدانية كالحب والصداقة ، وحاولوا الوصول الى نظريات في نطاق هاتين المشكلتين . واعتبروا المشاكلة أساساً مهماً تقام عليه علاقات الحب والصداقة بين البشر (١). وتعني المشاكلة بين صديقين ، الاتفاق والملائمة في صفات وخصائص يشتركان فيها . ويقف هذا المصطلح في مقابل " المشاكسة " الذى يعني المباينة بين البشر (٢). ويرى بعض المفكرين المعاصرين أن العرب قد تأثروا بالنظريات اليونانية المتعلقة بالمشاكلة ، وأقاموا بعضاً من خواطرهم على أساس منها (٣).

يوجد اتفاق بين المفكرين الاسلاميين المعاصرين للتوحيدي - واللاحقين

---

١. انظر بحث الدكتور فهمي جدعان ، " داعي المشاكلة في نظرية الحب عند العرب" ، دراسات عربية واسلامية ، ص ٨٥ - ١٠٦ .

٢. " يقال هذا اشكل بكذا اى اشبه ، وقوله تعالى " قل كل يعمل على شاكلته" أى على جديلته وطريقته وجهته" ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مختار الصحاح ، نظارة المعارف ، المطبعة الاميرية ، ط ٢ ، مصر ، ١٩١٠ ، ص ٣٦٧ . مادة شكل .

٣. انظر د. جدعان ، " داعي المشاكلة في نظرية الحب عند العرب" دراسات عربية واسلامية ص ٩١ . ويتداخل في نظرية الحب عند العرب مبدأ انقسام النفوس وخلق الارواح في الخلق . ومن المحتمل أن تكون هذه النظرة هي تحوير لمبدأ الانقسام في نظرية الحب عند افلاطون وتتضح دلالة الاسطورة الافلاطونية العميقة في التركيز على السعادة التي لاتتحقق الا عن طريق الحب ، وبواسطته يجد كل كائن نصفه الاخر الذى يكمله فيعود الى حالة الاعتدال الاولى التي كان عليه . انظر محاورة المأدبة ، ترجمة د. وليم الميري ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠ ، ص ٤٣ ، ٤٨ ، ٦٢ .

لـــه بشأن تقسيم دواعي الصداقة الى عرضية وذاتية(٤)، أو مكتسبة بالقصـــد والاختيار، والمكتسبة بالاتفاق الشبيه بالاضطرار(٥). ويجعل كثير منهم المبادئ الدينية والفضائل الاخلاقية مندرجة في الدواعي العرضية ، في حين أنهم يرون أن الدواعي الذاتية هي التجانس والملائمة بين جواهر الذوات أي في المشاكلـــة الروحية • فالمحبة مثلا عند ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) قسمان " محبة عرضية غرضية ••• والقسم الثاني محبة روحانية سببها المشاكلة والاتفاق بـــين الروحين " (٦). وهو يتوقف عند هذا التعليل دون الغوص في تفسير له يبين كيفية التجانس في الاصل • والغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ايضا استنتج داعي المشاكلة استقرائيا عن طريق " التجربة والمشاهدة " ورأى " أن ليس في قوة البشر الاطلاع " علـــى هذا الداعي فسرّه كالروح التي هي من أمر الله (٧). وهذا بالطبع على خلاف مـــا ذهب اليه ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) حين قال ان الحب هو " اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع " (٨). أما ابن الدبـــاغ (ت ٦٩٦ هـ) فقد بنى تعليله على نظرية المثل الافلاطونية " واعلم أن أصـــل التآلف الازلي في عالم الغيب ، فمن تَحَقَّقَت نسبتُه هنالك ظَهَرَتْ هنا ، اذ العالـــم الاسفل ظلّ للعالم الأعلى ، وهذه الاشباح أمثلة لتلك الأرواح ، فما من صورة فـــي عالم الشهادة الآ وهي مثال لذات روحانية في عالم الغيب ، فاذا تحركت تلـــك الحقيقة هنالك ، لزم أن يتحرك مثالها هنا ، كما أن الظل تابع للشخص فـــي حركته وسكونه ، فالتعارف هنا ثمرة ما هنالك" (٩) • ويحدث الداعي العرضـــي للصداقة فيما يرى ابن قيم الجوزية من التقارب الضروري بين شخصين واشتراكهما في أمور ترجع الى الاهتمامات أو المصالح أو ما شابه ذلك ، وأما " التناســـب الاصلي ، فهو اتفاق أخلاق وتشاكل أرواح وشوق كل نفس الى مشاكلها ، وان شبه الشيء

٤• انظر محمد أبي بكر بن قيم الجوزيه ، روضة المحبين ونزهة المشتاقـــين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٦٧ ــ ٦٨ ، و عبد الرحمن بـــن محمد الانصاري القيرواني المعروف بابن الدباغ ، مشارق أنوار القلـــوب ومفاتح أسرار الغيوب ، تحقيق هريتر ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٩هـ /١٩٥٩، ص ٣٠ ــ ٣١ •

٥• انظر الماوردي ، أدب الدنيا والدين ، ص ١٤٧ ــ ١٤٩ •

٦• ابن قيم الجوزية ، روضة المحبين ، ص ٧٧ •

٧• انظر الغزالي ، احياء ، ج ٢ ، ص ١٦١ ــ ١٦٢ ، ج ٤ ، ص ٣٠٠ ، ٣٠٦ •

٨• ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٢١ •

٩• ابن الدباغ ، مشارق أنوار القلوب ، ص ٣٢ •

منجذب اليه بالطبع فتكون الروحان متشاكلتين في أصل الخلقة فتتجنب كل منهما الى الاخرى بالطبع ، وقد يقع الانجذاب والميل بالخاصية ، وهذا لايعلل ولا يُعْرف سببه " (١٠). ويؤكد ابن الدباغ كما هي الحال عند ابن قيم الجوزية على أن انجذاب الواحد الى الاخر يخفي أسراراً كثيرة على الناس ، وهو سر من أسرار الله سبحانه وتعالى (١١). " وأما المحبة الذاتية ، ونعني بها التي تراد لذاتها فهي تنقسم الى قسمين " : أحدهما ما يعقل سببه والاخر مالايعقل له سبب ، فالتي لايعقل لها سبب هي محبة المناسبة الخفية عن الاذهان . والتي يعقل سببها هي محبة الجمال والكمال الذاتيتين للمحبوب ، وقد انحصر مقصودنا في المحبة الى ثلاثة أقسام : محبة الجمال ، ومحبة الكمال ومحبة المناسبة الروحانية "(١٢).

ويوجد شبه كبير بين تقسيمات المحبة عند ابن الدباغ وابن قيم الجوزية وأن كانت أوضح عند الاول منهما . لكن هذين المفكرين يتفقان مع غيرهم في أن المشاكلة بين البشر هي الاساس المهم لقيام الصداقة . " وأنت اذا تأملت الوجود لاتكاد تجد اثنين يتحابان الا وبينهما مشاكلة أو اتفاق في فعل أو حال أو مقصد ، فاذا تباينت المقاصد والاوصاف والافعال والطرائق لم يكن هناك الا النفرة والبعد بين القلوب " (١٣).

ونعالج في هذا الفصل أوجه المشاكلة عند التوحيدي . ونجده يناقشها مع عدد من المفكرين ، ويعرض أفكاراً كثيرة بهذا الخصوص في ثنايا كتبه . ومن الملاحظ أن أصول التقسيم السابق لدواعي المحبة موجود في جواب مسكوية عندما سأله أبو حيان عن أسباب تصافي شخصين لاتشاكل بينهما في المظهر أو البنية ويختلفان في بعض الطباع ، ويقول مسكويه : " سبب الصداقات بين الناس ينقسم أولا الى قسمين عاليين : وهما أسباب الذاتي والعرضي ... أما السبب الذاتي من أسباب التصافي فهو السبب الذي لايستحيل ، ويبقى ببقاء الشخصين ، وهو نسبة بين الجوهرين ، اما من المزاج الخاص العناصر ، واما من النفس والطبيعة ، ... وأما الاسباب العَرَضية فهي كثيرة ، وبعضها أقوى من بعض ... ثم

---

١٠. ابن قيم الجوزية ، روضة المحبين ، ص ٦٧ – ٦٨ .
١١. انظر ابن الدباغ ، مشارق انوار القلوب ، ص ٥٢ – ٥٣ .
١٢. ابن الدباغ ، مشارق انوار القلوب ، ص ٣١ .
١٣. ابن قيم الجوزية ، روضة المحبين ، ص ٧٤ .

طول مكث أحد هذه الاسباب وقصره علة طول المودات وقصرها ... [و]هذه الاقسام محصورة تحت قوى النفس البهيمية والغضبية والناطقة • فما كان منها عن نسبة ومشاكلة بين النفس النامية والبهيمية ، كان منه أسباب المودة اللذيذ أو النافع • وما كان منها بسبب مشاكلة بين النفس الغضبية كان منه أسباب المودة للغلبة ، كالاجتماع للصيد والحرب ، وسائر العصبيات التي تكون فيها قوة الغضب • وما كان منها عن نسبة ومشاكلة في النفس الناطقة ، كان منه المودة التي للدين والآراء • ... وأقوى الاسباب المفردة العرضية ما كان عن النفس الناطقة ، ويتلوه ما كان عن النفس الغضبية ... وجميعها يزول بزوال أسبابها • وليس منها شيء ثابت لايزول الا الجوهري الذاتي اما نفساً واما طبيعة " (١٤). وهكذا يرى مسكويه أن للصداقة أسباباً ذاتية جوهرية ، لاتتحول ، تقوم على التناسب بين نفسي الصديقين ومزاجيهما • ثم هناك أسباب عَرَضَية تقوم على التجانس بين الجوانب الانفعالية والفكرية والاعتقادية للطرفين • ويعتقد أن هذه الاسباب العرضية عرضة للتغير والتحول • ومن الصعب تقبل هذا التمييز بين ضربي المشاكلة ، لان ماهو تناسب في مجال النفس والمزاج يتداخل في التجانس الانفعالي والفكري •

اعتبر التوحيدي المشاكلة على أية حال " مطلوبة في كل موضع " وتوخى تحديد الفرق بينها وبين المماثلة ، فسأل مسكويه عن ذلك ، فأجابه : " فان الشكل [هو] المِثْل ، وهي مفاعلة منه ، ولا فرق بينهما وبين المماثلة على ما ذكره اللغويون • وأنا أظن المِثْل أعم من الشكل ؟ لان كل شكل مثل،وليس كل مثلٍ شكلاً " (١٥). ويقول أبو سليمان السجتاني : " وأما الوفاق والموافقة والتوفيق والاتفاق فمتلابسة المعاني ، ولمّا لم يكن بين المعنى والمعنى مسافة محصّلة حسب هذا في حيز هذا ، وعد هذا في جملة

١٤• الهوامل ، س/ ٤٩ ، ص ١٣١ ـ ١٣٣ •
١٥• الهوامل ، س/ ٣٠ ، ص ٨٩ •

هذا " (١٦). ونفهم من هذا الرد أن المشاكلة والموافقة والمماثلة هي معان متقاربة في دلالاتها ، وصيغة بناء هذه المصطلحات واحدة هي (مفاعلة) ، وهذه الصيغة تفيد المشاركة والتفاعل بين ذاتين الا أنّ المماثلة فيما يلاحظ مسكويه أوسع معنى من المشاكلة ، التي تقتصر على التناظر والتجانس بين بنيتين أو شكلين ...... الخ .

وقد افتتح أبو حيان بحثه في الصداقة والصديق بتساؤل وجهه لابي سليمان السجستاني حول أساس صداقته مع ابن سيار القاضي ، فكان فحوى إجابة أبي سليمان هو المشاكلة وشرح فيها هذا المفهوم وأبعاده المختلفة . وبدت المشاكلة ذات صيغة خاصة في هذه المحاورة . فهي لاتعني المماثلة المطلقة في الهوى والمهنة والديار والارادة والاختيار والشهوة والطلب وانما هي باختصار مماثلة روحية ، قد يكون ظاهرها المباينة أحياناً . ان المفاء بين الاصدقاء يجلو النفوس ، فينكشف الصديق أمام صديقه ويجد أن لافكاره وآرائه وَقعاً في نفس الاخر فيتجاذب معها ، وهذا مما يميز التوافق النفسي والعقلي فيهما ، فيقرأ الواحد منهما فكر الاخر ، ويعرف شيئا من سريرته ، فاذا اتفقت بواطنهما وتبادلا الثقة ، اطمأن الواحد منهما للاخر ، وأصبح وكأنه في صميم أجواء صديقه (١٧). وقد تتفق النبوءة والرؤيا الواحدة للصديقين في نفس الوقت" أو قبله بقليل ، أو

---

١٦. الامتاع ، ج ٢ ، ل / ٣٧ ، ١٦١ .

أجاب مسكويه على سؤال التوحيدي عن " الخصائص المفارقة بين حقائق المعاني في الفاظ دائرة بين أهل العقل والدين ، وهي أسماء طابقت أغراضا لكنها خفية الاصول جلية المعاني ... (فقال) فأما التوفيق والاتفاق ، والموافقة والوفاق ... التي عددناها متقاربة المعاني ، وهي مشتقة من الوفق ، وهي من الفاظ الاضافة ، لانها لاتقع الا بين شيئين ، أو بين أشياء . ويقال هذا وفق هذا ، أي لفقه وطبقه وملائمة ، ويستعمل في كل متلائمين من جسمين وخلقين وغيرهما . وفي المثل : وافق شن طبقه ، وافقه فاعتنقه ، فقولك وافق فاعل من الوفق . وهذا الوزن يجيء في كلام العرب لما كان بين اثنين ، وكان كل واحد منهما وافق الاخر ، وهو موافق ، كما قيل : ضارب صاحبه ، فهو مضارب . والاتفاق افعال من الوفق ، وهذا الوزن يجيء فيما لم يكن فاعله خارجا منه . كما يقال : اقترب واعتلق واضطرب ، بالاصل في اتفق / أو اتفق . وكل هذا مشتق من الوفق . وهذا الوزن لايجيء فيما لم يكن فاعله الا الذى ذكرناه " الهوامل ، س/٣٤ ، ص ٩٤ـ ٩٥، ١٠٣ .

١٧. الصداقة ، ص ٢

بعده بقليل " (١٨) ، لان الصديقين كالنفس الواحدة ، بينهما من التخاطر شـي ً كثير ، فيعرف الواحد كثيرا من مكنونات الاخر ، وكأن الذات تختلط مع موضوع الحدث فيتحدان في شخص واحد . ويتضمن رأي التوحيدي ، في هذا الخصوص ، معنى التصديق على هذا الضرب من التوافق ، فيقول إن من يعرف " قوى الطبيعة ، وأسرار العقل " (١٩) لايعجب من توارد أفكار شخصين على معنى واحد . والحق أن مثل هذا التوافق والتماثل التام في دنيا الاصدقاء يثير الجدل . فمهما انكشفت شؤون الصديق النفسية للآخر يظل هناك ضرب من الخصوصية المخفية لكل فرد منهما لايطلع عليه أحد من الناس .

وبعد أن عرّف التوحيدي داعي صداقة السجستاني مع ابن سيّار ، أراد أن يعرف مدى مصداقيتها في الواقع النفسي والاجتماعي لهذين المثلين الرائعين في الصداقة . فسأل أبا سليمان " هل تجد عليه في شيء ؟ ، أو يجد عليك في شي ؟ فقال : وجدي به في الاول قد حجبني عن موجدتي عليه في الثاني" (٢٠) . وهكذا قد يكمن جوهر المشاكلة في باطن المشاعر . وهي تبدو متباينة في الظاهر . وما من صديقين الاّ وبينهما ضَرْب من المشاكلة في بعض السجايا النفسية ، وان اختلفت اهتماماتهما وأعمالهما في بعض الاحيان . والمباينة في الاهتمامات والمهنة عَرَضية لاتمس جوهر الامر ، فلا تؤثر على وثاقة العلاقة بين الصديقين . وما الانفعالات السلبية في الصداقة الا من مظاهر هذا التباين . لكن استمرار التلاحم والخوف من الفراق ، من شأنهما أن يساعدا الصديق على الاخذ بالسلوك الدمث اللين ، فلا يجرح شعور أخيه ، فيثلم علاقة الصداقة القائمة بينهما . ذلك أنّ حب الصديق لصديقه يتغلب عادة على اختلاف وجهات النظر بينهما وعلى انفعالات النفور والغضب (٢١) . وعندما تصبح الصداقة على هذه الدرجة من المكانة فانها تستمر وتقوى على الرغم من المعوقات الخارجية ، وكأنها قادرة بقوتها الذاتية على تحمل كل ما يقلق سكون النفس وطمأنينتها .

---

١٨. الصداقة ، ص ٣ .
١٩. البصائر ، ج ١ ، ص ٣١٣ .
٢٠. الصداقة ، ص ٤ .
٢١. الصداقة ، ص ٤ .

ويرى بعض المفكرين أن المشاكلة مشروطة بالتجانس بين البشر لكنها تسمح بحرية الاختيار • وان الاختلاف في "الفن" (الصنعة) مَثَلاً ، لايعني ، في هذا الضرب من المشاكلة ، الانفصال ، أو لا يُفْضي اليه على الاقل • ومع أنّ التوحيدي لم يستبعد تأثير العالم العلوي (أي قرانات النجوم) على العالم السفلي ، في عرضه لداعي المشاكلة في الصداقة ، الا أنه لم يبطل الارادة والاختيار • ففي ممارسة الانسان تتضح حريته وقدرته على الاختيار • فاختيار المرء اذن دال على شخصيته • وثمة امكانية لالتقاء " في الارادات والاختيارات "(٢٢) • ونفهم من بعض النصوص التي يقتبسها التوحيدي أن اختيار الصديق لصديقه يقوم على مشاكلة بينهما في المزاج والطبع والعقل •

وهكذا يلح التوحيدي على مبدأ الاختيار في المشاكلة ، لكنه لايلتزم بهذا الموقف ، إذْ يرى أحياناً أن الاتفاق أو الصدفة قد تجمع شخصين توافقا في بُرجيّهما الفلكيين أو كانا تحت تأثير برج واحد ، فيعتقد أن الكواكب السيارة من العوامل المؤثرة في صداقة سكان الارض ، وفي سجاياهم الانفعالية : فمن تآلف بين القلوب ، الى اتفاق بين العقول ، الى استراحة بين الانفس ، فضلاً عن الصفاء والانس والوفاق • فيصبح الصديقان اذا تآلفت قراناتهما النجومية يفكران بطريقة واحدة ، بغض النظر عن اختلاف البيئة ، وبعد المسافة بينهما(٢٣).

يبدو أن العثور على صديق ، في مكان ما ، في حالة تضامن الامكنة في الفلك ، أمر يدعو الى تلاقي نصفي الدائرة المتباعدين على سطح الكرة الارضية • فتستعيد الانفس ثقتها وطمأنينتها ، فتسكن عن البحث ، ويتلاشى القلق منها • وباكتمال الدائرة تتوحد الانفس ، وتتلاقى الافكار رغم المسافات الارضية التي تباعد بين الاجساد • وليست الصداقة في هذه الحالة مشروطة بوجود طرفيها في مكان واحد بالجوار أو في المنشأ أو البلد الواحد ، بل قد يتصادق اثنان يسكنان بلدين متباعدين ، ومن بيئتين مختلفتين ، لان " الروح مع الروح قريب ، وطائر السماء على الفه من الارض يقع " (٢٤).

---

٢٢ • الصداقة ، ص ٢ •
٢٣ • الصداقة ، ص ٤ •
٢٤ • البصائر ، ج ٤ ، ص ٤٩ •

يرى التوحيدي اذن أن المشاكلة تُمَثّلُ أسمى مستويات التوافق الممكن بين الاصدقاء في " العقل والروح " وطريقة التفكير واتجاه الارادة ومسالك العادة. وفي هذا المستوى يبدو الصديقان وكأنهما توأمان " تراكضا في رحم ، وتراضعا من ثدى ، ونوغيا في مهد " (٢٥). ويقدم رأياً مفاده أن شخصية المرء مرآة تعكس صديقه ، لان المرء يصاحب نظيره . وإذْ يتعرّف المرء على الاخر ، فان ذلك يزيد في كشف وجه التشاكل بينه وبين الاخر . لان " مجالسة الاشكال تدعو الى الوصال " (٢٦) فمجانسة الواحد للاخر ، تستتبع الصداقة الحميمة ، على وجه تلقائي يتخطى المواقع والمعوقات .... فكفى بالمشاكلة مؤانسة ، وبالمشاكهة مواصلة تثبت علائق الثقة ، وتدفع عوارض الحشمة ، وتزين استعمال الدالة" (٢٧).

يُبدي بعضُ الأدباء والمفكرين ثقةً واهتماماً مخصوصاً بمفهوم المشاكلة، فلا يرون امكانية فرط عقد الصداقة وانقطاع الود بين الصديقين المتشاكلين ، وكأن استمرار الصداقة بينهما محتوم بالمشاكلة ، وانجذاب الواحد منهما نحو الاخر أمر لابد منه اذا كان ثمة تماثل بينهما . وتفترض المشاكلة توازيَ المشاعر في كل منهما ، فالشكل لاينبو أبدا عن شكله (٢٨).وفي حالة حدوث انقطاع لسبب ما بين الصديق وأخيه الذي يناظره في المزايا ، فانه يرد علة اهمال أخيه له الى الثقة في صدق الصداقة المبنية على المشاكلة ، والتي يظن أنها أمتن رباط بين كل طرفين أو أكثر من البشر . وهكذا تفترض أطروحة المشاكلة في الصداقة ، أن هذا المبدأ شرط كاف لدوام الصداقة والثقة . فالصديقان يلتحمان في وحدة أخوية هي المصير الذي لا انفلات منه . وعلى ضوء هذا المبدأ يصعب تمازق اثنين بينهما تضاد في الشيم والسمات والاهتمامات والمشاعر (٢٩).

ان ايجاد النظير متعة وبهجة عظيمة ، فلقاء الذات بذات تماثلها أنس ، وخلاف ذلك وحشة . وهكذا فالمشاكلة تتجسد بلقاء المتماثلين ، وقيام أواصر

---

٢٥. الصداقة ، ص ٨٢ .

٢٦. الصداقة ، ص ٣٣٠ .

٢٧. الصداقة ، ص ٤١٦ .

٢٨. الصداقة ، ص ٤٤٤ .

٢٩. " هيهات لايستصحب الشيء ضده " ، البصائر ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ ،
" قد فرق الله بين شيمتنا .. في كل أمر فكيف نأتلف ؟ " ، الصداقة ،
٣٢ ، الامتاع ، ج ١ ، ل ٤ ، ص ٥٢ . قارن
Aristotle, The Necomachean Ethics, book 8, P. 267.

الصداقة بينهما . وانا كان الصديقان " " كالجسم الواحد ، اذا خص عضوا منه ألم عم سائره " (٣٠)، فان الموت وحده هو الذي يفرّق بينهما ، ولا خيار لاحد فيه بالطبع (٣١) .

ويبلغ اعتقاد بعض المفكرين درجة عالية من اليقين في اعتبار داعي المشاكلة قضية بديهية ، بحيث يرون أنه يكفي المرء الذي يودّ اكتساب صداقة شخص آخر أن يتعرف على أوجه المجانسة والمشابهة الممكنة بينه وبين صديقه . فالصديق يمثل صديقه ، ويشابهه في مزاياه وسلوكه ، وثمة من يعتقد أن الفرد الانساني يطاوع صاحبه ويقتدى به (٣٢). وثمة قول مأثور ينص على أن " الموافقة أساس الصداقة " . بل أن كثيرا من الناس ليرى أنه لاخير في " صاحب لاتوافقه (٣٣) ولا يوافقك .

لنفترض مع التوحيدي أن المشاكلة شرط لدوام الصداقة . لكن ضروب المشاكلة تفتقر الى الثبات ، وهي عرضة للتحول والتلاشي . ذلك أن شخصية الانسان تتغير باستمرار تبعاً لاستعداداته وتجاربه . ومن الصعب التنبؤ بأفعاله ورد فعله في كل موقف . ومثل هذه الخبرة تُفضي بنا الى القول بأن التجانس قد لا يعود مؤثرا في علاقات الانسان . كما أن المرء قد يخدع ويتوهم وجود تجانس بينه وبين الاخر ، ويبدو أنّ مثل هذه الاعتبارات لاتدخل في حسبان من استهواه مبدأ المشاكلة . وتتغير الرغبات والحاجات الانسانية من وقت لاخر ، فيضعف بعضها ويقوى غيرها : بعضُها يُشْبَع وبعضُها يتعرَّض للاحباط . وقد تبرز حاجة جديدة الى التآلف مع الاخرين فتأخذ مكان الصدارة . حتى الانعطاف الى القيم قابل للتغير ، فما يعتقده المرء في وقت ما أنه خير ، ومكتفٍ بذاته ، قد يراه في وقت آخر وسيلة الى قيمة أخرى ، فيختلف بذلك تقييمه للامور وللطرف الاخر في الصداقة . ان للحاجات والرغبات والمعتقدات أهمية كبيرة في ميزان الصداقة . واذا كانت هذه الامور تخضع للتغير من حيث الحاحها ودرجاتها ، فكيف يمكن تفسير الثابت في المشاكلة ، ان كان هناك ما يوصف بأنه ثابت فيها ؟؟

---

٣٠. الصداقة ، ص ٣١ .

٣١. انظر الصداقة ، ص ٣٧٥ .

٣٢. " لا تسألن عن امرئ واسأل به ∴ ان كنت تجهل امره ـ ما الصاحب ؟ " الصداقة ، ص ٨٥ .

٣٣. الصداقة ، ص ١٣٧ ، وانظر الشعر في ص ١٣٣ .

قد تخرج المفاهيم السابقة من دائرة المشاكلة اذا لم تكن هناك معرفة بالذات ـ وبالاخر ، أو اذا لم تكن المشاكلة داعي الصداقة ، أو اذا لم يكن هناك أي داع أصلا (أي أن الاساس كان وهماً) . ومهما يكن من أمر ، فان المفاهيم السابقة قد تكون متضمنة في معرفة الذات والاخر . فاذا كان " الصديق هو أنت ، انما هو بالشخص غيرك " ، فمن المحتمل أن يكون التشاكل بينهما على حد سواء (٣٤)، مما يؤكد صداقتهما . لكن ضمان ثبات الصداقة واستمرارها رَهْن بأن التغير في كل طرف يستدعي تغيراً في الآخر ، ويصبح أحدهما بالنسبة الى الآخر كالمملوك الذي لايحيد عن إرادة مولاه ومشيئته . ونعرف من الخبرة أن ثبات حياة الانسان مستحيل . وهناك احتمال اختلاف وتغير في حالة أحد الصديقين أو كليهما . ومن الممكن أن يؤدي هذا التغير الى انحلال عرى الصداقة ، حتى وان قامت أصلاً على التشاكل (٣٥).

ان النصوص التي قدّمها التوحيدي في نطاق نموذج الصداقة ، لاتقتصر على التماثل الأخلاقي ـ الروحي ، وانما تسمح ببعض التباين بين الصديقين (٣٦). وهذا لايعني أن الاتفاق والانسجام بين الصديقين غير ضروري ، انما المقصود أن وجود بعض التباين يعتبر ايجابياً . ذلك أن الاختلاف في بعض الآراء ووجهات النظر أحياناً يحث الصديقين على الحوار وتقليب الأمر على وجوهه الممكنة ، مما يؤكد أواصر الاخلاص بينهما . ومما هو جدير بالذكر أن سائر المخلوقات والبشر لايتماثلون في كل أوجه شخصياتهم . ولا يكون التماثل بين شيئين "الابتقييد"، فيماثل الواحد الآخر " في جوهره ، أو كميته ، أو كيفيته أو غير ذلك من سائر المقولات ، وقد يماثله في اثنين منها أو أكثر ، فأما في جميعها فمحال "(٣٧).

ومن الصعب فهم النموذج المثالي للصداقة اذا عزلناه عن مبدأ المشاكلة . ولكن هذا المبدأ هو من الخفاء والتعقد بحيث يندرج تحته بعض ضروب التباين في

---

٣٤. " روحه روحي ، وروحي روحه   ان يشأ شئت ، وإن شئت يشا " . الصداقة ، ص٦٦ .

٣٥. " ولقد يكون المعي شكل الشـ .:. ـيء ثم يصير ضـده
والعلم ليس بحـده .:. من كان يبغي أن يحده " . البصائر ، ج ٣ (٢) ، ص٥٠٩ .

٣٦. الصداقة ، ص ٩٥ ، قارن مسكويه ، تهذيب الاخلاق ، حققه قسطنطين زريق ، الجامعة الامريكية / بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٥٢ .

٣٧. الهوامل ، س/ ٥٠ ، ص ١٣٩ ، الامتاع ، ج ٣ ، ل/ ٣٤ ، ص ٩٩ .

الطباع كما رأينا . وثمة جاذبية خاصة أحياناً بين صديقين لايبدوان في الظاهر متماثلين . وفي هذه الحالة يبدو الواحد منهما وكأنه يكمِّلُ الآخر ، فتكون العلاقة بينهما أشبه ما تكون بالاستقطاب الطبيعي بين السالب والموجب . وفي هذا النطاق الذى نجد شواهد عليه في خبرتنا العملية في الحياة ، لا تكون شخصية الصديق نسخةً من شخصية صديقه ولا هو صدى أو ظلالها . انما ينتفع كل منهما بمزايا الآخر ويحاول أن يقاربها في سلوكه . وهذا هو الشأن في صداقة تقوم بين انسان هادئ الطباع مستكين النفس مثلاً ، وبين آخر حاد الطباع عصبي المزاج . فصداقتهما تتيح لكل منهما أن يتعلم شيئاً من الآخر ، فيطورّ استجابته لمواقف الحياة ، بحيث تكون أقرب للتوازن الذى يجمع بين التروي والمبادرة على الترتيب .

اذا ما بقي المهتمون بمبدأ المشاكلة يركزون فقط على التجانس الخلقي ، فانهم سيواجهون اشكالية " التركيب الاجتماعي " الذي ينقسم المجتمع فيه الى فئتين : فئة الاخيار وفئة الاشرار ، فيؤول " الى وضع تأقطب في جسم المجتمع" (٣٨). حيث ينقطع الاتصال الاجتماعي فيه بين قطبيه الرئيسن ، خاصة أن مفكراً اسلامياً مثل الماوردي لايقسم المجتمع الى أخيار وأشرار بنسبة معقولة ، فهو عدا عن ربطه المستوى الفكري والخلقي بالتشاكل ، فانه يعتبر " ذوي العقل والفضل " (٣٩) ندرة في الفئات الاجتماعية . فالاخذ بمبدأ التشاكل والتباين في الصداقة ، سيتيح انفتاحاً أكثر في العلاقات الاجتماعية مما قد يسمح بتحسين المستوى الاخلاقي تدريجياً على المدى البعيد . ولا يقتصر هذا الانفراج على المستوى الخلقي فقط ، وانما يتعداه الى مستويات مختلفة أخرى .

يقدّم التوحيدى حديثا شريفا يقول : " الارواح جنود مجندة تتلاقى في الهواء ، فما تعارف منها ائتلف . وما تناكر منها اختلف " (٤٠) ويتضح في

---

٣٨. انظر د . جدعان : " دواعي المشاكلة في نظرية الحب عند العرب " ، مجلة دراسات عربية واسلامية ، ص١٠٥ ـ ١٠٦ .

٣٩. الماوردي ، أدب الدين والدنيا ، ص١٥٦ .

٤٠. الصداقة ، ص١٤٩ . يروى مسلم هذا الحديث بدون " تتلاقى في الهواء " ، صحيح مسلم ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ج ٢ .

هذا الحديث بعد روحي عميق يصعب تفسيره ، وهو قابل للنقاش من ناحية معرفيه : أهو قبلي أم حسي ، ولا يفهم من الحديث أن مبدأ الاتصال هو المشاكلة بالضرورة ، فالتجانب يقوم على اتصال روحي بين " الانا " و " الانث " بناء على معرفة الواحد للاخر ، لكن بعض المفكرين يضفون على المشاكلة معنى دينيا يسندونه الى الحديث السابق ، ولقد انتبه الغزالي الى البعد الروحي فيه (٤١). وهو بهذا يتفق مع محمد المكي (ت١٠٥٧ هـ) حين رد التلاؤم الى المعرفة والتباين الى المجهول ؛ فالتعارف هو انجذاب الشكل الى شكله على مقتضى الطباع التى فطرت عليها النفس ، فما اتفق منها تعارف وما اختلف تناكر . (٤٢)

يتساءل التوحيدي عن مدى تحقق الحد الأرسطي للصداقة ، فيتوقف عند اجابة السجستاني التي ترتكز على المحور الديني ـ الروحي أيضا . ويفصح الاخير في تفسيره لهذه المقولة " الصديق ، هو أنت الا أنه بالشخص غيرك " عن نظرة اشراقية ترى العالم مجتمعاً واحداً يتحقق فيه الاتصال الروحي بين المنتمين اليه ، اذا التزموا بدين واحد (الاسلام) . ويبدو نموذج الصديق هذا في دعوى المشاكلة نادر الوجود في الواقع . اذ يشير الى أقصى درجات الموافقة بين الصديقين ، في العقل والنفس والطبيعة ، فيصبح اتجاه التفكير عندهما واحداً وكذلك فان العادتين " تصيران عادة واحدة .. والارادتين تتحولان ارادة واحدة " (٤٣) ، فلا تعارض بين المشيئتين ، فكل واحد يتوافق ويوافق صديقه وكأنهما نفس واحدة .

ويتميز كل مجتمع بخصائص وسمات في أساليب المعيشة والاجتماع . ولايعني هذا أن أفراد المجتمع الواحد يتصادق بعضهم مع بعض ، بل هم معارف أو أقرباء أو أرباب حرف متشابهة . ومع كل هذا الاعتبارات التي تنظّم وجودهم وتجمعهم في بيئة واحدة ، الا أن ثمة مواضع تثير الفرقة بينهم أيضاً . ذلك أنّ في الانسان خصائصَ وسجايا تملكه في مملكة الحيوان . وفيه من السجايا التي تجعله متميزاً عن الحيوان ، فهو يأكل ويتغذّى ويتناسل ويشب ويشيخ كالحيوان ، لكنه يمتلك

٤١. انظر احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

٤٢. انظر كتابه ، دليل الفالحين لطريق رياض الصالحين ، السعودية ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

ضميراً ووجداناً يجعله كينونة روحية أخلاقية • فالانسان في منزلة وسطى بين الطبيعة المادية الحية من جهة والطبيعة الروحية المتجاوزة من جهة أخرى ومسؤوليته وجملة اختياراته هي التي تحدّد منزلته فيترقى بالايمان والعمل الصالح الى مقام " أحسن تقويم " • والعمل الصالح يقتضي التعارف ضمن اطار الاخوة في الايمان أو المجتمع ، ومن التعارف ما يصير الى توافق وصداقة ومودة •

وربما كان من المتعذر أن يكون المجتمع منسجماً وكأنه نفس واحدة ، لتباين " الأنا " ووجودها في ظروف متباينة • ويجب أن لايشكل هذا التعميم يأساً عند الانسان من أن ينسجم ويتوحد مع آخر في علاقة خاصة مثل الصداقة • ومع أن هذا الضرب من العلاقات موجود ، الا أنه لندرته يبدو غائباً (٤٤)• ان اختلاف الامزجة والطبائع (٤٥)• وهذا ما اقتضته الحكمة الالهية من تنوع بين بني البشر (٤٦) فالتشاكل يقوم على توافق الامزجة ، والانفس والطبائع والعقول ، " فعلى هذا كل أحد ينتحل ما شاكله مزاجه ، ونبض عليه عرضه "•(٤٧)

ويلح التوحيدي على أهمية الصداقة المبنية على الاخوة في الدين والايمان • اذ يؤكد أن الصداقة القوية لاتقوم الا بين النخبة القليلة من أهل " الدين والورع " (٤٨) الذين يخافون الله واليوم الاخر ، ومثال ذلك صداقة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - القائمة على " الدين والعقل " (٤٩) وهي نموذج يبين أن الاخوة في الايمان أقوى من التباين بين الشخصين ، فالتجانس في المبدأ والالتقاء بالاراء ، جعلهما يطوعان طبائعهما ، فأصبحا وكأنهما شخص واحد ، كلاهما ناصح

٤٤• الصداقة ، ص ٦٦ - ٧٠ •
٤٥• المقابسات ، م / ١١ ، ص ١٠٠ •
٤٦• الامتاع ، ج ٣ ، ص ٩٩ •
٤٧• المقابسات ، م / ١١ ، ص ١٠١ •
٤٨• الصداقة ، ص ٦ •
٤٩• الصداقة ، ص ٥٢ • يقول عباس محمود العقاد أن أبا بكر وعمر كانا " على اختلافهما في المزاج كأنهما رجل واحد يراجع نفسه بين الرأيين المختلفين ، حتى يستقر على أحدهما فاذا هو رأي جميع الاخلاق فيه ، لانهما يصدران عن عقيدة واحدة ويتجهان الى غرض واحد " عبقرية عمر ، دار الكتاب العربي بيروت ، ١٩٤٥ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ ، وقارن كتابه الاخر " • عبقرية الصديق ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص ص ٧١ ، ٦٩ ، ٧٦ - ٧٨ •

لصاحبه مؤثر له ، فكان كل واحد منهما يكمل الاخر . وهنا يرى أبو حيـــان أن " المرمى عال والغاية بعيدة " . فيما يعرف عن هذين الخليفتين من مثل راق من أمثلة الموافقة والاتفاق ، حيث يأمر أبو بكر بشيء فيبطله عمر فيسأل أبو بكر عن الخليفة ، أهو أم عمر ؟ فيجيب " هو ، الا أنه أنا " (٥٠).

وهناك من يعتبر أنّ المحظوظ هو الذي يوفّق في صداقة بواعثها المناسبة والاخوة الدينية ، وهم يرونها هبة من الله للعبد ، والذين يتصادقون على هذا الاساس ، تصفو المودة بينهم . ويتأكد الاخلاص فيهم ، ويكون لكلّ منهم مرتبة واعزاز في وجدان الآخر (٥١). وخير نموذج عند التوحيدي ، هو الصديق المتمسك " بعصم الدين " المتحلي بالصفات الخلقية الحميدة (٥٢). ويحض الدين على إقامة المودة والتآخي بين الناس ، على أساس اعتصام الجميع بحبل الله تعالى ونبذ التفرّق ، ولعل أخوة الايمان أهم داع من دواعي الصداقة بين الناس في المجتمعات التقليدية ، وهي شرط كاف لجلب تقدير الناس ومحبتهم للمؤمن المخلص الذي يسعى في صلاح الناس والمجتمعات . فقد " كتب عمر بن الخطاب الى سعد : ان الله اذا أحب عبدا حببه الى خلقه " (٥٣)

ويرى التوحيدي أن داعي الدين أقوى من أسباب العَصَبة والنسب في نطاق الصداقة و " أبناء دينك أنسب بك من أبناء نسبك " (٥٤) . فالصداقة على أساس من التآخي في الايمان أقوى منها على أساس القربى وصلة الدم والرحم . ويقوم توافق الناس في نظراتهم الكونية على اتحادهم في العقيدة الدينية التي ترسم أيضا الافق المثالي للواجبات الاجتماعية ، والاخلاق العملية . ان الديانات

---

٥٠ . الصداقة ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ . وهناك أكثر من مفكر اسلامي يستشهد بهذه الرواية في معرض حديثه عن المناسبة والملائمة والمشاكلة بين الاصدقاء . انظر مثلا الماوردي ، أدب الدنيا والدين ، ص ١٤٩ .

٥١ . انظر الصداقة ، ص ١٧٨ .

٥٢ . انظر الصداقة ، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

٥٣ . الصداقة ، ص ٢٧٨ .

٥٤ . البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٥١ . ويعتبر الماوردي أيضا أن الدين " هو الاول من أسباب الالفة ، فلانه يبعث على التناصر ، ويمنع من التقاطع والتدابر " ، أدب الدنيا والدين ، ص ١٣٣ .

السماوية بما فيها من أحكام وقواعد أخلاقية هي منهج الحياة الذي يقرب الانسان من الخير ويبعده عن الشر ، وبه يدير شؤونه الاجتماعية والسياسية ، ويتجمل بالاخلاق الحميدة التي تقربه من " السعادة المطلوبة ، فلما كان الناموس الالهي نصيحة عامة للكافة "(٥٥)، فقد راعى التفاوت العقلي والنفسي والتباين في الامزجة والطباع بين الناس فجاءت اللغة بألفاظها ومعانيها ، متناسبة وهذا التباين والتفاوت . وعلى الرغم من أنّ الناس يتباينون في تفاعلهم مع العقيدة الايمانية وفي أخذهم بأصولها ، الا أن أباحيان يرى أن هذه العقيدة هي أساس التوحيد والتقريب بين اتباعها . وليس هناك من صداقة حقة في غياب وحدة الدين ووحدة الموقف من المثل الخُلُقية . ومن الممكن قيام صداقة في حالة اختلاف الطباع والنزعات النفسية ، لكن الاختلاف في العقيدة ينفي امكانية الصداقة من البدء . " فلو ثبتم على الصراط المستقيم ، وعلقتم حبل العقل المتين المستبين ، واعتصمتم بالعروة الوثقى من الهدى والدين ، كنتم كنفس واحدة في كل حال : ذُللتَ أو صُعِّبتَ ، تجمعت أو تشعّبت ، تعرفت أو تنكرت "(٥٦).

ان التحلل من قيم الايمان يشكل سببًا من أسباب انحلال الصداقة فيما يرى أبو حيان . فضعف الايمان في النفوس يجعل الناس نابذين للصداقة واعبائها . ومع أن التوحيدي يعتبر قوة الحس الديني العاملَ الاول في ترسيخ المودة الاجتماعية (٥٧) ، الا أنّ هناك عوامل قوية أخرى بالطبع : كالجوار والمهنة والبيئة بشكل عام . وهي تفسح المجال أمام المرء ليخوض تجربة التعارف ، فالمداقة مع الاخر . وتعود المرء رؤية من يجانسه قد يفضي الى تحقيق الالفة ، ومن الممكن أن تؤذن العوامل السابقة مجتمعة بميلاد الصداقة الحميمة ، فتعمل كلها مع عامل التجانس في الايمان على تحقيق الانسجام والتناغم بين المتآخين فتصبح المودة " فوق مودات أهل الزمان بدرجات عاليات " (٥٨) ، فتوجب حقوقا على الطرفين . وهكذا ، فان السنن والشرائع تشكل نظاما يؤلف بين الناس . فالدين

---

٥٥ . المقابسات ، م/ ٤ ، ص ٨٩ _ ٩٠ .
٥٦ . الصداقة ، ص ٦٧ _ ٦٨ .
٥٧ . الامتاع ، ج ٢ ، ص ١ _ ٢ ، الصداقة ، ص ٣٩٩ .
٥٨ . الصداقة ، ص ٩٠ _ ٩٢ .

أهم عامل من عوامل " الموافقة والمناسبة التي هي سبب المحبّات ، وأصل المودات ، ليتشاركوا في الخيرات ، ولتحصل لهم صورة التأحد الذي هو سبب كل فضيلة ، ولاجله تمّ الاجتماع في المدنّية الذى هو سبب حسن الحال في العيش والاستمتاع بالحياة والخيرات المطلوبة في الدنيا " (٥٩).

ويذكر الوحي الالهي قضية الصداقة والاخوة على نحو شمولي عام ، وقد أقرّت الآيات القرآنية الكريمة مبدأ الصداقة ، وجعلتها بمنزلة قرابة الدم ، أو أوثق من ذلك ، وما يفهم من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة هو دعوة لاقرار المودّة بين أفراد المجتمع ، ويحض القرآن الكريم على الصداقة بين المؤمن وأخيه (٦٠). وينظم العلاقة الانسانية بين المؤمن المسلم وغيره من أتباع الملل الاخرى . ولا تخرج الصداقة عن بعدها الزماني فهي مرهونة به من حيث التحقق ، الا أن الصداقات المقامة على أخوة الإيمان تخلد في الحياة الاخرى . وثمة ضرب من الصداقات يصير فيه الصديق عدوا للاخر بعد الموت . أما الصداقة على المستوى الايماني فانها تدوم وتبقى ، فهي تتصف بالامتداد الزماني ،" اطلبوا خلة الناس في هذه الدنيا بالتقوى فتنفعكم بالاخرة .. حين تصير الخلة عداوة بين أهلها الا خلة المتقين .. ألم تسمعوا الله تعالى يقول " الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ؟ " (٦١)

---

٥٩ . الهوامل ، س/ ٦٧ ، ص ١٧٩ .

٦٠ . قال تعالى :(" ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتني كنت معهم") النساء ، آية (٧٣) . (فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم) ، الشعراء ، آية (١٠١)، (أو بيوت خالاتكم أو ملكتم مفاتحه أو صديقكم)، النور، آية ٦١ .

٦١ . الصداقة ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ ، ٤٣٦ ، (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين) ، الزخرف ، آية (٦٧) ، " (الخلّة بالضم الخليل يستوي فيه المذكر والمؤنث .(والخليل) الصديق .." مختار الصحاح ، مادة خَلَل ويفسر ابن الدباغ مقام الخلة عند المتصوفة بأنه " تخلل شمائل المحبوب روحانية المحب حتى تتكيّف بها النفس والروح وسائر الجملة الانسانية ، فتتحرك أعضاء المحب عند ارادة المحبوب المتحرك بها القلب فتستحيل المخالفة .

الفصل الرابع

حوافز الصداقة وأماراتها

سرعان ما يتصدّع بناء المودة ازاء ضراوة العداوة ، في حين أن كلّ خطوة على طريق كسب مودة الصديق تتم ببطء شديد . وقد يحتاج نمو العواطف ، وبناء المواقف المقرّبة إلى زمان ، في حين أن الصداقة قد تُهْدَمُ بكلمة أو بموقف ما في كثير من الاحيان . " ان استفساد الصديق أهون من استصلاح العدو" (١). اذن ، ثمة صعوبة بالغة في اجتذاب مودة الناس مقابل السهولة التي ينقلبون فيها الى العداوة . يكتشف التوحيدي هذه المفارقة ويتعجب منها فيقول " لِمَ كان الانسانُ ، اذا أرادَ أن يتخذ عدة أعداء في ساعة واحدة قَدِرَ على ذلك ، وإذا قصد اتخاذ صديق ومصافاة خِدْن واحد لم يستطع الا بزمان واجتهاد وطاعة وغُرْم ؟ ألا ترى أن الفَتْق أسهل من الخياطة والهدم أيسر من البناء ، والقتل أخف من التربية والاحياء ؟ "(٢) ومهما يكن من أمر ، فهناك حالات يتصادق فيها اثنان أو أكثر ، بعد عداوة مستحكمة بينهما أوبعد فهم متبادل ، فقد لايكون عدوٌ من يُظَنّ أنه كذلك. وعلى أية حال ، فان هذا التحول يحتمل تفسيرات شتى ، فقد يكون مرد الامر سوء الفهم فينجلي في وقت ما ، ويصير الى فهم ومودة ، ومن الممكن تفسيره على أساس وجود توافق بين الطرفين مجهول لهما . واذا كانت المشاعر السلبية من القوى الكامنة في عداوة أحد الاطراف فمن المحتمل أن تكون هناك قيم خيّرة كامنة في الطرف الاخر . فتؤثّر على هذه المشاعر وتتغلب عليها ، بمعنى أن يؤثر السلوك الخير المرتبط بهذه القيم على المشاعر السلبية ، فتتبدل مواقف العداء.

---

١. البصائر ، ج ٣ (٢) ، ص ٥٩٧ .

٢. الهوامل ، س/ ٧٦ ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

بمواقف أخرى تكون السبيل الى صداقة حميمة ، فيستمتع الطرفان بهذه العلاقة وينتفعان بها .

ان التصافي هو بداية التلاقي . والصفاء معناه انتفاء الحقد أو ذوبانه . لذلك كان من الافضل استخدام وسائل من شأنها أن تحقق الصفاء الذى هو مدخل من مداخل اللقاء . ويرتكز التوحيدي في عرضه لحوافز الصداقة على المبدأ الديني الذى يدعو لفعل الخير والامتناع عن الشر : حيث أن الفُرْقة بين الناس مسببة عنه . وخير الناس ، حسب هذا المبدأ ، من عمل على تآلف الافراد في المجتمع ، وأسْهم في تحقيق المصالح العامة من اجتماعهم . ويروي التوحيدي عن بعض السلف أن " خير الناس إلْفُ الناس للناس " (٣). ان التآلف في المجتمع لايكون الاّ بتضافر الجهود الانسانية الخيّرة من أجل استمراره وبقائه . بل يمكن القول أن الألْف يحمل معاني الخير العظيمة ، وهو محور التطبيق الفعلي لنظرية الخير في مضمونها الاجتماعي والنفسي . وليس تأليف القلوب بالامر الهيّن انما هو مهمة الشخصية التي تتميّز بالحيوية والمبادرة والقدرة على التفهم ، إذ اذ أنّ " إزالة الرّواسي ، أيسر من تأليف القلوب "(٤). والمسالك التي تؤكد أسباب المودة بين أفراد المجتمع هي نفسها مسالك الاخوة الانسانية بشكل عام وليست الصداقة بين اثنين فحسب . ويعتبر التوحيدي " التعاون على البر " سببا للاتفاق بين أفراد المجتمع ، إذْ يستلزم الاجتماع والمودة ويقتضي قيام التعاون والتكافل فيما بينهم (٥).

ويعلّل أبو حيان الصداقة والعداوة ، بالنظر الى " الاحسان الذى هو علة المحبة " على أنه أمر من الامور التي تدعو المرء لان يصادق غيره . ويعتبر " الاساءة التي هي علة البُغْض " (٦).داعياً من دواعي العداوة . ويتضمن الاحسان والاساءة أموراً مالية وأخلاقية ، ولايخفى على أحد أهمية المال من حيث انه عامل مؤلف بين الناس (ومثير للخصومات أحيانا) . فالاحسان والاساءة مقولتان أخلاقيتان ، تلحقان بالخير والشر " وتشتمل شخصية المُحْسِن على فضائل خلقية

---

٠٣ الصداقة ، ص ١٤٣ ، انظر ، ص ٢٧٩ .
٠٤ الامتاع ، ج ٢ ، ل / ٢٦ ، ص ١٥٠ .
٠٥ انظر البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٧٦٧ .
٠٦ المثالب ، ص ٣٣٣ .

كثيرة • ويتضمن سوء الخلق الرذائل والشرور التي تسبب الاذى للناس وتدعو الى الفرقة فيما بينهم •

قد يدعو اختلاف خُلُقيّن للقلى عند الكثيرين (٧). فاذا كان أحدهما على خُلُق حسن والآخر خلافه ، فان تكرار فعل الاساءة من الواحد للآخر ، حتى في حالة ثبات المحسن على احسانه ، قد يدعو الى اجتناب المسيء أحيانًا • على أن المحسن قد يجذب الاخرين لمصادقته حتى في حالة اساءتهم • وتكون الاساءة عَرَضَية وليست متأصلة في الطبع أو في التعوّد • وهذا " عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المحسن أمير على المسيء حيث كان " (٨). وعلى أية حال ، لا يشك التوحيدي في " أنّ القلوب جُبلت على حب من أحسن اليها ، وكذلك النفوس طُبعت على بُغض من أساء اليها ، والجِبل والطبع ، وان افترقا في اللفظ فانهما يجتمعان في المعنى • وكما أن الحب نتيجة الاحسان ، كذلك البغض نتيجة الاساءة "(٩).

لاتفسر هذه النظرية داعي الصداقة والعداوة فحسب ، وانما تفسر تحول شخص ما من حال العداوة الى حال الصداقة ، أي التحول من موقف لايدعو الى التغاضي عن الاساءة من أجل الائتلاف فقط ، بل يرجح التحايل على الغير لاستصلاحهم وردهم اليه ، حتى لو كان في ذلك موقفًا محايدًا بين الصداقة والعداوة •واذا لم يجعل المرء المسيء صديقًا ، فانه على الاقل ينزع من نفسه سبب الضغينة •"واحالة العدو عن العداوة أولى من استدعاء الصداقة من الصديق " (١٠). وباختصار ، فان فضيلة حسن الخُلُق لايحوزها الا من كان على خلق الايثار والمسامحة• وهذا هو عين الاستعلاء على " الانا " ، وفيه يكمن معنى تجاوز نزوعها الذاتي ، فيعم خير

---

٧ • انظر الصداقة ، ص٣٩٦ •
٨ • البصائر ، ج ١ ، ص١٣١ •
٩ • المثالب ، ص٩ ، ويشيع تفسير الحب والبغض في الفكر الاسلامي التقليدي بردهما الى الاحسان والاساءة • على الترتيب ، أنظر مسكويه ، تهذيب الاخلاق ، ص١٥٣ ، وابن قيم الجوزية ، روضة المحبين ، ص٧١ ، وابن الدباغ ، مشارق أنوار القلوب ، ص٣٠ - ٣١ ، والغزالي ، احياء ، ج ٤ ، ص٢٩٨ ، والماوردي ، أدب الدنيا والدين ، ص١٦٨ •
١٠• الصداقة ، ص٩٤ •

الواحد على الاخر ، في تعاطف وتلاحم يُقوّي الروابط الانسانية أكثر وأكثر . وأخيراً فان حسن خُلق المرء هو من العوامل التي تقرب العبد من خالقه ، وتزيل الحجب بينه وبين الله . وقد يكون هذا شفيع الانسان يوم الحساب . " وفي الحديث ، " ورأيت رجلاً من أمتي ماشياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حُسْن خُلُقِه فأخذ بيده وأدخله على الله عز وجل " (١١).

واستقامة الخُلُق في الشخص هي مما يبعث على الطمأنينة . ومن المحتمل أن تكون الفضائل الاخلاقية التي تتوفر في الشخص القدوة هي الحوافز التي تحرك الآخرين ، وتشكل رغبةً لديهم في الاقتراب منه وطلب خلته . وقد سمع التوحيدي " العوامي يقول لعلي بن عيسى الوزير إن الحال بينك وبين أبي مجاهد مفيقة ، فما الذي قربّه منك ؟ ونفقّه عليك ؟ وأولعك به ؟ " فعدّد الاخير الفضائل الخُلُقية التي حازها أبو مجاهد وأقسم أنه " لو لم يكن فيه من هذه الاخلاق الا واحدة ، لكان محبوباً ومقبولاً " (١٢). والقدوة أو الشخص النموذج نادر ، لذلك فانه يُغري الاخرين بطلب مودته عند وجوده .

ثم إنَّ بعض الناس لايتوانون في الاعلان صراحة عن طلبهم مصادقة شخصاً بعينه ، لانهم يجدونه يجسد فضائل كثيرة . وهم في طلبهم هذا مشفقون من أن يكون ردُّ الاخر سلبياً . وقد يكتشف شخص ما نموذجَ الصديق هذا ، فيوصي غيره باخائه أحياناً ، ويصفه بالمزايا الخُلُقية التي قلما تجتمع في واحد بعينه (١٣). أما من الناحية العملية فان كثيراً من الناس يطلبون صداقة من يرجون منه نَفْعاً ، بغض النظر عن امتيازه العقلي ووفائه وكَرَمه .

وهناك معيار عملي للصديق المخلص عند التوحيدي ، يتمثل في ثناء الاخرين على صداقته وصدق ودّه ، فكلما أثنى الناس على خُلُق انسان وأشادوا بوفائه كان

---

١١. البصائر ، ج ٤، ص ٢٤ ـ ٢٥ ، ج ٢ (١) ، ص ٢٥ ، قارن ، أبا بكر محمد بن جعفر الخرائطي ، المنتقى من كتاب مكارم الاخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ، للحافظ أبي طاهر السلفي ، تحقيق : محمد مطيع الحافظ ، غزوة بدير ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٦.

١٢. الصداقة ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ وانظر ص ١٩٦ ، ٤٣٧ .

١٣. انظر الصداقة ، ص ٤٥١ ـ ٤٥٣ .

أقرب لنموذج الصداقة . ذلك أن " أهل الفضل في اللب ، والوفاء في الـود ، والكرم في الحق لهم من الثناء الحسن في الناس لسان صدق يشيد بفضلهم ، ويخبر عن صحة ودهم ، وثقة مؤاخاتهم ، فتجوز لهم بذلك رعية الاخوان وتصطفي لهم سلامة الصدور ، وتجتني لهم ثمرة القلوب " (١٤).

ويرى كثير من الادباء والمفكرين أن المكاشفة من المتطلبات الضرورية للراغب في عقد الصداقة مع الاخر . فالتعبير عن العواطف هو من القيم اللطيفة في الصداقة . فاذا ما شعر الواحد تجاه الاخر بمشاعر المحبة فالافضل أن لا يخفي مشاعره عنه ، بل عليه أن يصرح بها . فقد تكون هذه الصراحة مفتاحاً للصداقة ، فتصيب محلاً طيباً وصدى في نفس الاخر . ويتبع التوحيدي في عرضه هذا حديث ينسب الى " رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو : " اذا أحب أحدكم أخاه ، فليعلمه حتى يحبه فان القلوب تتجارى ، "(١٥). بل ان المرء أعقل ما يكون اذا كان لايقصر في التودد الى الناس ما وسع الى ذلك سبيلا (١٦). ولا يستطيع المرء أحياناً أن يعرف مكانته عند الاخر مالم يعرفه أولا بمكانته عنده . وأنى للراغب أن يعرف شعور المرغوب بصداقته اذا لم يكاشفه بموقعه في نفسه وعواطفه تجاهه ؟ وهذا الاشعار هو بمثابة المنبه الذي قد يصادف استجابة لدى الطرف الاخر ، فتقوم أواصر الصداقة بين الطرفين في هذه الحالة (١٧).

ان كشف الانسان عن مودته للاخر يفسر استعجال اكتشاف التوافق والانسجام بين الاثنين . أما ستر العواطف فقد يكون السبب في تأخر اكتشاف الصداقة . وقد تأذن المكاشفة بميلاد المحبة بين صديقين فيتحقق التوافق نتيجة معرفة الواحد منهما لمشاعر الاخر . وقد لايقتصر الامر على تبادل هذه المشاعر فحسب وانما تثبتها المكاشفة عهداً ويستمر الود(١٨) وينمو ، فضلاً عن أن علم الواحد بمشاعر الاخر يستبعد الظن السيء الذي يفسد العلاقة بين شخصين لاتجمع بينهما ثقة

---

١٤. الصداقة ، ص ٤٣٣ .
١٥. الصداقة ، ص ١٤٩ .
١٦. انظر الصداقة ، ٢٩٤ .
١٧. انظر الصداقة ، ص ٣٣٣ .
١٨. انظر الصداقة ، ص ٢٩٤ .

راسخة . ومن المعروف أن فقدان الثقة وسوء الظن هما من مسببات الخلاف والمشاكل التي تعيق نمو الصداقة واستمرارها .

ترتبط مسألة الثناء بقضية الكشف عن عواطف المودة للغير . "إن الثناء في الوجه وغير الوجه انما هو اعطاء المثني عليه حقوقه من أوصافه الجميلة، والاعتراف بها له ، واعلامه أن المثني قد شعر بها . وأوجبها له ، وسلمها اليه ، ليصير ذلك له قربة ووسيلة ، ولتحدث بينهما المودة والمشاكلة ، وليستجلب الود وتستحكم المعرفة " (١٩). لكن التملق والنفاق قد يشوب المدح أحياناً ، كما أن الاطراء والثناء يرتبطان بالمديح اجمالاً(٢٠). وقد يفضيان بالممدوح الى الاعجاب بنفسه ومن ثم اعتياد مدحها . فاذا كفّ الناس عن إطرائه والثناء عليه، شعر أنهم انتقصوا من حقه ، خاصة إذا كان يتلذذ " بسماع الثناء والمدح(٢١) .

وقد سأل التوحيدي صديقه مسكويه حول خُلقية الثناء ، فكان رد مسكويه أنه يستقبح الثناء في الوجه ويستحسنه في حالة غياب الصديق الممدوح " وان جاز أن يقع بالضد فيحسن في الوجه ويقبح في المغيب " ، وذلك خوفاً من المُثنى عليه أن يغتر فيترك " كثيرا من الاجتهاد في تحصيل الفضائل "(٢٢)، وهو له بمثابة التزلّف والحيلة للوصول الى منفعة أو الى غرض ينشده المُثني . لذلك فان حسن الثناء وقبحه يرجعان الى كذب النية وصدقها لدى من يُثني ويمدح . كذلك فان الثناء لا معنى له ، بعد قيام الصداقة ، لانه يدخل في باب اطراء الانسان الذي أراد عقد مودته . ومتى تمت الالفة فان معرفة الصديق لصديقه تتعمق أكثر فلا تحتاج الى هذا الاطراء . من ناحية أخرى ، يبدو صعبا على الانسان أن يتحدث عن فضائله ومزاياه ، مع رغبته في ذلك . أما صديقه فهو أقدر على اظهارها بالمدح والثناء دون حرج (٢٣) . لكن لسماجة الثناء في هذا الموقف

---

١٩. الهوامل ، س/ ١٧ ، ص ٦٠ - ٦١ .
٢٠. " الثناء بالفتح وصف بمدح أو يذم " ويختص عند بعض أهل اللغة بالمدح فحسب ، وهذا ما نقصده في هذا السياق ، وهو معنى هذا اللفظ في لغتنا اليوم . أما " الاطراء " فهو مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه " ج ١٠ ، تاج العروس ، مادة مدح وثنى ، ابن منظور ، لسان العرب ، دار الفكر ، بيروت ، مادة طرأ .
٢١. انظر الماوردي ، أدب الدنيا والدين ، ص ٢١٥ - ٢٢٠ .
٢٢. الهوامل ، س/ ١١ ، ص ٤٥ - ٤٦ .
٢٣. انظر د. عز الدين فراج ، فن الصداقة ، دار الفكر العربي ، ص ٨ .

أسباب أخرى تتعلق بكراهية الناس لمن يمدح نفسه ، وكذلك " الصديق الذي محله منه قريب من محل نفسه ، فعرضت له تلك الافة بعينها أو قريب منها فقبح ثناؤه ومدحه ، ولم يقبل منه ، وان كان دون قبح الاول ، أعني مادح نفسه "(٢٤). ومع ذلك فان التوحيدي يقول ان الرغبة في الثناء من مبادئ ملة ابراهيم عليه السلام (٢٥). ولقد أدرك الصوفية الذين عاصروا التوحيدي وسبقوه أن الثناء يفسد نفس الانسان في كثير من الاحوال ، إذ يُخدَع بالمدح فيعمى عن نقصه وعيوبه ،فيطمئن الى سلامة مواقفه ، ويُصاب بما نسميه اليوم " بالخداع الذاتي " . قال بشر الحافي " سكون النفس الى المَدح أضر عليها من المعاصي "(٢٦).

إنّ احترام الواحد للآخر هو من الشيم التي تؤلف بين الاصدقاء . والاحترام هو اعتبار مكانة الآخر ، واضفاء القيمة عليه ، بحيث يشعر أنه في مستوى جليسه ونديمه . فتوازي المكانة عاملٌ مهم في تقارب الناس . فاذا شعر المرء بأن أحداً ما يكرمه ويحبه ، فانه سيقع من نفسه موقعاً حسناً ، وقد يكون مستعداً للتجاوب مع ما يطلبه منه . ومناداة المرء لاخيه بأحب الاسماء اليه هو أيضا من العوامل المؤلّفة ، وترتبط صيغة التحبب التي يجب مناداة الاخ بها بمسألة الاحترام الى حد بعيد أيضاً . ذلك أن مناداته بأحب الاسماء اليه تنم عن احترام رغباته ومشاعره . كما أن مناداته بالالفاظ القبيحة يدل بلا شك على أن المنادي يحتقره ، لذلك كان عليه أن يدعوه " بأحب الكنى اليه " (٢٧).

تعتبر طراوة اللسان وحلاوة الكلام النابعة من القلب الصافي الرقيق ، عاملاً يأتلف فيه الواحد قلبَ الآخر أيضا . فاذا كانت الغلظة عنصراً مشتتاً تستثير الاحقاد (٢٨) ، فان الليونة ، على خلاف ذلك ، تعمل على تفتيتها . ثم ان اللطف يدل أحيانا على دماثة الخُلُق وحسن المَعْشر ، ويدل أحياناً على كريم الطباع وسعة الصدر ، في حين أن الفظاظة تنم عن خشونة الطبع وضيق الصدر ، ومن المحتمل أن تكون عن حقدٍ أو غلّ . وعلى أي حال فان من يريد التقرب من غيره

---

٢٤. الهوامل ، س / ٤١ ، ص ١١٧ .

٢٥. انظر المثالب ، ص ٢٤٤ .

٢٦. أبو طالب المكي ، قوت القلوب في معاملة المحبوب ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٤٤٨ .

٢٧. الصداقة ، ص ٣٧٣ . قارن Erich Fromm, The Art of Loving, Unwin Paperback, London, 1979, P. 30.

٢٨. انظر الصداقة ، ص ٤٣٥ .

فعليه بالكياسة والوداعة ، لانه قد يحقق غاياته في هذه الحالة بطريقة أيسر وأسرع مما لو استعمل العنف وكان فظاً ٠

تدل دعوة الواحد للآخر بالخير في ظهر غيبه حتى في حالة حدوث خلاف أو سوء تفاهم على صفاء قلب الداعي من أي غش أو غلّ ٠ وانها لتدل أيضا على اهتمام المرء بأمور غيره ، على وجه العدل ، وهو غائب عنه ٠ فما يصدر عن المرء دون أن يشْهَدَهُ أخوه ليعبر عن حقيقة وواقع لا مجال للجدال فيه ، وهو واقع موالاة المرء لاخيه ، وخلو قلبه من الرياء والنفاق ، وحتى من الحقد ٠ وبشكل عام فان دعاء المرء لغيره ، في غيابه ، هو موقف يدل على التعاطف والتآخي ٠ وقد اهتمت به آداب الدين المتعلقة بالدعاء ودلالاته وقيمته وثوابه ، وخاصة دعاء المؤمن للمؤمن بظهر الغيب (٢٩).

انّ افشاء السلام هو من العوامل المؤلفة بين اثنين ٠ ثم ان المباداة بالتحية ليست من الامور السهلة على كثير من الناس ، وذلك بسبب كبريائهم مثلا ٠ وقد تكون يسيرة على كثير من الناس الذين صَفَتْ قلوبهم من الكَدَر والعقد النفسية ٠ وقد تستر التحية الحالة النفسية لصاحبها. ومهما يكن من أمر فان المباداة بالتحية عامل يؤلف بين الناس وسببٌ للصفاء بين الاخوان ، اذ " يُصَفِّي ودَ أخيك أنْ تبدأَه بالسلام" (٣٠). إنّ تحامل المرء على نفسه ونطقه بالتحية ، خاصة في حالة الغضب ، لهو أمر شاق ، الا أنه قد يكون المؤشر الذي يدل على دفع الحقد من الذات واذابته عند الاخر ٠ والبدء بالتحية مبدأ اسلامي نصّ عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة ٠

ان المصافحة شكل من أشكال التحية وهي خطوة تتقدم على التحية المنطوقة ٠ وفي التصافح تودد وتحبب وهو يعبر عن التصاق المرء بالاخرين أكثر مما لو اقتصر على التحية من بُعد ٠ ويعتبر التوحيدي المصافحة متبوعةً بالبسمة ، من الاعمال الصالحة التي تؤكد الوئام والمودة وتزيل الخطايا ٠ " اذا التقى المسلمان فتصافحا ، وتبسم كل واحد منهما لصاحبه ، تحاتت خطاياهما كما يتحات

٢٩٠ انظر الصداقة ، ص ٣٧٤ ٠

٣٠٠ الصداقة ، ص ٣٧٣ ، البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٥٧٨ ٠

ورق الشجر " (٣١). للبسمة اذن سحر عجيب فكأنما الوجه الطلق دعوة للصداقة ، في حين أن التقطيب لايشجّع كثيراً من الناس على الاقتراب ومبادأة " الاخر" حتى لو لم يكن العابس يقصد الابتعاد أو الفرقة . وقد عرض التوحيدي قصصاً ونصوصاً تتعلق ببشاشة الوجه وتأثيرها على الاخرين ودورها في ازالة الاحقاد في نفوسهم (٣٢).

هناك أمارات تدل على الصداقة الوثقى أو على العداوة . وتتجلى هذه الامارات في سلوك المرء . فكأنما سلوك المرء تجاه آخر هو معيار البغض أو المحبة . ذلك أن السلوك دليل ظاهر ، خلافاً للنوايا الكامنة في السريرة . فالسلوك هو الفعل والناس يتحملون مسؤولية أفعالهم ولا يحاسبون على أساس النوايا ، لانه لاقيمة للنية في دائرة العلاقات الانسانية الا اذا تُرْجِمَتْ سلوكاً ، فالسريرة " لايعلم مصدوقتها " (٣٣) الا الله . وثمة وجهات نظر مختلفة تتعلق بالنية والسلوك ومدى تطابقها وتناقضها ، وتأثير كل ذلك على العلاقات القائمة بين أفراد المجتمع . فمن الناس من يقنع بمعرفة " النية دون الفعل " (٣٤)، وهو يحسن الظن باخوانه ، وهناك مَنْ يسيء الظن بالاخرين ، فيفسر سلوكهم على عكس الغاية المقصودة منه ، فتتسع بذلك شقة الخلاف وتفسد الصداقة .

ومن الناس من يتسق فعله مع نواياه المُعْلنة فيكون بذلك فوق الريبة والشك و" أفضل القول ما كان عليه دليل من الفعل " (٣٥) . ومهما قيل عن تطابق النية مع الفعل فمن الصعب الفصل بينهما . ذلك أن القصد يبقى الستر المستور للفعل . و " السرائر مغيبّة عن العيان ، ولو اطُّلِعَ عليها لما كان في صاحبها نفع "(٣٦) . لكن المسألة في القول تختلف عما هي عليه في النية . ذلك أن القول مثل الفعل دليل على صدق النية أو زيفها . فالقول والفعل يندرج كلاهما في السلوك الظاهر ، فالمقارنة بينهما ممكنة أكثر مما هي بين النية والفعل . واذا ما أُتبِع القول بالفعل الذي يفي به فان مصداقية القول لا مجال للجدال فيها . أما اذا اقتصِرَ على القول دون الفعل فان القضية قابلة للصدق وللكذب .

---

٣١. الصداقة ، ص ٢٦٤
٣٢. انظر الصداقة ، ص ٢٥٣ ، ص ٣١٩ ، ص ٣٦٦ .
٣٣. الصداقة ، ص ٤٢٧ .
٣٤. الصداقة ، ص ٤٢٨ ، ٢٥٧ .
٣٥. الصداقة ، ص ٤٥٠ ، ١٥٧ .
٣٦. الصداقة ، ص ٤٢٦ . وانظر الشعر في ص ٢٩٩ .

ومصداقية القول يثبتها الفعل المتطابق مع القول بالطبع وليس الفعل الذي ينفيه .

يعتبر السلوك بشكل عام هو المؤشر ، الا أن هناك مشاعر ذاتية يُستَدلُّ بها على الصداقة بشكل خاص ، وتوازيها لدى الطرفين أمارةٌ لهذه العلاقة . فمن الاصدقاء من يتخذ من قلبه ومشاعره تجاه الاخر دليلاً على محبته له ، بل قد يعتبر ذلك الامارة الاولى للمودة بينهما (٣٧). ويشير التوحيدي الى أمارات أخرى يعرف بها الصديق ، ومنها " أن ترى وجهه منبسطاً ، ولسانه مبهوراً ناطقاً ، وقلبه ببشره ضاحكاً ، ولقربه في المجلس مجيباً ، وعلى مجاورته في الدار حريصاً ، وله فيما بين ذلك مكرِّماً "(٣٨). وما يستتر في الباطن قد يطفو منه شيء على ملامح الشخص الظاهرة في بعض الاحيان . فبريق غريب في العين أو رمشة والتفاتة هنا أو هناك ، وعبوس الوجه وتقلصه ، وتغير لونه ، أو ارتعاشةٌ على الشفتين ، مع ما يصاحب هذه الايماءات من حديث يرتبط بها أو لا يرتبط ، كلّ ذلك تعبير يعكس ما في مكنونات الصدر على قَسَمات الوجه (٣٩). ويقدِّمُ التوحيدي أقوالاً وأشعاراً دلالتُها أنَّ العينَ مرآةٌ تكشف خفايا وجدان المرء ، فهي مؤشر ينبِّئ عن امارات الصداقة أو العداوة (٤٠) . وبخصوص هذه النقطة ، كتب مفكر معاصر: " ويمكن أن تكون رؤية ملامح شخص آخر ، والتعبير الذي نلمحه في عينيه ، كشفاً روحياً ، فان العيون والحركات والعبارات كل هذا أبلغ كثيراً في التعبير عن روح الانسان من جسمه (٤١).

---

٣٧. " قيل للجنيد : إن ابن عطاء يدعي صداقتك ، فهل هو كما يقول ؟ قال : هو فوق ما يقول . وأجد ذلك له من قلبي بشواهد لاتكذبني عنه ، ولا تكذبه عني " . الصداقة ، ص ٩٣ .

٣٨. الصداقة ، ص ٢٣٢ .

٣٩. " ان العين أنطق من اللسان وأوقد من النيران " ، الصداقة ، ص ٢٤٤ ، وانظر الشعر في ص ٣٧٣ منه .

٤٠. تُبدى لك العينُ ما في نفس صاحبها ... من الشناءة أو ودٍّ إذا كانا
والعين تَنْطِقُ ، والافواه صامتةٌ ... حتى ترى من ضمير القلب تبيانا
الصداقة ، ص ١٨٢ .

٤١. نيقولاي برديائف ، العزلة والمجتمع ، ترجمة فؤاد كامل عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ١٠٥ .

ولايطرّد التطابق بين الباطن والظاهر في كل الاحوال . ومما هو غريب حقاً أن يكون النفاق في عشرة الرفاق متعة لبعض الافراد ممن يلعبون لعبة الصداقة ولايعيشونها ، " لان كلا منهم قد قدم التحرز من صاحبة ، واستشعر الاحتراس منه ، فليس يستودعه ما يخاف ضياعه ، ولا يأمنه على كل ما يحتاج الى الاهتمام به..... وأعطاه مقداراً من ظاهره ... فيجريان في مثل هذا الميدان مدة طويلة متمتعين بالمؤاكلة والمشاربة ، واللقاء والمحادثة " (٤٢).

ويعتبر بعض الناس الاتصال بين الاصدقاء علامة تؤكد عرى الصداقة ، وتختلف الادوات والوسائل المستعملة في الاتصال لتثبيت وشائج الصداقة تبعا للاطار الاجتماعي وما تعارف عليه العامة من العادات والمجاملات . فهناك مجتمعات تعتبرُ استمرارَ الاتصال واللقاء دليلاً على استمرار المودة في الصداقة ، في حين أن مجتمعات أخرى لاترى في انقطاع الاتصال ضَرَراً .

إنّ المكاتبة عند بعض الناس هي السمة الدالة على حقيقة العلاقة بين الصديقين . و " علامة الصديق - اذا أراد القطيعة - أن يؤخّر الجواب ، ولا يبتدئ بكتاب " (٤٣) . و " الكتب تحيي ما أمات الفراق ، وتجدد من عهد المودة ، ما أخلَقَه الزمان " (٤٤). ومع اعتقاد بعض الناس بأن الاتصال حق من حقوق الاصدقاء ، لكن هذه الفئة قد تعطي للمشاعر والعواطف قيمة أكبر من المكاتبة ووسائل التواصل الاخرى ، " فان الواصل بنيته ، وان انقطعت كتبه ، - واصل " (٤٥). أما الثقة بنوايا الاخرين فقد لا تتوفر الا لفئة قليلة من الناس . ويصر بعض الاصدقاء على المكاتبة لا من حيث هي وسيلة لترسيخ الصداقة ، ولكن بقصد الامتاع والمؤانسة . وهناك اختلاف في وسائل امتاع الصديق على البعد ، فاذا امتنعت الرؤية فإنّ الصديق يطلب المكاتبة ليأْنَس بذكر صديقه (٤٦).

أما التزاور فهو اشباع لحاجة نفسية يشعر الصديق فيها عند لقاء صديقه بالانس والراحة والطمأنينة . فودّ بلا زيارة كزرع يترك من غير ري ، لان " لكل

٤٢. الصداقة ، ص ٤٠٦ .
٤٣. الصداقة ، ص ٣٥٧ .
٤٤. الصداقة ، ص ٤٢٤ .
٤٥. الصداقة ، ٤٢٤ .
٤٦. انظر الصداقة ، ص ٤١٠ .

شيء ثمرة ، وثمرة المودة الزيارة ... يا أخي ، فقد زرعت في قلوبنا مودتك ، فتعهّد زرعك بسقي الماء ، وإلا فلا تأمن " (٤٧).

لايقتصر الاتصال على اشباع هذا النزوع النفسي ، وانما هناك جانب تربوي فيه . فالصديق أسوة يقتدي بها الصاحب . ومثول الصديق أمام رفيقه ، بحركاته ولفتاته وأقواله أبلغ في النفس من الكلام المقروء أو المسموع . لان في المشاهدة فرصاً مواتية للتأثير ، فيتشرب الرفيق شيئاً من خُلُق صاحبه ، خاصة اذا كانت لديه الرغبة في تحقيق التماثل مع صديقه . وهذا هو مغزى رواية أبي حيان عن بعض السلف " خير اخوانك من وَعَظَك برؤيته [فإنك ترى] هيئته ، وشارته وحركته ونظرته ، وهذه كلها نواطق ولكن بلا حروف ، وشواهد ولكن بلا لفظ ، وأما اذا جاء الكلام فقد استوعب أقصر البيان ، وأتى على آخر الارادة . فأراد هذا القائل أنه اذا أراك نفسه ، فقد حَضَّك على اتباع أمره ودعاك الى الاقتداء به " (٤٨) فالفرد يؤثِّرُ على صاحبه من خلال سلوكه ومعاملاته ، فقد يكون قدوة له ، اذ أن الصديق يضاهي الى حد ما صورة صديقه في حسنها وقبحها " انّ لك من خليطك نصيباً ، وان لك نصيباً من ذِكْر مَنْ آخيت" (٤٩). واذا كان بعض الناس يتوخى من الزيارة تحقيق المتعة والمؤانسة فانها عند الاخرين أمارة الصداقة . فالتزاور يكون بين الاصدقاء دون غيرهم من المعارف . وذلك لان " من لم يزرك ، ولم يواسك ، فهو من اخوان الطريق " (٥٠) .

---

٤٧. الصداقة ، ص ٣٥٨ ؛ البصائر ، ج ١ ، ص ٢٠ ، ج ٣ (٢) ، ص ٤٨٩ .

٤٨. الصداقة ، ص ٣٣٩ .

٤٩. الصداقة ، ص ٣٩١ . ويناقش التوحيدي مسألة " الشخص القدوة " وتأثيرها . ويسأل مسكويه عن ذلك في الهوامل ، س/ ٥٤ ، ص ١٤٦ . ويرى أن المرء قد يألف تكرار الفعل عن طريق الاقتداء ، فيصعب عليه تركه بعد ذلك . انظر الهوامل ، س/ ١٦٦ ، ص ١٧٧ ، البصائر ، ج ٢ (١) ، ص ٢٩ . ويقول إن " العادة هي الطبيعة الثانية ... ولكنها [تحصل] بحسن الاختيار أو بسوء الاختيار " الامتاع ، ج ٢ ، ل/ ٢٢ ، ص ٩١ . انظر الهوامل ، س/ ٤٩ ص ١٣٠ والصداقة ، ص ٣٤٥ .

٥٠. الصداقة ، ص ٣٨٦ .

والبعد لايفصم عرى الصداقة المتينة ، الا أن " لدغة الشوق وكثرة التوق " تؤثر على الصديقين فيصبح " شوقهما أبرح ، ونزاعهما الى اللقاء أشد ، وحسرتهما على ما يفوت منه أكثر " (٥١). ومع ذلك فان بعد المسافة بينهم لايعني انقضاء تجاور قلوبهم (٥٢). بناء على هذا فان كثرة الاتصال فيما يرى بعض الادباء ان كثرة الاتصال لا تدل بالضرورة على متانة الصداقة • فقد لايرى الصديق صديقه مدة من الزمن ، ومع ذلك يظل وفيا حافظا للعهد • وقد يتعذر الاجتماع بين الصديقين ، وعلى أية حال فليس الاتصال مقياس الوداد دائما • يقول التوحيدى " ادركت أقواما كان الرجل منهم لايلقي أخاه شهرا أو شهرين ، فاذا لقيه لم يزده على : كيف أنت؟ وكيف الحال؟ ولو سأله شطر ماله لاعطاه ، ثم أدركت أقواما لو كان أحدهم لايلقي أخاه يوما سأله عن الدجاجة في البيت ، ولو سأله حبة من ماله لمنعه " (٥٣).

٥١• الصداقة ، ص ٤٠٥ •
٥٢• انظر الصداقة ، ص ٤١٠ •
٥٣• الصداقة ، ص ١٠٩ _ ١١٠ •

الفصل الخامس

شيم الصداقة ومقوماتها

يتبنّى التوحيدي أكثر من عشرين قاعدة تعتبر الاساس الذى تقوم به الصداقة، فتبلغ اذا توفرت هذه القواعد مستوى رفيعاً من حيث متانة أواصرها واستمرار دواعيها . ولاشك أن التوحيدي يمثل اتجاهاً مثالياً في هذا النطاق . لكنه يرى أحيانا أن مقومات الصداقة تستقرأ من الواقع النفسي الاجتماعي ، فيأخذ بالاعتبار ما يعتور الطبيعة البشرية من تغيير بسبب ظروف خاصة يمر بها الناس .

قد يؤدي نشوء المودة العابرة بين طرفين الى نمو هذه العلاقة . ولابد في هذا المجال من وسائل تجعل كل انسان يخرج عن أنانيته ويقمع أهواء نفسه لكي تنضج الصداقة وتصير أخوةً على الحقيقة . وتحتاج المودة في الاخاء الى تعهد مثلما هي الحال في الزرع الذي هو بحاجة الى سقاية وعناية كي ينمو ويؤتي أكله [١]. ويكون هذا الامر بأن يتعهد الواحد أخاه في المودة في الظروف الحالكة التي قد يمر بها [٢]. ان مقومات الصداقة هي معايير خلقية يسعى الصاحب لتطبيقها من أجل اقامة علاقة صداقة صافية والحفاظ عليها .

يركّزُ التوحيدي على قيمة هذه المقومات وأثرها في دوام الصداقة واستمرارها بل انه يستهلّ رسالته في الصداقة والصديق [٣] بالتأكيد على هذه المبادئ .

---

١ . انظر ص٧٩ سابقا . " يعرف ابن قيم الجوزية " الود " بأنه خالص الحب وألطفه وأرقه ، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة .... فالود أصفى الحب وألطفه " . روضة المحبين ، ص٤٦ ـ ٤٧ .

٢ . "حافظ على الصديق ولو في الحريق " . الصداقة ، ص٣٢ ؛ البصائر ، ج١ ، ص ٢٩٤ .

٣ . انظر الصداقة ، ص١ ، ١٢٩ .

والقيم التي اندرست بين الناس ، ويأمل أن تحيا مرة أخرى بينهم وأن تتمثل في صداقة حقة ، وتتشخص في العلاقة الواقعية بين الناس . " الصداقة على كرم العهد ، وبذل المال ، وتقديم الوفاء ، وحفظ الذمام ، واخلاص المودة ، ورعاية الغيب ، وتوقّر الشهادة ، ورفض المَوْجِده ، وكظم الغيظ ، واستعمال الحلم ، ومجانبة الخلاف ، واحتمال الكلّ ، وبذل المعونة ، وحمل المؤونة ، وطلاقة الوجه ، ولطف اللسان ، وحسن الاستقامة والثبات على الثقة ، والصبر على الضر ، والمشاركة في البأساء " (٤).

هذه الخصائص هي المثل التي يحاول الانسان من خلالها تحقيق الكمال الخلقي . وهو هدف عسير وصعب ، وقصارى جهد الانسان أن يقترب منه ولايحققه على وجه التمام (٥). ولايجوز أن يتحمل مسؤولية الحفاظ على الصداقة طرف واحد ، وانما هي مسؤولية الطرفين معا اذا وصلت بينهما مودة حقة ، فالمودة فيما يرى التوحيدى " تعاطف القلوب ، وائتلاف الارواح ، وحنين النفوس الى مباثة السرائر " (٦). ويجد الصديق في نفسه الراحة والطمأنينة بعد التقائه بصديقه الذي يكمله (٧). وتتجلى مقومات الصداقة في الصديق الذي اذا استُحفِظ سراً كتمه ، فعبء الاسرار يكرب النفس ويضيق الصدر ، و " المباوحة والمفاوضة " (٨) سعة للصدور وتفريج لكرب النفوس وفيها راحة للانسان . ويلاحظ التوحيدي صعوبة كتمان الاسرار في الصدور وميل الانسان لافشائها رغم " الاحتياط في طيها ، نعم ، ومع الخوف العارض في نَشْرها ، والندم الواقع من ذكرها " (٩).

---

٤ . الصداقة ، ص ١٢٩

٥ . انظر يحيي بن عدي ، " تهذيب الاخلاق " ، الفكر الاخلاقي العربي ، د. ماجد فخرى ، ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١١٣ . انظر أيضا H.B. Acton, "Idealism", The Ency. of Philosophy, vol. 4. P. 110-118.

٦ . الصداقة ، ص ٤٦٤ .

٧ . " اذا رأيته ابتهجت ، واذا باثثته استرحت " . الصداقة ، ص ٢٧ - ٢٨ .

٨ . الصداقة ، ص ٤٠٥ .

٩ . الهوامل ، س / ٢ ، ص ١٥ . يرد مسكويه افشاء السر الى أسباب نفسية واجتماعية . وحين يسأل ابوحيان السجستاني حول هذه المسألة يكون جوابه : " السر اسم لامر موجود قد ضرب دونه حجاب ... فعليه بالكتمان والطي والخفاء والستر مَنْحة من العدم ، وهو مع ذلك موجود العين ثابتُ الذات ، محصَّل الجوهر ، فلابد له اذا من النمو والظهور ، ولو بقي مكتوما خافياً أبداً لكان والمعدوم سواء ، وهذا غير سائغ ... أعني أن يكون الموجود معدوما " . ويرى أيضا أن " الحجاب المضروب على هذا السر يرث ويخلق ، لانه لايبقى على هيئته الاولى يوم يقع سرا " ، **

وكثيراً ما يكبرُهمُ الواحد إذا لم يجد من يشاركه في مشاكله . فيأتي صديقاً مخلصاً يصارحه ، فيرشده الى طريق الصواب . واذا لم يبح بسره لصديق يأمنه ، ظل في كَرْبٍ . ففي نشر السر عيوب ومحاسن وقد يستغل العيوب عدوٌ فيشّهر به . واذا كان الصديق " مثال نفسه في كل حال تلون به الدهر . وهم صدر في كل أمر يقلب به الليل والنهار "(١٠)، فهو في بث همه وكشف سره لصديقه كمن يحدث نفسه . ان علة افشاء السر هي في الجِبِلّة البشرية . فطبيعة الانسان تحب الاخبار ، وذلك بالاخبار أو بالاستخبار (١١). وفي خبرتنا المشتركة أن المرء يكتسب شيئا من الراحة بافشاء سرّه الى غيره . فبث الاسرار وتبادلها حاجة نفسية في الانسان ، " قيل لكاتب : فيم لذتك ؟ قال : في سر أفشيه ، وكلام أنشيه " (١٢). وهناك من يرى أن " ليس من الاخوة أن يسرّ الرجل عن أخيه الحديث "(١٣). ويرتبط حفظ السر بالامانة ، فمن أفشى سرّ صديقه فقد خانه ." قال بعض السلف : تَوَقّ من الرجال مَنْ إنْ أنعمتَ عليه كفرّك ... وان ائتمنته خانك ، وان ائتمنك اتهمك " (١٤).

ويُعتبر الانس حاجة نفسية في الصداقة . وقد تبلغ الثقة بين الصديقين حد استيعاب السلبيات والاخطاء . فترتبط بحسن ظن الواحد في الاخر ، وهذه درجة عليا من أنس الصديق بصديقه . ويُقْرَنُ الأنس بالثقة عند كثير من المفكرين ومنهم من يرى أن الانس " آخر ما يبذل من ذات النفس وأجل ما تخص به السادة أولياءهم ، والاخوان اخوانهم ، وبه تنال راحة المفاوضة والمباثة "(١٥) الا أنه مع ذلك يعتبر أساس " الثقة والمشاورة " ، ومنهم من يجعل الثقة أساساً في حدوث الأنس : " ليكن الانس أعلى وأغلى مودتك ، وأبطأها عرضاً على صديقك " (١٦). ويرى

** المقابسات ، م / ٧ ، ص ٩٣ ، قارن أحمد أمين وزميله ، تصدير البصائر والذخائر لابي حيان التوحيدي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص أ .

١٠. الصداقة ، ص ٣٠٨ .

١١. انظر الجاحظ ، " كتاب كتمان السر وحفظ اللسان " . رسائل الجاحظ ، ج ١، ص ١٣٩ - ١٤٠ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

١٢. البصائر ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

١٣. الصداقة ، ص ٤٦٩ .

١٤. الصداقة ، ص ٣٧٢ .

١٥. الصداقة ، ص ٤١٢ .

١٦. الصداقة ، ص ٣٥٧ .

التوحيدي أن هناك أمداً معينا لتوكيد الأنس ، واستحكام الثقة ، فمن الصعب أن " يقع الاسترسال والتشاور " (١٧) في مدة تقل عن الثلاثين يوماً، وحين يبلغ الاخوان مرحلة الانس فانهم يستوفون شروط الصداقة ، ويَشْرعون بالقيام بواجباتهم وحقوقهم المتبادلة .

ويشكل الودّ الخالص من الرهبة والرغبة النموذج الذى هو مطمح الاصدقاء. فالرهبة ، لاشك ، هي نقيضُ الانس والصفاء ، وهما أخص خصائص الصداقة . أما أقطاب العلاقة المشوبة بالرهبة والرغبة فهم متوهمون مخدوعون بها ، لان أي خطأ يقعون فيه هو صَدْع غير قابل للاصلاح (١٨) . ويعتبر الأمان شرطا لدوام الود بين الاصدقاء حتى عند اختلاف وجهات نظرهم . فاذا لم يتوفر ، تدهورت العلاقة ثم انقطعت (١٩) . ولا يغرب عن بال التوحيدي أن يتعرض في هذا النطاق الى علاقة الحاكم بالرعية ؛ فينفي امكانية تحقق الصداقة بين السلطان وأحد أفراد الرعية . ويرى أنه لا صحة لحكم الصداقة والوفاء بعهدها عند الحكام . ذلك أن الصداقة علاقة تساوٍ وتساو بين اثنين قد يحدث فيها انقياد الواحد للاخر ، طوعاً وليس كرهاً ."فالصداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة شديدة الاستحالة ، وصاحبها من صاحبه في غرور ، والزلة فيها غير مأمونة وكسرها غير مجبور "(٢٠).

ان المطلب الاجتماعي للصديق لايقف عند الحاجة الاساسية ؛ بل يتعداها الى مرحلة تبلغ حد الزينة والتجمل بالصديق في المجتمع . ولهذه المرحلة دلالة نفسية واجتماعية أيضا . فالانا تبحث عن آخر يعكسها لتتحقق فيه ، في صفاء يسكن النفس فيشعر المرء بالطمأنينة والانس ، مما يؤكد ذاته ويمنحها ثقةً أكبر . أما الدلالة الاجتماعية فانها تتضح في امتداد صلة الذات الى آخر في علاقة نافعة خيرة . وعندما يتباهى الصديق بصديقه فكأنه يؤكد الذات من خلال بعدها الاجتماعي (٢١) . فخوف الادنى من الاعلى ، وقهر الاعلى وتحكمه يشلّ حكم الصداقة (٢٢). وحتى في حالة قيام صداقة بين صاحبين ، سابقة لإمارة أحدهما ،

١٧. الامتاع ، ج ١ ، ٣/٤٤ ، ص ٥١ ـ ٥٢ ، ونجد مثل هذه الفكرة عند مسكويه أيضا ، انظر تهذيب الاخلاق ، ص ١٤٠ .
١٨. انظر الصداقة ، ص ٢٥١ ، ٥ .
١٩. انظر الصداقة ، ص ٣٨٣ ، ١٦٣ .
٢٠. الصداقة ، ص ٥ ، وقارن الامتاع ، ج ٢ ، ل/ ٢٦ ، ص ١٥١ .
٢١. انظر الصداقة ، ص ٦٥ ، ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .
٢٢. انظر الصداقة ، ص ٥ .

فانها نادراً ما تستمر ، لان طبيعة الإمارة وما يلحق بها من سلطان ونفوذ قد تغيّر من طباع النفس الانسانية ، ويخلّ هذا التغيير علاقة التوازي بين الصديقين(٢٣).

يتساءل التوحيدي عما اذا كان الفراق ممكناً بعد استمرار اللقاء بين الاصدقاء ، وبلوغ الصداقة درجتها القصوى التي لا انفصام بعدها . ويأخذ هنا بعين الاعتبار تأزم المواقف وسوء التفاهم بين الاصدقاء . ومن ثم قيمة المقومات في اثراء الصداقات ، مما يعزز نزعته الواقعية . واذا كانت الصداقة " قاصرة عن درجتها القاصية "(٢٤) فان ما يعوّل عليه فيها هو أسس المودة وما يلحق بها من أحكام عقلية ، ومقومات أخلاقية تعمل على توطيد عرى الصداقة ورعايتها " وفي الحديث أن كرم العهد من الايمان أي رعاية المودة "(٢٥) ثم أن المودة مفتاح الثقة ، التي تهيئ الاطمئنان بين الاصدقاء . وهذا الاطمئنان مناخ صالح للنصيحة ، فعندما يثق المرء بأخيه ويطمئن اليه فانه يتقبل منه النصائح ، ويأمنه على سره . و" لايزال الاخوان مسافرين في المودة حتى يبلغوا الثقة ، فتطمئن الدار ويقبل وفود التناصح ، وتؤمن خبايا الضمائر "(٢٦). ثم أن نصيحة الصديق للصديق ، تستلزم معرفة نحيلته وأسراره ، وكشف السر يستلزم الصراحة وعدم التحفظ ، ومن ثم نزع التكلف والرياء . و " شر الاخوان من تُكُلِّفَ له ، وخيرهم من أحدثت لك رؤيته ثقة به ، وأهْدَتْ إليك غيبتُه طمأنينةً اليه "(٢٧) . فالصاحب " هو مرآة أخيه ، إنْ رأىٰ منه ما لا يعجبه قوّمه وسدّده ووجهه ، وحاطه في السر والعلانية "(٢٨).

ان الثقة والامانة في حفظ السر هي بالطبع من أسس الصداقة القويمة ، وهي أصلا من كرم الشمائل وحسن الخلق . فالكريم يحفظ السر في حالة الصفاء ولاينقطع عطاؤه في الود حتى في حالة الهجر والانقطاع . والنصيحة ضرورية في الصداقة

---

٢٣. انظر البصائر ، ج ١ ، ص ١١٤ ، " فكل امارة عما قليل مغيرة الصديق على الصديق " الصداقة ، ص ٢٢ ، ص ٤٢ ، وقارن الماوردي ، أدب الدنيا والدين ، ص ٢٢٢ وأيضا مسكويه ، تهذيب الاخلاق ، ص ١٤٤ – ١٤٥ .
٢٤. الصداقة ، ص ١١٢ ، وانظر ، ص ١١١ .
٢٥. الرازي ، مختار الصحاح ، ص ٤٨٤ . انظر الصداقة ، ص ٣٠٦ – ٣٠٧ .
٢٦. الصداقة ، ص ٢٣٩ .
٢٧. الصداقة ، ص ٥٣ ، البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٢٩٩ .
٢٨. الصداقة ، ص ٣٩١ ، البصائر ، ج ٣ (١) ، ص ١٦٧ – ١٦٨ .

حتى لو أخطأ الصديق الناصح • لان حكمه حكم المجتهد ، فقد يخطيء وقد يصيب • " وربما احتملت للناصح الكلمة المرة ، ولم تخرجه عن حد الامانة والثقة وأن كان مخطئا في المشورة ، لانه قد اجتهد عند نفسه ولم يرد سوءاً ولا غائلة "(٢٩) . وعلى الناصح أن يكون عادلاً في نصحه ، فيكون هدفه حل المشكلة حلاً منصفاً ،وتقويم عيوب الصديق بلطف • " قال رجل لعمر بن الخطاب : والله اني لاحبك في الله ، قال : لو كنت كما تقول لاهديت الى عيوبي " (٣٠)

ان المواساة جانب هام في الصداقة • فالصديق الحقيقي لا يتخذ موقفاً سلبياً ازاء صديقه ، لانه بعض نفسه • ومشاركته الوجدانية في أفراح أخيه وأحزانه هي ما يتضمنه المفهومُ الاساسي للصداقة • كيف لا ، و" المؤمن شعبة من المؤمن ، يحزن لحزنه ، ويفرح لفرحه ".(٣١) وتقتضي مواساة الصديق التخفيف عنه اذا ألمت به مصيبة ومساعدته في الملمات والمحن • وتعبّر المواساة عن التحام بين الاصحاب أو تعاطف على الاقل (٣٢)• ويتخذ التعاطف أشكالاً عديدة ، فيكون أحيانا في تقاسم البلاء مهما كان نوعه وحجمه•

والصبر أسلوب يتشكل حسب الاحداث ويتنوع بتنوع الناس • فلكل ضرب من المعاناة أسلوب صبر • والصبر عماد الصداقة وأساس العلاقة في مطلق الظروف التي يُبتلى بها المرء ؛ وهو قيمة خلقية لها اتصال وثيق بالممارسة اليومية(٣٣). وثمة آيات قرآنية ومأثورات اسلامية (٣٤) تبين قيمة الصبر على البلاء وثواب الصابرين الكبير عليه • يقول التوحيدي : " ان أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة فيما يعاقبون عليه ••••ان الله تعالى قد قسّم الصنع بين جميع أفعاله محبوبها ومكروهها ، فأضحك وأبكى ، وأمات وأحيا ، وعافى ، وعاقب وأعفى ، ولم يعطل البلاء من تكاليف الصبر ، كما لم يعطّل النعمة من تكاليف الشكر " (٣٥) .

٢٩• الصداقة ، ص ٤١٨ _ ٤١٩ •

٣٠• الصداقة ، ص ٣٢٣ •

٣١• الصداقة ، ص ٣٩١ ، قارن تعريف المواساة عند الشريف الجرجاني، التعريفات ، شركة مكتبة الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٢١٢ •

٣٢• انظر الصداقة ، ص ١٨٣ ، " قال ابن مبادر : كنت أمشي مع الخليل فانقطع شسع نعلي، فخلع نعله ، فقلت ، ما تصنع؟ قال : أواسيك بالحفا "• الصداقة ، ص ٤٣ •

٣٣• أنظر الامتاع ، ج ٢ ، ل / ٢٤ ، ص ١٣٠ •

٣٤• انظر الامتاع ، ج ٢ ، ل / ٢٤ ، ص ١٢١ •

٣٥• البصائر ، ج ٢ (١) ، ص ٢٨٤ ، ٢٧٦ ، ج ١ ، ص ١٣ ، ص ١٧٧ •

ويرى البعض أن " الصبر دَرَك " (٣٦) أي أنه مستوى خاص من الخلق وليس غاية في حد ذاته انما هو اسلوب في مواجهة المشكلات التي تعترض طريق المرء، فيدرك به مطالبه .(٣٧) وقد يكون علاجاً تصلح به النفس فيشفيها من ألم المعاناة في خضم الاحداث والاقدار . أو قد يدرك المرء به حاجته ومطلبه (٣٨). ويؤكد التوحيدي أن من يتمسك بالصبر لن يندم ولن يتعرض للوم على الاقل " فعليك بالصبر ، فان عاقبته الى خير ، وأقل ما فيه أن صاحبه لايلوم نفسه ، ولايلومه أحد " (٣٩). وأكثر ما تبرز قيمة التحمل والصبر في العلاقة الخاصة بين صديقين حميمين قطعا شوطا في ترسيخ الالفة فيما بينهما ، وأصعب ما يكون في الصداقة الصبر على الجفاء . فاذا أخذ المرء بمبدأ المعاملة بالمثل ولم يصبر على أخطاء الاخوان ، فان النتيجة ، فيما يرى التوحيدي ، هي انهيار الصداقة . ولذلك فانه لايجد " خيراً من الصبر ، فبه يقاوم المكروه ، وتُستَدْفَعُ البليسة ، وبه يُؤدّى شكر النعمة " (٤٠) . وبه يُحْتَملُ العدو الذي يحسبه المرء صديقاً ، وبه يصبر الصديق على هَجْر صديقه حتى يتبين الحقيقة . فالصبر بهذا المعنى يُعتبر أساساً في العلاقة الثنائية وفي العلاقات العامة . واذا كان المرء يصبر على مداجاة العدو حين يُظْهر الودَ لغاية في نفسه ، فاولى به يتحمل الأذى العارض من صديقه (٤١). ان الصابر يثاب على صبره ان آجلاً أو عاجلاً . فالصبر لايذهب جفاء، وثوابه مشروط بالممارسة ، وعاقبته البهجة واللذة (٤٢).

يتساءل بعض المفكرين الذين ممن يقتبس التوحيدي عنهم ، عن كيفية الصبر على الصديق . وهم في تساؤلهم هذا ، يفترضون أن الصبر اسقاط من الذات على موضوع خارج عنها فقط ، مع أن الصبر قد يكون على نوازع تكمن في الذات . واذا كان بعض الناس يعتبر الصديق بعضاً من صديقه ، فلا عجب اذا ما صبر " عن بعض نفسه الانسان ؟ ".(٤٣) فالصابر على الصديق كالصابر على نفسه .

٣٦. البصائر ، ج ٢ (١) ، ص ٦٩ . " والدرك ، ادراك الحاجة ومطلبه ، يقال : بكرٌ ففيه دَرَك " ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة درك .

٣٧. انظر البصائر ، ج ١ ، ص ١٣٨ ، ١٥٧ ، ج ٢ (١) ، ص ك ، ل ، ٢٥٥ ، ج ٣ (٢) ص ١٢٩ ، ٦٦٦ ، المقابسات ، ص ٥٢ .

٣٨. البصائر ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ١٨٢ .

٣٩. الصداقة ، ص ٥٩ .

٤٠. انظر الصداقة ، ص ٣٤٤ .

٤١. انظر الصداقة ، ص ٤٧٤ .

٤٢. الصداقة ، ص ٢٢٦ .

ولا يتمثّل الصبر في تحمل هجر الصديق فحسب ، وانما يشمل أيضاً معاني الايثار . فليس التعادل في التعامل من مقومات الصداقة ، وانما لابد من الايثار والتضحية . فالصديق الحق هو الذي " لايقتصر من المكافأة على السواء دون أن يتجاوزه الى الافضال " (٤٣). ومما يتنافى مع آداب الصداقة أن يستعجل الانسان قطع العلاقة مع صديق قديم ويتحول الى تجربة جديدة وعلاقة أخرى . فصبر المرء على صديق يعرفه حق المعرفة واتصلت فيه أسس الود والتفاهم من قبل هو أفضل من محاولة البحث عن صديق جديد .(٤٤) وقد يأخذ بعض الناس بعين الاعتبار انكار المرء لصداقة قديمة ، فيحجمون عن اقامة علاقة جديدة معه حيث أن " من لم يقم على مودة الصديق القديم ، لم يقم على مودة الصديق الجديد " (٤٥).

ويُعتبر الحلم قيمة خلقية سامية ، ولقد كان عند بعض القبائل العربية معياراً للسؤدد والمكانة ، فسيد القوم هو الاكثر قدرة على كظم غيظه ، وهو الاكثر تفهماً وتسامحاً مع أفراد قومه . فقد لايحتمل المرء موقفاً فيه احتكاك مباشر بينه وبين ارادات الاخرين ، فيغضب وقد يشتط في غضبه . والغضب " هوغليان دم القلب لارادة الانتقام " (٤٦)، في حين أن الحليم يتعامل مع المواقف مباشرة بقدرة عالية على التحمل ، ويزن الامور على أساس الفهم . وكان أهل الجاهلية لايسودون الا من اجتمعت فيه ست خصال : السخاء ، والنجدة ، والصبر ، والبيان ، والحلم ، وتمامهن الاسلام " (٤٧).

واذا كانت للحليم قدرة على النفاذ الى بواطن الامور ، وسعة في العقل والصدر تتيح له أن يتحمل جهل الآخرين ، فانه يقرن العلم بالحلم " وما قُرِنَ شيءٌ الى شيءٍ أحسن من علم الى حلم " (٤٨) . ان مجالسة مختلف الطبقات هي خبرة يكتسبها المرء في عالم العلاقات الانسانية ، ولايُعْتَبر العالم عالِماً اذا اقتصرت

---

٤٣. الصداقة ، ص ٤٥٢ .
٤٤. انظر الفصل الثاني ، ص ٣٢ .
٤٥. الصداقة ، ص ٣٩٢ .
٤٦. انظر البصائر ، ج ٢ (١) ، ص ١٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، الصداقة ، ص ٣٠٠ .
٤٧. البصائر ، ج ٣ ، (١) ، ص ٣٠٢ .
٤٨. البصائر ، ج ١ ، ص ٤٢٦ .

خبرته وتجربته على فئة معينة أو محيط محدد ، فاذا لم يَسْبُرْغَوْرَ الفاضل والجاهل فان علمه ناقص . " وعليك بحسن الاقتباس ، والصبر على الناس ، فانك ان كنت لا تصحب الا المهذبين من أهل العقول ، ولم تصبر من الناس على الفضول ، عدمت الحلم ، ونسيت العلم . واعلم أن في الناس حكمة . ومجالستهم تجلو بعض الظلمة فاحتملهم على المخالفة وتمويه المصادقة ، واقتبس منهم المحاسن ، وتجاف عن المساوئ " (٤٩). ان الحلم من أجلّ القيم الانسانية ، وقليل من الناس من يعرف فضل الحلم وأثره . وأقل منهم من يتمسك به ، فتسكن نفسه في المواقف التي تغضبه فالحلم سمة العقل الراجح (٥٠).

ومن حق الصديق على صديقه أن يحتمل منه الغضب والهفوة وغير ذلك من الهنات (٥١) . ذلك أن الحلم مزية خلقية مهمة في ترسيخ أواصر المودة . ومن تزين بالحلم خُلُقاً تفهم دوافع الاخرين ، وقدر على امتصاص نقمتهم . والحلم بهذا المعنى ، مرتبة خلقية تدل على قوة النفس ، ويرى بعض الناس أنه اذا خرج عن حدوده دخل في الضعف والتواضع المسرف (٥٢) وبشكل عام ، فان فضائل الحلم والصبر والكظم هي عدة النفس القوية ، فيتسنّى بها ضبط الانفعالات والاهواء العابرة . و " ليس في الدنيا خصلة يحسن فيها [الانسان] الى نفسه ، ويحمد عليها ، الا الحلم ، وما يدخل معه ، كالصبر ، والكظم ، والتغافل ، والاغضاء . فأما الخصال البواقي فان الانسان يحمد فيها اذا أحسن الى غيره ، أو شركه في ذلك الاحسان غيره " (٥٣) .

ويُعتَبر التسامح من مقومات الصداقة المهمة . وهو قيمة لازمة في كل صداقة حقة . وحُرْمة الصديق تُلْزِمُ الصديق أن يتسامح مع صاحبه " ولولا إلْمام الملمين بالذنب ، لبطل تطول المتطولين بالصفح " (٥٤) . فالثقة في المحبة

---

٤٩. الصداقة ، ص ٤٥٧ .
٥٠. انظر المقابسات ، م / ١٠١ ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ ، الجاحظ ، " كتاب كتمان السر وحفظ اللسان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٤٢ .
٥١. انظر البصائر ، ج ٢ (١) ، ص ١٠٨ ، الصداقة ، ص ٢٥٢ .
٥٢. انظر الشعر في الصداقة ، ص ٣١١ .
٥٣. المقابسات ، م / ١٠١ ، ص ٤٣٠ .
٥٤. الصداقة ، ص ٤٤٩ ، وانظر ص ٢١٥ .

والحلم بالمودة يفترضان التسامح مع الصديق وبالتالي غفران زلته ، و" العفو أصل حسن السياسة ... وقالوا : العفو زكاة العقل ولو قيل : زكاة القدرة كان أنبل ، هذا عنديِ ولا أثق بكل ما عندي " (٥٥). وتتلخص الافكار التي عرضها التوحيدي بخصوص التسامح في أن المرء ليس عارياً من النقصان (٥٦). تلك صفة المخلوق ، وواجب الصديق أن يأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار ، فيعذر صديقه ويتغاضى عن عيوبه (٥٧). ويرى بعض الحكماء أن معاشرة الناس بالمسامحة والاغضاء عن المساوى هي مما يكسب الانسان متعة مستمرة (٥٨) . إنَّ الصَّفح من السجايا الخُلُقية المهمة التي تعمل على استمرار الصداقة ، ومن يصفح يكون قدتناسى الزلات الماضية وأثرها . فاذا عاد عن الصَّفح الى إحياء الزلة بالتذكير فقد نفى الصفاء الذي هو مرتع الصداقة . ان العفو " يقوم مقام العتق " فالصفح عن الرفيق أشبه ما يكون بحله من زلته . لذلك يرى بعض الناس أن لا قيمة للصفح اذا أعقبه منٌّ . بل ان " الموبِّخ ـ بعد العفو ـ أولى بالتوبيخ " (٥٩)، على فعلته ، خاصةً أن للصديق حقاً على صديقه في المودة ، أقلها غفران ذنبه .

الصديقُ انسانٌ يخطيءُ ويذنب . وقد يعتذر ، وأحيانا يُغْضي عن الاعتذار . ولا تصفو المودة بغير المغفرة . كما أن المسامحة واجبة لمن صفا وده لصديقه . ثم ان بعض الحكماء أكَّدوا قيمة الصفح في الصداقة اشفاقاً منهم أن يعيش الانسان بلا صديق إن هو نَبَذَ هذه القيمة في علاقاته (٦٠). " هؤلاء انما أوجبوا الاغضاء والاحتمال والصبر والكظم مع سلامة عمود الاخاء ، وانما وقفوا بالصفح والعفو على مالايخلو الانسان يأنس به من مثله " (٦١).

---

٥٥. البصائر ، ج ٣ (٢) ، ص ٥٨٦ ، ج ٢ (٢) ، ص ٦٧٠ ، البصائر ، ج ٢(٢) ، ص ٤٦٠ ـ ٤٦١ .

٥٦. انظر الصداقة ، ٤٠٢ ـ ٤٠٣ . " ومن ذا الذى يُعْطَى الكمالُ فيكمل "، الصداقة ، ص ٢٥٨ .

٥٧. البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٣٧٦ ، ٤٤٦ .

٥٨. انظر الصداقة ، ص ٣٦٠ .

٥٩. الصداقة ، ص ١٧٩ .

٦٠. انظر الصداقة ، ص ٣٧ ، ص ٢٥٨ ، ٣٥٧ ، ٤٠٢ .

٦١. الصداقة ، ص ٤٠٢ .

والوفاء محور الصداقة التي تدور حوله قيمها الاخرى . وهو مطلب ضروري في مراحل الصداقة كلها ، وحتى بعد انتهائها ، كما أنه حق يوجبه العهد الوثيق بين الاصدقاء . ويسأل التوحيدي مسكويه عن سبب اجتماع " الناس على استدناع الغدر واستحسان الوفاء ، مع غلبة الغدر وقلة الوفاء ؟ "(٦٢) فيجيب بأن الوفاء قيمة خير ، وأن العقل الذي هو خير يستحسنها في حين أنه يقبح الغدر . ومن جهة أخرى فان المجتمعات البشرية تقوم على التعاون والتعاقد لزاما ، لتصل الى غايات اجتماعية ، فالعهد الذى يُلزِم المرء به نفسَه ، ويكون وفيّا له ، قد يكون عهداً دينياً أو اخلاقياً أو اجتماعياً . والصداقةُ عقد المودة بين اثنين ، وعهد يلتزم به الطرفان . ولا خير " في صديق الا بوفاء " (٦٣) والعقلاء يتفقون في أن نقض العهد ليس من الاخلاق الكريمة (٦٤)

يرى بعض المفكرين أن " الوفاء " حق واجب في الصداقة . وهو أيضا " ايجاب حق غير واجب ، مع رقة أنسية وحفيظة مرعية " (٦٥). والوفاء التزام ذاتي بالعهد نحو الاخرين ، وهناك من يرى أنّ مَنّ وفى لمن لايُرْجى كان لمن يُرْجى أوفى " (٦٦) . وهذا يرتبطُ الوفاء بالصبر على الهجر وعلى الوصل أيضا . وفي كلتا الحالتين ينبغي على الصديق أن يحفظ ظهر غيب أخيه ، فلا يهتك ستره . بل إنّ الصداقة الصحيحة تتجلى في حفاظ الاخ على " أخيه حين يكون غائباً "(٦٧)، لان الصديق يطّلع على كثير من أمور صديقه ، فالصداقة حق وحرمة ، وحفظ الذمام ان لم يكن من المقوّمات فهو من الحقوق الواجبة في الأخوة .

---

٦٢. الهوامل ، س / ٤٣ ، ص ١٢٠ - ١٢١ .
٦٣. البصائر ، ج ٢ (١) ، ص ١٨٦ ، انظر الصداقة ، ص ١٠٥ ، ١٣٢ .
٦٤. الامتاع ، ج ٣ ، ل / ٣٧ ، ص ١٣٢ .
٦٥. البصائر ، ج ١ ، ص ١٧٦ .
٦٦. انظر البصائر ، ج ١ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

الفصل السادس

نموذج الصداقة وامكانية تحقيقها

دوّن التوحيدي أفكاراً وتعريفاتٍ مهمةً للمفكرين تعكس تجاربهم وتجارب غيرهم حول ماهية الصديق وفوائد الصداقة . وإذ نناقشها في هذا الفصل نجد أنه من الضروري أحياناً أن نستنير بآراء أخرى لبعض من اهتموا بالاخلاق العملية كالمتصوفة وأصحاب المأثورات الخلقية ، خاصة أنّ أبا حيان قد أبدى اهتماماً ببعض مفاهيم الصوفية التي تختص بالصديق الذي يحمل في نظره رسالة أخلاقية اجتماعية .

يتعدد تعريف الصديق ، وقد يختلف تفسير التعريف الواحد أيضا من مفكر الى آخر . ولقد وَضُحَ هذا الاختلاف في تفسير الحد الأرسطي للصديق عندما تابع التوحيدي هذه المسألة مع السجستاني وغيره.(١) ودلّ اهتمامه البالغ في هذه المسألة على اعجابه بتعريف أرسطو ، الذي سمعه من النوشجاني ، وهو" الصديق هو أنت الا أنه بالشخص غيرك " . ويتضمن تفسير النوشجاني لمقولة أرسطو في أن الفرق بين الحد والمحدود هو الفرق بين الكليات وبين الجزئيات : بين التصور وبين المشار اليه بالحس . والفرق أيضا فرق نسبي بين المثال والواقع ، فبقدر ما يقترب الواقع من المثال بقدر ما يحقق الكمال في الصداقة ،" وذلك أنّ الوحدة التي في العقل تصور كل شيء بصورته التي لا كثرة فيها ، ولا اختلاف ، ولا تعاند ، ولا محادة ، حتى اذا غلبت الكثرة ، وغمر التضاعف ، وانقسمت الاشياء الى الجنس والنوع ، والفصل والخاصة ، والعَرَض ، جاء الاختلاف والتعاند أما ظاهريين واما خفيين ".(٢) ويتفاوت المزاج والاغراض في الماهية الواحدة ،

١ . انظر الفصل الثالث ، ص ٤٩ - ٥١ ، ايضا الهوامل ، ص ١ .
٢ . المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص ٤٤٩ .

ويتضح التفاوت ، بل يزداد ، عند مقابلته بما هية أخرى . فكيف يكون " الصديق آخر هو أنت" بهذا التفاوت والاختلاف ، الا اذا كان الواحد منهما يتبع الاخر ، ويقتدي به ، ويأخذ بيده ... ويتصرف على ارادته ... فان أوجبت على أحدهما طاعة الاخر والاقتداء به ، فهذا خلاف الصداقة التي تقدّم حالها ، لان هذه الحال بالعالم والمتعلم أشبه ، وبالتابع والمتبوع أشكل " (٣).

ويفترض التوحيدي فيما يفترض ولاية الصديق لصديقه وطواعيته له ، بالاضافة الى الموافقة بين الصديقين ، وكون الواحد قدوة للاخر ، لذلك نجده يتساءل : " ما فائدة هذا الحد ؟ ولم قال الفيلسوف شيئاً لا حقيقة له ، ولا دلالة عليه ، ولا يوجد في الشاهد أصلُه ؟ " (٤). فيأتيه الجواب مفيراً الحد الارسطي بأنه النموذج المثالي الذي يسعى كل انسان نبيل لتحقيقه على صعيد الصداقة . " فيكون داعيةً الى الغاية التي كلما قرب منها كانت الحال ، أعني الصداقة ، الى الحقيقة أقرب ، وعليها أشمل ، ولشرائطها أجمع ، وعما يخالف هذه الصفات أبعد " (٥). وهكذا يرى التوحيدي صعوبة تحقيق الصداقة في الواقع في عالم الحس بين الافراد وعدم امكانية تواجد المحدود الموصوف بالحد السابق . الا أن الجدل في هذه المعضلة يكاد ينتهي بحل لايخرج عن تصور أبي حيان للفضائل وتنحيته للرذائل . والتي بها يقترب الصديقان من الحد الارسطي . إنَّ تهذيب الاخلاق وتطهيرها من الدنس وتوجيه الافعال نحو الخير ، هو من الوسائل التي تحقق السعادة (٦). و " الصبر والاجتهاد ، والرياضة ... والتعود ، مطايا مبلّغة أو

٣ . المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص ٤٤٩ .
٤ . المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص ٤٥٠ .
٥ . المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص ٤٥٠ .
٦ . انظر المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص ٤٧٩ ، م / ٣ ، ص ٨٨ . يرى التوحيدي أن الخُلق متأصل في الجبلّة فهو لايُستبدل وانما يَتهذّب بالمعرفة والعلم وبتحكيم العقل المميّز لافعال الانسان ، " وفي الجملة الخُلق الحسن مشتق من الخَلق ، فكما لاسبيل الى تبديل الخَلق كذلك لاقدرة على تحويل الخلق " الامتاع ، ج ١ ، ل / ٩ ، ص ٤٨ . في مقابل هذا يرى الفارابي أن الانسان لايفطر على الفضيلة أو الرذيلة ، بل ان هناك استعداداً لهما في طبيعته بحيث يصعب عليه أن يفعل ماليس معداً له . لكن تكرار فعل الخير والشر ، والتعود على واحد منهما يُشكّل " هيئةً في النفس .. هي التي يقال لها فضيلة ... أو رذيلة . " فصول منتزعة من علم الاخلاق " ، الفكر العربي الاخلاقي د . ماجد فخري ، ج ٢ ، ص ٦٧ – ٧١ .

مقدّمة ، واسباب محققّة أو مقومة ، ولولا هذه الفضائل التي تسلك إليها هـذا السبيل ، لما وجد أحد في صدره برد اليقين ، ولا طمأنينة الحق ، ولا ظفر بسرور النفس ، ولا عرف روح العقل " (٧). الحد صحيح بالقيم الخلقية ، فالماهيات التي جرّدها العقل من الحسيات أصبحت المبادئ التي يتعقلها الانسان الفرد ويعمل بها . " ان ذلك الحد صدر عن فضاء العقول وعرصة الحق ... فاذاً الحد يصبح ملحوظاً بشرح العقل في عالمه النقي البهي ... لا اذا قصد به وجدانه في ساحة الحس الكدر المظلم السيال ... ولهذا المعنى كان الوصف أبدا زائدا على الموصوف ، والقول فاضلا عن المقول عليه ، في أمور هذه الدار " (٨).

قدّم التوحيدي تعريفات أخرى للصديق ، كان بعضها ينم عن مواقف فلسفية - خلقية ، وقد تكون مواقفه هذه نسبيةً وفيها يُعتبر الحُسْن والقبح حُكْمين بالامكان اطلاقهما على موضوع واحد ، كل يراه بطريقة خاصة . ومع أنه يرى ضرورة التمييز بين الحسن والقبح حتى لايختلطا على المرء " فيأتي القبيح على أنه حسن ، ويرفض الحسن على أنه قبيح " (٩) ، الا أنه يقرب من هذا الموقف حين ينوه باختلاف نموذج الصديق من زمان الى زمان ومن جماعة الى أخرى ، فاذا صَلُحَتْ جماعة ما في زمانها ، وتمسكت بالقيم الخلقية الخيّرة وقوى الاحساس الديني والمروءة في الناس ، فعرفوا بالاخلاص فعلى المرء أن يصادق " الحسيب اللبيب الاريب " (١٠). أما في " الزمان السوء " حين تفسد الاخلاق وتذيع المداجاة والنفاق ، فان نموذج الصديق يهبط طِبْقاً لمعايير الزمان ومقاييسه ، وما على المرء في هذه الحالة الاّ أن يرضى بـ" بالمكاشر " الذي يُرائي وينافق ، مع علمه بسوء نخيلته (١١).

ويروى أبو حيان أن أبوجعفر القمي (ت ٣٨١هـ) سئل عن الصديق فأجاب : هو" من إذا أحسنت اليه : قال : الحمد لله الذي وُفّق هذا لما أرى ، واذا أسأتَ قال :

---

٧ . المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ .
٨ . المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ .
٩ . الامتاع ، ج ١ ، ل / ٩ ، ص ١٥٠ .
١٠. الصداقة ، ص ٣٦٦ .
١١. انظر الصداقة ، ص ٣٦٦ . وهذا التنازل عن نموذج الصديق المثالي هو خير دلالة على محاولة التوحيدي التأقلم مع ظروف عصره الى الدرجة التي قد يشوه بها نموذجه الاصلي في الصداقة . اذ يرى أنه اذا عز على الانسان أن يجد صديقا وأخا على الحقيقة فحسبه " نصف صديق " مثلا ، أو صديق يدعي الاخوة ولايلتزم بمعاييرها انظر الصداقة ، ص ٩٤ .

الحمد لله الذي لم يُبْلِه بأشد مما أرى " (١٢) . ان المعنى الضمني في كلام القمي يستندُ الى المفهوم الديني في نسبة النعمة الى الله سبحانه وتعالى ، وأن على الصديق أن يرضى من أخيه بأقل ما يمكن ثم أن القبح والحسن أو الاحسان والاساءة يتحددان بالمبادئ الشرعية ، فيصبح التمييز بينهما أمراً يتعلق بالمنظور الديني الاوسع ، فاذا كان هناك نسبية في الحسن فانها تقع ضمن الاطار المبدأى الذي حدده الدين .

وهناك من يرى أن خير الاخوان هو الذي يصل أخاه في الدين على أساس النصيحة ، فيذكّره بالآخرة ، وبلقاء الله ، وحسابه وعقابه وثوابه ، ومثل هذا الأخ يجتمع مع صديقه على محبة الله ، هدفهما من ذلك نيل رضاه والفوز بسعادة الدنيا والآخرة (١٣). فالمحبة بين اثنين في الله شكل من أشكال الطاعة . وقد يستحي بعض الاشخاص أو يرتدع عن اقتراف المعاصي ، اذا علم أن هناك من يحبه في الله ، وهو يستعيذ بالله أيضاً من أن يكون ممن يحب في الله والله عليه ساخط (١٤). ويستشهد أبو حيان بحديث يؤثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام في دعائه : " اللهم ارزقني حبّك وحب ما ينفعني حبّه عندك " (١٥) فاذا لم يكن الخل عبداً صالحاً تقياً ، فان ضره لأقرب من نفعه ، لأنه يدفع بالصاحب للحيدة عن جادة الصواب . أما اذا كان من المؤمنين الطائعين ، فان صداقته قد يكون فيها المنفعة الآخروية في أمور كثيرة . (١٦)

يقدم التوحيدي مفهوما دينياً يعتبر أفضل الصديقين هو من كان حبه أشد لصاحبه : فيروى عن أنس أنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما تحاب رجلان الا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه " (١٧). ويمثل هذا الموقف قيمة الايثار في الصداقة . ومن أفضل المأثورات التي تعبر عن نموذج العلاقة بين الاصدقاء قولهم " لاتلق أخاك بما يكره " (١٨) . وهو يتفق مع حديث نبوي مشهور :

١٢. الصداقة ، ص٣٠٧ .
١٣. انظر الصداقة ، ص١٠٦ ـ ١٠٧ ، ١١١ ، ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .
١٤. الصداقة ، ص٣٣٥ ـ ٣٤٠ .
١٥. الصداقة ، ص٢٧٨ .
١٦. انظر البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ١٠٠ .
١٧. الصداقة ، ص٣٣٩ .
١٨. الصداقة ، ص٤٦٩ .

" لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه " (١٩). انه يدل على أن الاخوة الصحيحة تخرج على كل أوجه الانانية ، وتتسق مع تعميم الخير على الاخوان وطلبه لهم ، مع الاشفاق عليهم إذا أصابهم ما يكرهونه . " وأما التي بينك وبين الناس فاصحبهم بالذي يحب أن يصحبوك به " (٢٠).

والصديق هو " من لم يجدك سواء ، ولم يفقدك هواه " (٢١). فالتطابق والتماثل يشكلان نموذج الصداقة الاعلى الذي ينشده التوحيدي . أما محبة الصديق في مستواها الاعلى ، فلا تكون الا من خلال موقف صوفي يرى محبة الناس غاية في ذاتها وسيلة لنيل رضا الله . ولاتقتصر هذه النظرة على العلاقة بين صديقين ، وانما تشمل الانسانية بشكل عام . ذلك أن المتصوفة يعتقدون ان انشغال القلب بحب الله هو الطاقة التي تخلصه من براثن كراهية الآخر . ومن الممكن تحويل الكراهية التي يكنها بعض الناس للعابد الزاهد الى محبّة . اذ يعني الحب أو الكراهية التوجه نحو " الآخر " بالصداقة أو العداوة . فاذا ما بدر من هذا " الاخر " شر قابله المتصوف بالتسامح والدعاء له بالخير . ولأن المتصوف الاصيل يشكّل ، من خلال ممارساته وانكاره لذاته ، قدوةً حسنة ، فانه يجذب الآخر ويجعله يتشوّق الى مكانته حتى وان كان يكرهه في الأصل . فالصوفي صديق كل واحد من الناس وعندما " قيل لصوفي : صف لنا الصديق . قال : هو الذي اذا عرض لك بالمكروه ، صرّحت أنت له بالمحبوب ، واذا صرّح لك بالمحبوب ساعدته عليه " (٢٢)

ويرى التوحيدي أن للصداقة ضروباً في عالم الناس الواقعي ، وتختلف هذه الضروب بالطبع عن نموذج الأخوة الأساسي الذي يحضُّ عليه الأصول الدينية (أي القرآن الكريم والحديث الشريف) . وينشأ هذا التباين بين النموذج والتطبيق بسبب اختلاف طبائع الناس وتباين احترامهم للمبادئ الخلقية . ومن الواضح أن

---

١٩. صحيح البخاري ، ضبط د. مصطفى ديب البغا ، دار القلم ، دمشق وبيروت ، ١٩٨١ ، جـ ١ ، ص ١٤ .
٢٠. البصائر ، ج ٣ (٢) ، ص ٦٢٤ .
٢١. الصداقة ، ص ٩٦ .
٢٢. الصداقة ، ص ٩٤ . المحبوب في هذا السياق هو الحق سبحانه وتعالى. و" ساعدته عليه " أي ساعدته على سلوك الطريق الى الحق تعالى .

أكثرهم يستصعب الامتثال لقيم الايثار والتضحية وفي هذا النطاق يقول التوحيدي " ومن الاخوان كالجوهر ، منه مموّه مصنوع ، وبعضه خالص مطبوع " لذلك كان سبرُ غَوْر الاصدقاء واختبارهم ضرورياً . أما " المموه الظاهر " ، فهو الذي يفتقر الى الإخلاص والوفاء فحاله كحال " الفرع الذي ليس له أصل " ومن الأصدقاء من يحافظ على ذمام الصحبة ، حتى في حالة انقطاع المودة ، فلا ينتهك حرمة الصديق ، ولا يفشي أسراره مثلاً بعد القطيعة ، ومثل هذا الصديق كمثل " الفرع البائن من أصله ... وأما الأصل المتصل بفرعه " (٢٣)، فهو الذي يُبْقي الود متصلا ويقوم بما يجب عليه تجاه أخيه . ذلك أن طبيعة الصديق في الاصل لها صفة العطاء التي تتفرع عنها المحبة .

يشير التوحيدي الى التكثير من الاصدقاء بغية توسيع دائرة الاخوة، وذلك لغرض المساعفة والمساعدة . ومع أن الصداقة عنده قيمة انسانية نافعة ولا زمة لتأكيد الاخوة بين البشر الا أن أهميتها لاتختص بعدد الاصدقاء ، وانما تتمحور حول الاخوة الخالصة من الشوائب (٢٤). فالحدّ من عدد الاصدقاء قدر الامكان أفضل، فقليلهم نافع ، في حين أن كثيرهم مهلك . ذلك أن الاصدقاء على سبيل المماثلة " بمنزلة النار : قليلها متاع ، وكثيرها بوار " (٢٥) . اذن يهتم التوحيدي بالكيف بل يجعله شرطا من شروط الأخاء اذا لمس المرء في أخيه " الدين والوفاء" وينصح القارىء " أن يقتصد في المؤاخاة ، ويقتصر من العِدَة على من تفي طاقته بما يجب لهم ، فان حقوقهم - اذا زادت على وسعه - لحقته الاضاعة لبعضها ، وجنت الاضاعة عليه العداوة ممن أضاع حقه ، ولذلك قيل : كثرة الاعداء من كثرة الأصدقاء " (٢٦) . وهذا موقف عملي لايتعارض بالضرورة مع نظرة التوحيدي

٢٣. الصداقة ، ص٤٥٧ - ٤٥٨ .

٢٤. انظر الصداقة ، ص ٣٢ .

٢٥. الصداقة ، ص ٣٤ ، البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٦٣٩ .

٢٦. الصداقة ، ص ٤٠٣. يتفق مسكويه مع أبي حيان في أن كثرة الاصدقاء عبء على الصديق، وهو يخشى التقصير في حقوقهم أيضا : انظر تهذيب الاخلاق ، ص ١٦٠، أما الغزالي فينظر الى الاستكثار من الاصدقاء من زاوية المنفعة الدنيوية ، ومن زاوية المنفعة الاخروية . ويروى عن جماعة السلف أنها قد حثّت على الصحبة والألفة والمخالطة، وكرهوا العزلة والانفراد. لما للاصحاب المؤمنين الصالحين من كرامة الشفاعة من فضل الله:" استكثروا من الاخوان، فان لكل مؤمن شفاعة ، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك". احياء علوم الدين، ج ٢، ص ١٧١. على أن الماوردي ينصح بعدم الاستكثار من الاصدقاء ، لان الغاية هي" تكثير العدّة لا تكثير العدد ، وتحصيل النفع لاتحصيل الجمع" . أدب الدنيا والدين ، ص ١٥٦ .

المثالية في الصداقة . فاذا رام المرء الاقتراب من النموذج الاسمى للصداقة ، صَعُبَ عليه أن يوسع دائرة أصدقائه ، وأن يفي حقوقهم في نفس الوقت ، خاصةً إذا أخذ بعين الاعتبار أن وقته وفعالياته الحيويّة لاتسمح له بهذا التكريس من ناحية عملية . فالنموذج المثالي في الصداقة ، يفرض في هذه الحالة ، الاهتمام بنوعية الصداقة بغض النظر عن كثرة الاصدقاء أو قلتهم.(٢٧)

تتضح بعض حقوق الصديق في تفقد أحواله المعنوية والمادية . والتزام الصديق بمبادئ الصداقة هو ما يميزه عن الأعداء أو حتى عن معارفه . ولايفترض في الصديق أن يبتعد عن صديقه في وقت المحن والمصائب ويضن على صديقه بالمعونة اللازمة ،" فلو كان الصديق اذا نزلت به نائبة ، أو نالته نكبة ، أو نبا به الدهر نبْوةً استوى عدوّه وصديقه في الجفاء به ، والاحتراس من خلطته وعشرته وترك معونته على دهره ، لكان اسم الصديق مُعَلّقاً على غير معنى ، ولكانت حرمة مودته واعتقاد اخائه في أيام الرخاء وزمانه ضياعا لا حظ فيه "(٢٨). واذا ما صار الصديق الى صديقه في حاجة ، فعليه أن يكون " أشد مسارعة الى قضائها "(٢٩) منه . فحاجة الصديق للصديق لا تقتصر على الترويح عن النفس والانس وغيرهما ، وانما هناك حاجة مادية أهمها نَجْدةُ الصديق ومساعدته ببذْل المجهود الجسماني حين يحتاج الى مساعدة تتطلب عملا عضليا(٣٠). وعلى الصديق أن يقدم لرفيقه المعونة المالية أيضا في وقت حاجته الى ذلك . ومنح المال للصديق اذا وقع في أزمة ، يُعتبر حقاً له على أخيه ذي الفضل في المال ، ثم إن " مواساة الأخ من مالِك "(٣١) هي من المبادئ الاسلامية ويجعل بعض الاشخاص هذه المساعدة المعيار الاساسي الذي يعرف به الصديق .

---

٢٧. يروى أن جعفر بن يحيى سأل بعض ندمائه " كم لك من صديق ؟ قال : صديقان قال : انك لمثرٍ من الأصدقاء " . الصداقة ، ص ٩٣ .

٢٨. الصداقة ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

٢٩. الصداقة ، ص ٧١ ، ٢٤١ .

٣٠. انظر الصداقة ، ص ٣٧٤ .

٣١. هذه العبارة جزء من حديث شريف هو " اشد الاعمال ثلاثة : انصاف الناس من نفسك ، ومواساة الاخ من مالك ، وشكر الله تعالى على كل حال " . الامتاع ، ج ٢ ، ل / ٢٣ ، ص ٩٢ .

ولقد أوضح التوحيدي ، أن بعض الناس يتنكرون لأعز أصدقائهم اذا ما لجأ اليهم طالبا العون منهم و" اخوان السوء يتفرقون عند النكبة ويقبلون عند النعمة"(٣٢). ولايكفي أن يسارع الصديق الى نَجْدة صديقه حين يطلبه ، بل إن عليه أن يتفقده مُجنباً اياه مذلة السؤال . ويعرّف بعض الصوفية السخاء بأنه " المبادرة الى العطية قبل السؤال "(٣٣). وقال بشر الحافي وهو من اكابرهم ، " شاطر سخي أحب الى من قارئ لئيم "(٣٤). ولقد اعجب التوحيدي بمواقف صوفية تعطي الأولوية للايثار وانصاف الاخرين وقضاء حقوقهم بدون الامتنان عليهم." لذلك نجده يعرف الصديق احيانا بقوله : هو " " من قدر أن ينسى ماله ويقضي ما عليه "(٣٥).وهذه النظرة تفترض الكرم في احد قطبي الصداقة وعفة النفس من الاخر ، فالكرم صفة تتخطى حقوق الصديق وواجباته . ان المشاركة في العسر واليسر ، على أية حال ، هي سمة الصداقة التي تبلغ شأوا عاليا في الاخوة ، " قال محمد بن علي ابن الحسن الباقر رضي الله عنهم لاصحابه : أيدخلُ أحدَكم يده في كمّ صاحبه ، فيأخذ حاجته من الدراهم والدنانير؟ قالوا : لا، قال : فلستم اذن باخوان "(٣٦).

يعرض التوحيدي مقولة افلاطون في ضرورة التكافؤ في مكاسب الأصدقاء حتى لايتطرق الحسد الى نفوس بعضهم . فالمساواة الاجتماعية قد تكون عند بعض الناس شرطاً ضرورياً في الصداقة ، في حين أن اختلاف المستوى عند كثير من الناس قد يهدم أسس الصداقة ويجعل امكانية استمرارها واهية ، وينمي عنصر الترفع والتفاخر لدى الاثر غنى(٣٧). ان أباحيان ، من ناحية أخرى ، لايحبّذ تساوي الصديقين في المرتبة ، لان هذا يتعارض مع إعزاز الصديق لصديقه واخلاصه له . فالصديق المثالي هو الذي يضع نفسه في مرتبة أدنى من صاحبه ، ويؤثره على نفسه(٣٨) ،

---

٣٢. الصداقة ، ص ٣٥٧ ، انظر ص ٣٥٣ ، ٥٣ .

٣٣. أبو عبد الرحمن السلمي ، المقدمة في التصوف وحقيقته ، تحقيق د. حسين أمين ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٤٤ .

٣٤. أبو عبد الرحمن السلمي ، طبقات الصوفية ، تحقيق نور الدين شريبة ، جماعة الازهر للنشر والتأليف ، ط ١ ، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣م ، ص ٤٥ .

٣٥. الصداقة ، ص ٣٤٨ .

٣٦. الصداقة ، ص ٢٧ ، قارن ص ١١٠ ، ثم قارن البصائر ، ج ٣ (٢) ، ص ٦٦٢ .

٣٧. " وقال أفلاطون : لاينبغي للعاقل أن يتمنى لصديقه الغني ، فيزهي عليه ، ولكن يتمنى له أن يساويه في المال " الصداقة ، ص ٢٤٢ ، ص ١١٠، قارن أيضا ص ٤٢٨ .

٣٨. انظر الصداقة ، ص ٣٣ ، ٤٤ .

وبهذا المعنى يضع الصاحب امكاناته تحت تصرف صاحبه • ولاينتبه التوحيدي الى أن مثل هذا الوضع قد يكون ضربا من التقييد " للصديق التابع " • ومن المدهش حقا أن يعتبر هذا الاسترقاق أو التكريس واجبًا يؤديه الصديه المثالي لصديقه،(٣٩) ثم انه يعتبر تملك الصديق للاخر منّةً وفضلاً يمنحها له ، لان نعمة الأنس والصفاء والسكن قيمة تفوق تضحية الواحد منهما بحريته • فالصداقة تبدو في هذا المستوى طواعية الصديق لصديقه الى درجة أن يمتلك أحدهما الآخر • لكن تملك الصديق لصديقه يبدو نيراً شديد الوطأة اختاره أحدهما وقدم نفسه مملوكا لصاحبه عن رضا ، فيجد الراحة والطمأنينة في ذلك • ويبدو هذا القيد من جهة أخرى قابلا للانكسار ، لكن بعض الناس يقنعون به ويتصالحون معه بوصفه قدرا محتوما (٤٠)، لا خلاص لهم منه ، فيرون أن فقدانهم لحريتهم أهون من خسارتهم للصديق • والاسترقاق بهذا المعنى قد يكون التزام الصديق بصديقه في كل شيء، فيتحمل ازاءه مسئولية كاملة (٤١).

ويلح التوحيدي على هذا الإيثار لدرجة أنه يبدو وكأنه لايرى للصداقة معنى بغير مفهوم التملك • ويقول إن مَنْ " لم يملك صديقه كلّه ، فيما يمثّله له ، ولم ينقد لبيانه فيما يريغه اليه ويطلعه عليه ••• فقد خسر حظه في العاجل ، ولعلّه أيضا يخسر حظه في الآجل ".(٤٢) ويتضمن هذا الموقف أنّ الصديق لايكون منافساً في المستوى لصديقه ، ولا مانع من أن يرى صديقه في منزلة أعلى منه • لان التفكير في التساوي قد يورث الطمع والتنافس والحسد بخصوص فَرْق المكاسب والمكانة الاجتماعية • ويرى بعض المفكرين أن التنافس يكون شريفاً حين لايشوبه تفضيل الانسان لنفسه واستهانته بغيره • ومع ذلك فان التوحيدي يرى أنه " متى سقط التنافس وقع التوانس ••• وذهب القبيح ••• ونبت الحسن ".(٤٣)

ويناقش التوحيدي ضرباً آخر من ضروب التضحية في مجال الصداقة يندرج تحت مفهوم الايثار ويبلغ حد تقديم حظ الصديق على حظ نفسه (٤٤)، والتضحية بالمال

٣٩• انظر الصداقة ، ص٤٠٤ ، ٤٤٩ ، ثم قارن ، ص٤٦٧ •
٤٠• انظر الصداقة ، ص٦٥ ، ٧٣ •
٤١• انظر الصداقة ، ص١٦٥ ـ ١٦٦ •
٤٢• الامتاع ، ج ١ ، ص ١ •
٤٣• البصائر ، ج ١ ، ص٥٥٥ •
٤٤• انظر الصداقة ، ص٣٠٨ •

أو المنصب من أجله • وقد تصغر التضحية عن ذلك وقد تكبر ، ومهما صغرت فانها تبقى تخلياً عن امتيازات أو ايثاراً للآخر وتأكيداً لمصلحة يقدمها المرء على وجه العلاقة الحميمة • وثمة تضحيات جليلة ترويها الأخبار وكتب الأدب ومن شأنها أن تجعل التضحيات الصغيرة ، مثل تفضيل الغير على النفس في شغل وظيفة ، أمراً ممكناً مقبولاً • إنّ الصديق وصديقه شخصان في ذات واحدة • وعلى هذا فمن الممكن أن يضحي الصديق بنفسه من أجل انقاذ حياة صديقه ، اذا ما تعرض لخطر الموت(٤٥).

يقترب هذا الموقف حول الإيثار من مفهوم الفتوة الصوفي • فالفتوة عند المتصوفة تشتمل على معان أبرزها" تقديم حظ الآخر على حظ النفس في كل شيء"(٤٦) . والفتوة مرتبة روحية خُلقية تكرس بعداً اجتماعيا يتصف بالمروءة ونكران الذات والايثار • فهي تحرير الذات وتجاوز مطالبها الى تحقيق حاجات الآخرين (٤٧).وربط التوحيدي الصداقة الخالصة بالمروءة والفتوة ، ويرى أن الفتوة ، بوصفها محور الأخلاق السامية ، تستند الى الدين •"وكيف تصح الفتوة اذا خالفها الدين ؟ وكيف يستقر الدين اذا فارقته الفتوة ؟ الدين تكليف من الله تعالى ، والفتوة أخلاق بين الناس ، ولا خُلق الا ما هذّبه الدين ، ولا دين الا ما هذّبه الخلق " (٤٨). فالفتوة أعم من المروءة واجتماعهما من الكمال الأخلاقي وهي " اظهار الجدّة والطراوة في كل حال مباشرة ••• ومن أجل ذلك سمي الفتى فتياً ، ولأن الكرم والمجد والجود والعفة والنجدة وكبر النفس وعلو الهمة وسائر خصال النفس والخير غضّة في كل زمان ، طرية في أي مكان ، كان الظاهر بها ، والمُظهر لها والمُؤثِر لأحكامها ، والمجدّد لرسومها ، فتى وصاحب فتّوة"(٤٩).

٤٥• انظر الصداقة ، ص٣٤٥ • قارن ابو العلاء عفيفي ، التصوف ـ الثورة الروحية في الاسلام ، ص٢٣٢ ••

٤٦• انظر عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥ هـ) ، الرسالة القشيرية ، مكتبة محمد علي صبيح ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص١٠٣ ـ ١٠٥ •

٤٧• انظر د• اديب نايف ذياب ، جدل الأضداد ، دراسات ، الجامعة الاردنية ، مجلد١٠ ، عدد ٤ ، (عمان)، نيسان ، ١٩٨٦ ، ص٢٠١ ـ ٢٠٢ ، ٢٠٦ ـ ٢١٠ • قارن
Erich Fromm, To have or to be? Abacus, Cox and Wymen Ltd, London, 1979. pp. 88-89, 92-93.

٤٨• الصداقة ، ص٥٨ •

٤٩• المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص٤٥٨ • قارن
Annemarie Schimme, Mystical Dimensions of Islam, The Univ. of North Car. press, Chapel Hill, pp. 246-247.

وهناك مأثورات نقلت عن حكماء العرب بخصوص الصورة المثالية للصديق ، والتوحيدى يلح عليها . ان الصديق الحق ، فيما يرى ، هو الذى يتجسد الايثار في سلوكه وتتمثل في شخصه القيم الخلقية الانسانية ، وتتشخص فيه مقومات الصداقة فيتصف بفضائلها العليا . فهو " كالخير ، وازن العلم ، واسع العلم ، اذا حودث لم يكذب ... أخ كريم الاخوة ، كامل المروءة ، اذا غبت خلفك ، واذا حضرت كنفك ، واذا نَكِرْتَ عَرَفك ، واذا جَفَوت لاطفك ، واذا برزت كافأك ، واذا لقي صديقك استزاده لك ، وان لقي عدوك كف عنك غربَ العادية ، واذا رأيته ابتهجت " (٥٠). وهكذا يبدو الصديق ، في هذه الصورة البلاغية ، وكأنه خلق لاسعاد صديقه في صورة مثالية لانكاد نجدها بتمامها في دنيا العلاقات البشرية . فكأن الصديق هو هذه القوة المخلصة لنا ، الحالة لمعاكلنا ، الضامنة لوجودنا .

وفي النموذج المثالي يكون الصديق " ظريف المخاطبة ، عذب المواصلة ... هنيء العشرة ، مقبول الظاهر ، سليم الباطن " (٥١) وما يثير التساؤل في هذه النظرة هو وجود الصديق الخالص من العيوب والهنات . أليس من الجائز أن تكون هناك صداقة متينة العرى بين شخصين : أحدهما ينافق الناس ، ويطلب رضاهم بالسكوت على أخطائهم ، بينما ظاهره متفق مع باطنه في علاقته مع صديقه ؟ هذا ممكن ، ومع ذلك فان مسألة المساوئ تحتمل النسبية . ذلك أن الصديق عندما يكون موافقاً لمزاج صديقه ، فان محبة الثاني له قد تجعله لايرى السوء سوءاً ، وما يبدو للاخرين سيئا قد لايبدو له كذلك (٥٢).

وتبدو سجايا الصديق النموذجي العارى عن المساوئ متعارضة مع المعايير العملية التي يقبل بها الناس في واقع حياتهم . فالصديق النموذجي لايقبل أن ينصر أخاه اذا كان ظالماً لغيره بل ينصحه ويردعه ، ويأمره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر . والمعايير العملية التي تواضع عليها أكثر الناس أن الصديق هو الذى ينصر أخاه سواء أكان ظالماً أو مظلوماً . لكن المعايير المثالية والعملية

---

٥٠. الصداقة ، ص ٢٧ ، ٣٠٣ .

٥١. الصداقة ، ص ٣٦٩ .

٥٢. " فعين الرضا عن كل عيب كليلة " الصداقة ، ص ٣١٨ ، " ولي معك عينان ، احداهما مغضوضة عن كل ما ساءني منك ، والاخرى مرفوعة الى كل ماسرني فيك " ، ص ١٩٤ .

من ناحية أخرى تتفق في أن الصديق يدافع عن صديقه بالحق في غيابه اذا حاول الاخرون النيل منه أو الاساءة اليه (٥٣).

ان النظرة الواقعية لاتفترض الكمال متحققا في افراد البشر ، ولا يخلو انسان من هفوات تتكشف حين يتصرف بسوء اتجاه صديقه أو اتجاه الاخرين ، وقد يظهر من الصديق امارات تدل على نوازع الانانية . مع ذلك فان التوحيدي يفترض في أن الصديق الوفي يتفادى احراج صديقه اذا اقترف ذنبا فالصديق الحميم لايقف عند مرحلة تجاهل الذنب أو غفرانه ، بل يتعداها الى اشراك نفسه في ذنب صديقه . فلايرضى أن يقف صديقه معتذرا أمامه . ان " بئس الصديق صديق يلجئك الى الاعتذار (٥٤). ومهما يكن ، فللصداقة القيمة الاخلاقية العليا ، حتى لو شابها بعض المنغصات ، وذلك أنه " ما رأينا في كل خير وشر ، خيرا من صاحب "(٥٥).

تفترض الصداقة المثالية من ناحية منطقية أن يكون لفظ الصديق دالاً على مسماه ، لان هذا اللفظ قد " أُخِذَ من الصدق ، وهو خلاف الكذب ... انما سمي الصديق صديقا لصدقه لك " (٥٦) . وهو الذى " إذا حَدَّثَ صَدق ، واذا أؤتمن لم يخن " (٥٧)، وان وعد لم يخلف . ولكن هل يفترض في الصديق أن يتساهل في وعد قطعة ولم ينجزه لصديقه على أساس أن الصديق أولى الناس بقبول الاعْذار ، وأكثرهم أخذاً بمبدأ التسامح والمغفرة ؟ تبدو هذه المسألة نسبية ، فاذا كان الإخلاف بالوعد طبيعة في المرء يعرفها صديقه ويتقبلها منه ، فهذا أمر يرجع الى مألوف العلاقة بين الصديقين . ان القضية تتعلق بالالتزام بالوعد من حيث هو مبدأ أخلاقي ، خاصةً اذا كان لموضوع الوعد أهمية كبيرة ، فقد يضر أو ينفع الطرف الاخر . فالحفاظ على الوعد وانجازه من صفات الصديق النموذجي الذى " إن وَعَدَك لم يحرضك " (٥٨)، واذا رُفِعَ الوفاء بالوعد من الصداقة فان مفهوم الصداقة ذاتها يصبح متناقضا . " ذلك أن الصديق من صدقك عن نفسه ليكون على نور من أمرك ، ويصدقك أيضا عنك ، لتكون على مثله ، لانكما تقتسمان أحوالكما بالاخذ

٥٣. انظر الصداقة ، ص ١٩٤ ، ٣٧٤ ، ٤٧٣ .

٥٤. الصداقة ، ص ١٠٩ ، قارن ص ٣٦٤ .

٥٥. الصداقة ، ص ٢٤٦ .

٥٦. الصداقة ، ص ٩٤ ، ٣٥٧ .

٥٧. الصداقة ، ص ٣٧٤ .

٥٨. الصداقة ، ص ٢٤٩ .

والعطاء في السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، فليس لكما فرحةٌ ولا ترحة الا وانتما تحتاجان فيهما الى الصدق والانكماش والمساعدة على اجتلاب الحظ في طلب المعاش " (٥٩) .

وقد لاتتكشف حقيقة سجايا الصديق الا بعد أن يبلغ الصفاء بين الصديقين درجة من الشفافية والالفة ، بحيث يرى الواحد نفسه في الاخر ، ويتعارفان على أساس الثقة المتبادلة . فاذا تحققت هذه الثقة في الصداقة ، فانه لا معنى للتكلف والتحذلق (٦٠). وكيفما كان الامر ، فان اختيار الصديق يبقى مغامرة وعبئا ثقيلا على الانسان . وقد تكون بعض الصفات التي عرضنا لها معا يشترك فيه الصديق وغير الصديق ، لكن ما يميز الصديق عن غيره في دائرة العلاقة الانسانية هو خاصية مميزة ينفرد بها الاصدقاء دون غيرهم ، وهي صفاء المودة وأنسها ، ولا معنى للصداقة بمعزل عنها . بل ان الصديق الحقيقي هو من كان الصفاء من سماته الثابتة وهذا الصفاء مطلب ضروري لاستمرار علاقة الصداقة ، فلئن افتقده أحد الطرفين فعلى الطرف الاخر أن يبقى محتفظاً به ، كي يكون قادراً على تصفية كدر الاخر ، ومواساته والترويح عنه ، وهذا من شأنه أن يؤثر على جوانب أخرى كالانس وهو سمة مهمة في هذه العلاقة أيضا . ان حد الصديق عند بعض الادباء هو من يصفو كدرك بصفائه ، ولا يكدر صافيك بكدره " (٦١) . " واذا صفا ضمير الصديق [للصديق] ، أضاء الحق بينهما ، واشتمل الخير عليهما ، وصار كل واحد منهما ردءاً لصاحبه ، وعونا على قصده ، وسببا قويا في نيل ارادته ودرك بغيته" (٦٢).

---

٥٩. الصداقة ، ص ١٦٦ .
٦٠. الصداقة ، ص ٤٧٠ .
٦١. الصداقة ، ص ٣٠٧ .
٦٢. المقابسات ، م / ١١ ، ص ١١٤ .

الفصل السابع

عزلة التوحيدى

الاغتراب مصطلح هيجلي شاع في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ؛ وقد حمل معاني كثيرة ، طبقاً للظروف الاجتماعية والاقتصادية والأوضاع السياسية في المجتمعات الغربية . واهتم كثير من علماء الاجتماع والنفس بهذا المصطلح ، بل منهم من جعل له معاييرواستبيانات تستعمل في البحث العلمي . والاغتراب بشكل عام هو حالة " شعور الفرد بالانفصال عن الذات أو عن الآخرين أو عن العالم من حيث هو كل "(١). ولقد ناقش الباحثون الأسباب التي أدت الى اغتراب الإنسان عن الطبيعة وعن المجتمع أو حتى انسلاخه عن ذاته . وفي هذا المجال دارت مناقشات كثيرة وشغلت حيزاً مهماً في الفكر المعاصر . وتوجد مجموعة من الابحاث المعاصرة التي تلقي الضوء على هذا المفهوم من أجل تفسير معقول لأوجه الاغتراب وما يفضي اليه من مظاهر ، كالانتحار والعصيان والتمرد . وينتج بعضها من سوء التوافق مع المجتمع وعدم التكيف فيه ، أو من شعور الفرد بالعزلة الحادة ، وهذا أكثر حالات الاغتراب شيوعاً . وثمة محاولات في البحث عن إمكانيات العلاج الذي يمكن الفرد من التغلب على عزلته واغترابه (٢) .

قدمت الدراسات الحديثة نظريات تبين أسباب الاغتراب وضروبه . وهي تتعلق بواقع الإنسان في العصر الحديث في المجتمع الغربي الصناعي على وجه الخصوص .

١ . Eric and Mary Josephson, Man Alone: Alienation in Modern Society, Dell Publishing co. INC, 15th pr. 1972, New york, P. 13.

٢ . انظر : د. أحمد أبو زيد ، " الاغتراب " ، عالم الفكر ، وزارة الاعلام ، (الكويت)، مج ١٠، العدد الاول ، ١٩٧٩ ، ص ٣٨ ـ ٤٠ .

ويحاول الدارسون هنا تشخيص حالات الاغتراب في المجتمعات الغربية . وقد أشار شاخت في هذا المجال الى الغموض الذي ما زال يكتنف هذا المصطلح ، وبيّن ضرورة التدقيق في استخدامه . ذلك أن كثيرا من الكتاب قد استخدموه على نحو واسع فضفاض ، وربطوه بظواهر متعددة وأوضاع مختلفة . وقد أثيرت تساؤلات حول أشكال الاغتراب ومعاييره ، فتعددت وجهات النظر وتنوّعت الحقول التي جعلها العلماء مواضيع لتحليلاتهم . (٣)

ويعتبر بعض المفكرين تشخيص الاغتراب في عصور قديمة أغلوطة تاريخية، لكن وولتركاوفمان يرى أن من الخطأ قَصْر الاغتراب على انسان هذا العصر لأن المجتمعات القديمة قد واجهت ما يماثل الخبرات المرتبطة بهذا المصطلح ، وكانت معروفة لكثير من الفلاسفة القدماء ، مثلما كانت معروفة عن عدد من الكتّاب الأدباء في القديم (٤). وينشد المفكرون المعاصرون لدى بحثهم ظاهرة الاغتراب حلولاً للمشكلات التي تجتاح العصر ، بينما نتوخى حين نبحث عن أوجه الاغتراب في انسان عاش في مجتمع ماض أن نفهم تجربة هذا الانسان وأبعاد معاناته الشخصية . وعلى هذا الاساس ندرس في هذا الفصل وما يليه اغتراب أبي حيان التوحيدي وتحولاته ، لابرنّها الى المفهوم العصري كلية ، وانما بالاستعانة بالمجمل العام للدراسة الحديثة فحسب ، لغرض إنارة تجربة التوحيدي وتمثلها . وهذا يشبه الى حد ما استخدام دارس الآثار تقنيات حديثة في الكشف عن أسرار مخلّفات الماضي .

تكشف كثير من نصوص التوحيدي عن عُزْلته النفسية بشكل واضح ، وهو في بعض المواضع يعلن عن غربته على مختلف الاصعدة . فقد قدم تعريفا للغريب ، وحدد أوصافه ، وبيّن ضروب الغربة المختلفة التي اختبرها في حياته . واستعمل التوحيدي ، لفظ " الغربة " ليدل بها على حالة انفصاله عن مجتمعه بل انه ألمح أيضا الى صعوبة الاتصال بين الذات والاخر في الواقع الاجتماعي ، ونبّهنا الى ضروب من الغربة في التجربة الدينية ـ الروحية . ولن نتوقف كثيراً عند الأبعاد

---

٣ . انظر، Richard Shacht, Alienation, George Allen and Unwin, London, 1970, pp. 248-266.

٤ . Walter Kaufman, " The Inevitability of Alienation ", introduction to R. Shacht, Alienation, P. xiv, xiv.

التاريخية ـ الاجتماعية للحقبة التي عاشها التوحيدي ، من أجل تحليل مظاهر الاغتراب لافراد آخرين في مجتمعه (٥).

نحاول في حقيقة الأمر استكناه غربة أبي حيان التوحيدي وفحص أسبابها ونتائجها في حدود ما عرضه وأكده هو في كتاباته لنتبين خصوصية هذا المفهوم في تراثنا الفكري أيضاً (٦)، ويتنوع تعبير التوحيدي عن الغربة من حيث ألفاظه ودلالاته ، ويرجع ذلك جزئياً لفصاحته الأدبية ، وربما كان عمق تجربته هو السبب الأساسي في هذا التنوع . وثمة تفسيرات عديدة لغربة الانسان في وطنه ، أما فيما يتعلق بالتوحيدي ، فالمسألة الأساسية هي تقلبه في أحوال اجتماعية ونفسية كثيرة ، وتداخل عوامل متشابكة في اغترابه . لكن هذا لايحدونا أن نعرض كل عامل منها على أنه نمط اغترابي مختلف عن غيره ، لان من شأن هذه التفريعات المصطنعة أن تفضي الى تجزئة التجربة بألفاظ تفتقر الى التعيين والتجديد.

إنّ نموذج الاغتراب عند التوحيدي يبين صعوبة اقامة العلاقات الإجتماعية ، ومن أهمها الصداقة . وقد بيّنا في الفصول السابقة قيمة هذه العلاقة وقواعدها وأحكامها في فكرة . وحين نعالج الاغتراب نكون قد دخلنا الى الصداقة من جانبها النقيض . واذا كانت الصداقة هي صلة المودة بين اثنين أو أكثر ولها دواع كما عرفنا سابقاً ، فما هي دواعي الغربة التي تنقطع فيها المودة وسبل التواصل بين الناس ؟ أي بعبارة أدق ، ما الذي يجعل أبا حيان يصل الى هذا المستوى من العزلة ، والانطوا* على الذات ، حتى يصف وضعه فيقول : " أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنسا بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتادا للصمت ، ملازما للحيرة ، محتملا للأذى " (٧). لقد تعاضدت الشروط الموضوعية (في المجتمع) والذاتية (في نفس التوحيدي) في

---

٥ . يفصح كتاب حافظ أبي سليمان البستي الخطابي عن مأساة الاغتراب في القرن الرابع الهجري . فقد تناول " العزلة " ، وركز على مشكلة الخلاص الفردي من خلالها ، وهذا لايختلف عن وضع التوحيدي واتجاهه بخصوص العزلة ، فالبستي كان يرى شيوع الفساد في المجتمع ، لكنه لم ينكر امكانية الخير ، خلافاً للتوحيدي فيما يبدو . أنظر كتاب البستي ، العزلة ، تحقيق د. عبدالغفار سليمان البنداري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٦ . انظر د . محمود رجب ، الاغتراب ، كلية الاداب ـ جامعة عين شمس ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، جلال رمزي وشركاه ، ص ١٧٥ ـ ١٨١ .

٧ . الصداقة ، ص ٩ .

تشكيل تجربة الغربة التي عانى منها • ولكي نفهم هذه التجربة لابد لنا من النظر إليها على نحو جَدَلي يمزج بين الذاتي والاجتماعي ولا يفصل بينهما •

تتضمن الشروط الموضوعية جملة الظروف الاجتماعية التي يعايشها " الغريب " في الواقع ، ويعاني منها • وقد اكتشف الباحثون أن القرن الرابع الهجري قد اتسم بالفتن والانقسامات السياسية ، والفوضى التي أحدثها الصراع بين أصحاب السلطة والطامعين بها • وفي المستوى الاجتماعي ، عمّ الفساد سائر البلاد الاسلامية • وصاحَبَ هذا الاضطراب انهيارٌ في الأوضاع الاقتصادية ، فانتشر الفقر وظهر الخلل في توزيع الخيرات العامة ، وبدا استئثار قلة من المتسلطين على موارد الدولة (٨) في هذا العصر •

ويبدو من مجمل نظرات التوحيدي الخاصة في موضوع غربته أن بيئته الاجتماعية والملابسات التي كابد بسببها ، هي سبب اغترابه • ويصرّح في هذا الصدد أن مطامحه الشخصية التي لم يتحقق منها الا النزر اليسير هي سبب ثانٍ لهذه الغربة • لكنه يلح على أثر أفعال الآخرين ، ومواقفهم في تشكيل مأساته الشخصية • فقد رأى التوحيدي أن الفساد يعمّ المجتمع من قمته حتى قاعدته ، فكشف عن مخازي بعض الساسة بطريقة ساخرة ، ووثقها من حيث الرواية وسجل الأحداث والمواقف نقلاً عن أشياخ العصر وأعلامه (٩) • ولقد عزا أسباب الفوضى في كل المستويات الاجتماعية الى غياب القائد المخلص الحازم (١٠)، وفقدان أهل التقى والورع ، وقبول الناس بالعداوة والظلم بدلا من الصداقة والعدل (١١).

وكيفما قلّبنا النظر في الجوانب الاجتماعية في القرن الرابع فاننا نجد للتوحيدي سنداً فيما يذهب اليه من شيوع الفساد في عالمه،وتعضد أشعار المتنبي والمعري ما ذهب اليه التوحيدي من فساد شائع في ذلك العصر • وهذا يبرّر الى حد كبير العزلة التي انتهجها التوحيدي في أواخر حياته حتى وصل الى مرحلة اليأس •

٨ • انظر الامتاع ، ج ٣ ، ل / ٣٨ ، ص ١٥٠ – ١٦٢ ، قارن أبا الحسن بن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الترجمة الفرنسية ، باربيه دمنيار ، وباوة دكورتل ، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان ، ط ٢ ، ١٩٧٠ ، طهران – ايران ، ص ٧٢ – ٧٣ •

٩ • انظر المثالب ، ص ٥٤ – ٥٥ ، انظر ص ٧٤ – ٨٧ •

١٠• انظر المقابسات ، ص ٥٤ •

١١• انظر الصداقة ، ص ٣٤٠ ، البصائر ، ج ٤ ، ص ٩ – ١٠ ، ١٤ – ١٥ •

ومن فساد العصر أن يتحول غالبية الناس الى فقراء محرومين ولأن التوحيدي كان من هذه الفئة فقد شغلته قضية الفقر التي كابد منها كثيراً ، وهي بالتأكيد من العوامل المهمة التي أدت دورها في اغترابه . لقد صيّر الفقر شباب أبي حيان " هرماً " (١٢). أدرك أن لاقيمة للفقير بين الناس ، فهو مذموم مدحور ، فالكل يعتبر أن الفقر " مذهبة للعلم والأدب ، معدن للتهم ، جامع للمكاره ، لأن صاحبه لايجد بُداً من إطراح الحياء " (١٣) وهو أحد " قواصم الظهر " (١٤) الأربع ، ولا صديق للفقير (١٥). بل ان كل معسر في نظر التوحيدي غريب (١٦).

لم تسكن نفس التوحيدي ازاء حرمانه وحاجته ، بل انه ظل يلح على هذا الموضوع . ولقد صور شقاءه في ثنايا كثير من رسائله ، الا أن الرسالة التي كتبها للشيخ أبي الوفاء المهندس ، كانت عبارة عن استجداء واضح اعترف فيها بفاقته الشديدة وعوزه ، وانسداد الأبواب في وجهه وتنكر الناس له . لقد استغاث الشيخ فيها وبين استعداده للعمل في أي موقع " خلصّني أيها الرجل من التكفف ، أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضرّ ... الى متى الكُسَيْرة اليابسة ... أغثني فانني ملهوف ... قد أذلني السفر من بلد الى بلد ، وخذلني الوقوف على باب باب ، وتَنكّرني العارفُ بي ، وتباعد عني القريب منّي " (١٧).

ويتضح من هذه الرسالة وغيرها أن أصدقاء أبي حيان ومعارفه كانوا قد خذلوه في وقت الشدّة ، وهو الذي عوّل على الصداقة كثيراً . لقد خاض تجربة الاستعانة بالأصدقاء والمعارف ، ونقل تجارب الآخرين المشابهة لتجربته والمباينة لها ، وتتبع مشكلة احتياج الصديق لصديقه في أبعادها المختلفة ، واعتبر مؤازرة الصديق لصديقه المحك الحقيقي في الصداقة (١٨). ولايعني تركيز التوحيدي

---

١٢. المثالب ، ص ٣٢٧ .
١٣. البصائر ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، انظر ج ٢ (١) ، ص ١٢٩ ، ج ٣ (٢) ، ص ٣٣٤ .
١٤. البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٣٧٢ .
١٥. انظر الصداقة ، ص ٣٤٨
١٦. انظر ، الامتاع ، ج ٢ ، ل / ٢٦ ، ص ١٥١ .
١٧. الامتاع ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
١٨. انظر الصداقة ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ، الفصل الرابع من هذه الاطروحة ص ٥٦ - ٥٧ والفصل السادس ، ص ٨٥ - ٨٦ .

على هذه النقطة أنه كان ينظر الى الصداقة نظرة نفعية بحتة . الحق أنه استنكر استغلال التعاون بين الأصدقاء ، ونبه الى أثره السلبي على علاقة الاخوة والمودة [١٩]. فهو اذن لم ينظر الى الصداقة من حيث هي وسيلة ، بل غاية في حد ذاتها ، ولقد كان أخوف ما يكون من أن يضطر الى اللجوء الى صاحب يمده بالعون اللازم . فكان يدعو الله أن يكفيه " مؤونة أخ يرصد سكوننا اليه ، ويذكر موثوقا به ، ويحبس معتمدا عليه " [٢٠].

وربما بالغ التوحيدي في التعبير عن حرمانه وفقره ، فقد وصفه أحد الفلاسفة ممن سمعوا شكواه ، بأنه " قليل الملك كثير الرزق " [٢١] . لكن أبا حيان ، فيما يبدو ، لم يقتنع بهذه المفارقة ، فأخذ يتأمل في أسرار الرزق والملكية ، فيقول " أما الرزق فهو وصول حاجات الحيّ اليه بما هو حي... فأما مِلْك الشيء فهو التفرد بنفاذ الحكم فيه " [٢٢] . وأشار في نصوص كثيرة الى حكمة الله في تقسيم الأرزاق بين العباد ، وقد وضّح قيمة العمل ، وعفة النفس ، وضرورة السعي في طلب الرزق . لكن هذه الأمور مجتمعة ليست الشروط التي متى توفرت توفر الرزق بالضرورة . فأسباب الرزق منوطة بالله عز وجل ، ونصيب كل امرئ منه محدود ، مهما تكن درجة كدّه وكدحه [٢٣]، وان " الكدح لا يأتي بغير ما في اللوّح " [٢٤]. لقد جهد أبو حيان كثيرا للحصول على دخل يكفيه ذل السؤال ، الا أن الفقر كشف ستره ، وأنضب ماء وجهه فقاسى منه [٢٥] ويصف لنا هذه المكابدة بلهجة اعترافية مؤثرة ؛ يقول : " ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة في أوقات كثيرة الى أكل الخضر في الصحراء ، والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين والمروءة ، والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق،... واراقة ماء الوجه ، وكدّ البدن ، وتجرّع الأسى ، ... والى ما لايحْسُنُ بالحرّ أن يرسمَه بالقلم " [٢٦].

---

١٩. انظر الصداقة ، ص ٦٥ ، ١١١ ، ٣٢٦ .
٢٠. البصائر ، ج ٢ ، ص هـ .
٢١. الهوامل ، س / ٣٩ ، ص ١١٥ .
٢٢. الهوامل ، س / ٣٤ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٧ .
٢٣. انظر البصائر ، ج ٤ ، ص ٢١٦ ، ج ٣(٢) ، ص ٣٣٦ ، ٦٥٢ .
٢٤. الامتاع ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ .
٢٥. انظر ، المثالب ، ص ٢٦ .
٢٦. الرسالة ، ص ١٩ .

قدّم التوحيدي صورة واضحة عن واقعه المؤسف ، تمثلت في تجاهل مجتمعه له ، رغم فضله في مجال الادب والعلم . ولقد ذكر فيها تغافل الحكام عن تكريمه ومكافأته ، فلم يعترفوا به أديباً بارزاً ، ولم ينصفوه في المكافأة لقاء الوظائف التي شغلها . وكان أبو حيان يرى أنه لابد لكل مفكر أو أديب من راع يشجعه ، ويتعهّد نفقاته اللازمة ، فلا ينشغل بتحصيلها ، " ولا بد من فتى يعين على الدهر ، ويغني عن كرام الناس فضلا عن لئامهم ..." (٢٧) وغني عن البيان ، أن أبا حيان لم يخرج عن التقليد المتبع في عصره ، في طرق أبواب الرؤساء والوزراء ليحظى بعطاياهم (٢٨). ولقد اعتبر " حرمان الفاضل وادراك الناقص ... ملكة المسائل " (٢٩) فأنهكته هذه المسألة وضيّقت عليه الخناق ، وكثيراً ما اضطر الى أن يرجو الناس أن يفهموه وينصفوه (٣٠).

ويمثّل نقد التوحيدي للطبقة الحاكمة ولمجتمعه المضطرب مرحلة الانتماء ، والمشاركة في الاحداث ووعيه لها . إن نمط تفاعله مع الاحداث وحالات الشعور المتعاقبة في نفسه ، مؤشرات توضّح وضعه الاغترابي من ناحية ، وتنم عن أثر الشروط الموضوعية والذاتية في ذلك من ناحية أخرى . وظهرت أمارات اغتراب أبي حيان في نتاجه شكلاً وموضوعاً، ففيما يتعلق بشكل مؤلفاته وصياغتها ، فان تشتت المواضيع التي يعالجها في الصفحة الواحدة أو الفصل الواحد ، فضلا عن اضطراب تصنيفاته يرجع في مجمله الى أزمته النفسية الحادة ، وتشوش فكره من جراء الظروف العصيبة التي مر بها .

---

٢٧. الامتاع ، ج ١ ، ص ١٣ ، انظر ، وداد القاضي ،"علاقة المفكر بالسلطان السياسي في فكر أبي حيان التوحيدي" ، دراسات عربية واسلامية ، الجامعة الامريكية ، ط ١ ، ١٩٨١ ، ص ٢٣٤ .

٢٨. انظر د. زكريا ابراهيم ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٧٦ - ٧٨ ، قارن محمد توفيق حسين ، مقدمة المقابسات لابي حيان التوحيدي ، ص ٩ .

٢٩. الهوامل ، م / ٨٨ ، ص ٢١٢ ، ناقش د . احسان عباس " مشكلة ذوي الفضل في العالم الاسلامي " ، انظر أبو حيان التوحيدي ، ص ١٢٧ .

٣٠. انظر البصائر ، ج ١ ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

لقد شغفه البحث والتنقيب في الأدب والعلم ، ونقل ما رآه مناسباً منهما من غير إطار منظّم . وردّ الاضطراب في مؤلفاته والابهام الذي يغشاها الى الانشغال بالشروط الأساسية التي تقيم أود حياته ، " ومن أين يظفر بالغداء من كان عاجزاً عن الحاجة ؟ وبالعشاء من كان قاصراً عن الكفاية ؟ وكيف يحتال في حصول طمريـن للستر لا للتجمل ؟ "(٣١) . ويطلب من القارئ أن يقبل عذره في أكثر من موضع ، فهو يقول إنه كان ينوي أن ينظم " كل شيء الى شكله وردّه الى بابه "(٣٢). لكن تشتت باله و" جناية الدهر في فقد حبيب تقرّ العين به ، وصلاح حال تسكن النفس اليه " (٣٣). حالَتْ كلها دون ذلك . ويخاطب قارئ المقابسات مثلاً فيقـول : " واستيقن أني نقلت هذا الكتاب ، والدنيا في عيني مسودة ، وأبواب الخير دوني منسدة لثقل المؤونة ، وقلة المعونة وفقد المؤنس ، واعتثار القدم بعد القدم ، وانتثار الحال بعد الحال ، هذا مع ضعف الركن واشتعال الشيب "(٣٤).

وكذلك لم يسلم مضمون انتاجه أيضا من أثر الاضطراب في نفسه ، فقد شخصت بعض مؤلفاته أزمة الاغتراب والمعاناة الشخصية . فيستهل حديثه في الصداقة والصديق مثلا بدعاء يسأل الله فيه أن يقيل عثرته ويغنيه عن سؤال الناس ويرزقه " الألفة التي بها تصلح القلوب "(٣٥). وهو يقدم أسس الصداقة ومقوماتها الـى أن يستوفي شروط نموذج الصداقة المثالي ، ثم يصرح بعزلته عن الناس فينفـي وجودا تصال بينه وبين أي صديق ، بل يذهب إلى أنّ هذا الاتصال على الوجـه الانساني الأصيل متعذر . يقول : " وقبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لاصديق ولا من يتشبه بالصديق ... واذا أردت الحق علمت أن الصداقة والألفة والأخوة والمـودة والرعاية ... قد نُبِذَتْ نبذاً ... ووُطِئت بالأقدام ولُويت دونها الشفاه "(٣٦). فالأصدقاء لايسترون العيب ولا يبذلون العون ، فقد كسدت بضاعة الوفاء ، " وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ... والفرج معدوم "(٣٧) . ذلك أن الشـر

---

٣١. الصداقة ، ص ٧ .
٣٢. المقابسات ، م / ٨٩ ، ص ٣٢٩ .
٣٣. البصائر ، ج ١ ، ص ٦٠ ، انظر المثالب ، ص ٣٠٣ .
٣٤. البصائر ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .
٣٥. الصداقة ، ص ١ . حول تاريخ مقدمة وخاتمة الصداقة وعلاقاتها بـ الرسالة ، قارن عبد الرزاق محي الدين ، أبوحيان التوحيدي سيرته وآثاره ، ص ١٩٩ - ٢٠٣ .
٣٦. الصداقة ، ص ١٠ - ١١ ، ٦٠ ، قارن ص ١٠١ ، ٩٣ ، ١٦٤ .
٣٧. الصداقة ، ص ٢ .

مُقْبل ، والخير مُدْبر . بل ان التوحيدي ليرى أن الخير قد اجتثّ من العالم (٣٨) ، ويبلغ به اليأس حداً يجعله يعتقد أنه ما عاد أحدٌ يزكّي صديقاً ، وإنْ وجد من يفعل ذلك ، فهو انسان فريد بالكاد يعثر عليه . " فأما الذى قال في أصدقائه الخير ، وأثنى عليهم الجميل ... ودلّ على محبته لهم ، فغريب" (٣٩). لا جرم أن أبا حيان قد أكدّ في كتاب الصداقة والصديق قيمة التضافر الاجتماعي ، وأثره على العلاقات الانسانية في المجتمع ، وألحّ فيه على أهمية أنس الانسان بالانسان ضمن الوحدة الاجتماعية . وبالامكان اعتبار هذا الكتاب من ناحية أخرى محاولة للتخفيف من حدة الشعور بالاغتراب .

ويعبر التوحيدي في مثالب الوزيرين عن إدانة صريحة لممثلي السلطة الحاكمة ، يبين فيه فسادها ، وبُعْدها عن الشعب ومشاكله . وهذا يمثل وعي المثقف بأزمة الأمة ازاء الحكام السادرين في غيهم . وفي كتاب الهوامل والشوامل يُبْدي دهشته من قضايا شتى . فيناقش مشكلات اجتماعية وأخلاقية وغيرها . وما كان الناس في عصره يتعرضون لمثل هذه المشكلات بسبب إلفهم لها مثلاً . أما التوحيدي فقد واجهها وتساءل حول طبيعتها وأسبابها . وأغلب الظن أنه لم يكن ليلاحظها لو لم تكن هناك مسافة نفسية تفصل بينه وبين اتجاهات مجتمعه ، فهو يرى مواقف الناس الاجتماعية من خارج ، رغم أنه يعيش في المجتمع . وربما كانت تأملاته في هذا الصدد محاولة منه للتغلب على احساسه بالغربة (٤٠).

ويصوّر التوحيدي في كتاب الامتاع والمؤانسة جوانب من الحياة الثقافية والاجتماعية في ذلك العصر . ويستذكر في بعض سياقات " ليالي " هذا الكتاب التوجهات السائدة في عصره . ويطالب بالعودة الى الكتاب والسنة لاصلاح السلطة والمجتمع . أما كتاب الاشارات الالهية فهو يجيش بعاطفة دينية سامية تنم عن

---

٣٨. انظر الصداقة ، ص ٧ - ٨ ؛ أيضا الاشارات ، ص ٢٢٢ .
٣٩. الصداقة ، ص ١٥ . أشار التوحيدي الى الصديق في أحد اقتباساته فقال : هو " شهوة خفيفة لاتوجد أبدا " البصائر ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .
٤٠. يقول كاوفمان أن بعد المرء عن الوضع الذى يود فهمه لايعني بالضرورة أن يكون المرء مغربا عن الاخرين انما قد يتضمن هذا الموقف غربة داخلية للذات ترفض فيها الاخلاق السائدة في المجتمع . انظر
Walter Kaufman, " Thr Inevitability of Alienation", Alienation by Schacht pp. xxiv - xxvii

غربة مفكرنا وتوجهه الصوفي . وقد بيّن في هذا الكتاب منهج السلوك والتدرج في مجاهدة النفس وتأملها ، وتطهير القلب من الأهواء والرغبات الحسية للوصول الى إشراق المعرفة بالله .

حاول التوحيدي في الرسالة التي كتبها الى القاضي تبرير إحراقه لكتبه ، وهنا يقدم أقوى المؤشرات على مظاهر اغترابه . اعتذر للقاضي عن فعلته هذه فبين أن المرض قد ثقل عليه واستحكمت فيه الفاقة . فوصل الى حالة نفسية لا تطاق لانه فقد الأمل" في حياة لذيذة ؟ أو رجاء لحال جديدة ... ومَلَكَ الوسواسُ ، وغَلَبَ اليأسُ من جميع الناس" (٤١).

لقد كانت حادثة إحراق أبي حيان لكتبه أشبه ما تكون بالانتحار ، وهي تعبير واضح عن يأسه من كل ما يربطه بدنيا الناس ورغبته في الفرار الى الله . هذا هو اليأس على البعد الافقي ، ومنه ينبثق الأمل بالله على البعد الرأسي . ففعالية الأمل الروحي هي خبرة باطنية تحاول الذات فيها تجاوز الآخر والمكان والزمان . وهذا التجاوز هو التعالي نحو الحق تعالى الذي به يبدأ الوجود واليه ينتهي . وبهداه تتشكل ماهية الكائن ، وفي هذا العلو تأنس الذات بقربها من الحق المطلق الذي هو علة وجودها ، ووجود كل شيء آخر (٤٢). وهكذا انقطع اتصال التوحيدي مع فئات المجتمع كله . فقد أتلف نتاج فكره حتى لايدل عليه . فيمتحن من جديد . فاختفى في غربته وأخفى كل أثر له (٤٣)، وطلب العزاء في الايمان ، فبعد الخذلان الاجتماعي لم يجد الا الله .

هل نستطيع القول هنا أن التوحيدي اغترب عن نتاج فكره ؟ ـ الحق أن إحساسه بانفصال فكره عن سلوكه ، وعجزه عن التوحد معه بالفعل أول مبرر قدّمه لاحراقه لكتبه . فقد حثّ التوحيدي على العمل على ضوء من العلم ، وآمن مع غيره بأن الفصل بينهما ضياع للجهد ، فالعلم نظرية والعمل ممارسة . " فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشا من العلم ، ولا تن بالعلم ما دمت مقصرا في العمل ، ولكن

٤١. الرسالة ، ص ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ .
٤٢. انظر د. زكريا ابراهيم ، دراسات في الفلسفة المعاصرة ، مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ج ١ ، ص ٤٩٦ ـ ٤٩٩ ؛ سعيد العشماوى ، تاريخ الوجودية في الفكر البشري ، الوطن العربي ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٩٩ ـ ١٠٢ .
٤٣. انظر الرسالة ، ص ١٨ ـ ١٩ .

اجمع بينهما ، وان قلّ نصيبك منهما فانك ان وهبت للعمل كلك أقعدك وأكلّك • وان منحت للعلم كلك حيّرك وأضلك ، وآفة العمل تعلقه بالريا • ، وآفة العلم تعلقه بالكبريا • ، والخير بين طرفيهما مرتفع" (٤٤) ومع ذلك فقد بقيت هذه الدعوة محض نظرية : فأعلن التوحيدي ، بكل أسف ، فشله في الانتفاع بالعلم الذي حصّله ، ورأى أنّ هناك فجوة بين النظرية والممارسة • فتخلص من كتبه لانه خاف أن يصير العلم وبالاً عليه وغلاً في رقبته ، يقول " وكرهت مع هذا وغيره أن يكون حجة عليّ لا لي " (٤٥) في مستوى التكليف الديني وربما الاجتماعي أيضا • وعلى أية حال ، فان إحراقه لكتبه لاينم عن تحديه لمجتمعه فحسب وانما لنفسه أيضاً ••• فكأن عمله " ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار "(٤٦) •

ويقرّ أبو حيان ، إما من قبيل التواضع وإما رغبة في الاعتراف ، ب " سوء فعله •• [و] سالف جنايته "؛(٤٧) ان العلم الذى حصله ، ولم يتبعه بالعمل ، هو سبب ما حاق به من غربة • يقول " ان كنت مع العلم فأين العمل ؟ ••• أما علمت أن من أشار الى الحق قولاً ثم ركن الى غيره فعلاً فقد حجب عن الصديق عقداً واحداً ".(٤٨) هكذا يحس بغياب الصديق المواسي ، ويشعر ، على نحو حاد ، بغياب أهل العلم والاختصاص ممن كان يُفترض فيهم الاطلاع على مؤلفاته وتقديرها • وكان شعور التوحيدي بخلو الواقع من المتأدبين المنصفين هو مما حفزه على العزلة اذ لم يكن يرى ". للبيان سوقاً ، وللعلم أهلاً ،وللأدب محبين"(٤٩) ، وهذا يعزز إحساسه بالتميّز عن مثقفي عصره • ويجب أن نضيف الى ما سبق أن مفكرنا كان ذا حساسية مفرطة ازاء نقد المتأدبين في عصره لبعض كتاباته • ويبدو أنه أوجس في نفسه خيفة من التبكيت والتقريع والتشهير ، إنْ هو ترك نتاجه عرضة للنقد بعد موته • وثمة كلام له يصرّح فيه بعدم ثقته " بالزمان وأهله " (٥٠)، ويستريب

٤٤• البصائر ، ج ١ ، ص ٩٩ ، انظر ج ٣ (٢)، ص ٤٢٠ ـ ٤٢٦ ، المثالب ، ص ٢١•
٤٥• الرسالة ، ص ١٨ ـ ١٩ ، انظر الاشارات ، ص ٢٦٤ •
٤٦• الرسالة ، ص ١٨ •
٤٧• الاشارات ، ص ٢٧٨ •
٤٨• الاشارات ، ص ٣١٣ •
٤٩• البصائر ، ج ٤ ، ص ١١ •
٥٠• المقابسات ، م / ٨٩ ، ص ٣٣٩ •

فيهم . ومن الواضح أن شكوك أبي حيان في نوايا أهل الزمان هي علامة اغتراب أيضاً (٥١) .

واصطدم التوحيدي بحواجز تفصل بينه وبين من يعتبرون أنفسهم صفوة المجتمع ، وقد ظهر هذا في تحديه لبعض المفكرين والادباء واتهامهم بالحسد والتنافس (٥٢)، وربما كان أصل هذه الحواجز أنهم عابوا انتاجه وسفّهوه ، فاستثاره هذا ودفعه لتأكيد امتيازه عليهم . وقد بيّن تناقض ما قيل عنه من نَقْله عن الآخرين وتنوع رسائله . فنراه يلح على الجهد المبذول في مؤلفاته ، ويصرح أنه قد جمع ثمار العقول والحكمة (٥٣). وحين اشتد الهجوم عليه نجده يتحدى كل واحد من منتقديه أن ينتج " في هذا الفن عشرة أوراق يسلم فيها كل السلامة ، ويبرأ فيها من كل مقالة " (٥٤). وهنا نلمس اعتزاز التوحيدي بإنتاجه . فنتساءل اذن لماذا أتلف كتبه ؟ تملّك التوحيدي ، فيما يبدو ، شعور قوي بعدم جدوى مؤلفاته . ذلك أنه طمح من ورائها نيل الحياة الرغيدة والتكريم والتقدير . فهو يعترف أنه قد اتخذ " أكثرها للناس ، ولطلب المثالة فيهم ، ولعقد الرياسة بينهم . ولمدّ الجاه عندهم " ويمضي قائلا " فحرمت ذلك كلّه "(٥٥). وهكذا نجده يعترف ، في آخر مرحلة من حياته ان نتاجه الذي يتوخى فيه مآرب دنيوية هو ليس أكثر من مظهر رياء ونفاق . ومع هذا الوعي ، يصير تمسكه بهذا النتاج طمعاً في الدنيا : " وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء في الدنيا وان كان شريف الجوهر"(٥٦)، وكيفما اتفق، فمن المحتمل أن يكون التوحيدي قد تخلّص من كتبه لانها بمثابة تذكير شاخص على اخفاقه ويأسه من تحقيق مطامحه في الشهرة والتقدير .

وقد صور التوحيدي في الرسالة شعوره بالعجز أمام العوامل الخارجية التي كانت تحدد مسار حياته باتجاه مصير لا مفر منه . وشغلت فكره قضية المصير الشخصي ، أي الموت على وجه التحديد ، فأحس بالقلق . ويبين لنا أن الانسان

---

٥١. قارن ، البصائر ، ج ١ ، ص ٣١٨ .
٥٢. انظر الامتاع ، ج ٢ ، ص ١ .
٥٣. انظر البصائر ، ج ٤ ، ص ١٠ ـ ١٢ ، ج ٢ (٢) ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .
٥٤. المقابسات ، م / ٦١ ، ص ٣٥٧ .
٥٥. الرسالة ، ص ١٨ .
٥٦. الرسالة ، ص ١٧ .

يواجه المصائب والأهوال والآلام المبرّحة فينسى واقعة الموت • وحتى لو عاش الانسان حياة رغيدة كريمة ، فان الخوف من الموت لا يفارقه وهو يحاول في العادة أن يتناساه ـ فالمرء " يجزع من الموت ، لانه عدم ما ، والعدم مهروب منه " (٥٧) • ان الوعي بحتمية الموت قد يسلخ الانسان عن كيانه الاجتماعي ، فيشعره بالعزلة في مواجهة مصيره ، وقد يدفعه لمزيد من العمل الصالح • فالانسان يعرف أنه يبدأ الوجود بذات متجهة نحو الموت منذ ساعة الميلاد •

وربما كان خوف التوحيدي يكمن أصلاً في إحساسه بالفجوة التي كانت تفصل بينه وبين معاصريه • إذْ نجده يلهج طالباً من الله أن يعيد" نضارة " (٥٨) الدين وأواصر الاخوة بين أفراد المجتمع ، كما أنه أبدى قلقا ـ كغيره من المفكرين ـ من انهيار القيم الاخلاقية في مجال الاتصال الاجتماعي وكان انتقاد التوحيدي لأنماط العلاقات والقيم السائدة في المجتمع دليلا على عدم تكيفه مع المجتمع (٥٩)، وهو الذي أفضى الى عزلته في خاتمة المطاف • وفي هذا النطاق يقارن التوحيدي فساد أحوال العصر في كل مستوياته من جهة بالأوضاع الصحيحة والمجتمع السوي

٥٧• الهوامل ، س / ٢٤ ، ص ٧٥ ، انظر ص ٧٢ ـ ٧٣ ، البصائر ، ج ٢(٢) ، ص ٣٤٦ ، ٥٥١ ، ٧٨٧ •
" وبينما المرء في الاحياء مغتبط •*• اذ صار في الرمس تعفوه الأعاصير " البصائر ، ج ٤ ، ص ٢٤١ • اهتم المفكرون الوجوديون بموضوع الموت وأثره على وعي الانسان ، ويعتبر د• زكريا ابراهيم اهتمام التوحيدي البالغ " بمشكلة الموت " ، وتساؤله عن أسباب الانتحار ، دليلين ساطعين " على ما كان يعتور نفس التوحيدي من قلق وجودي " ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٢٢٧ ، ويتطرق ايرك فروم الى موضوع الموت وعلاقته بشعور الانسان بالعزلة فيقول: " ان وعي الانسان لذاته هذه الكينونة المنفصلة ••• وعيه بوحدانيته وانفصاله ، بعجزه أمام قوى الطبيعة والمجتمع ، كل هذا يجعل وجوده الممزق المنفصل سجن لايحتمل " • The Art of Loving, pp. 14 - 15 قارن د• ابراهيم محمود ، " حول الاغتراب الكافكاوي ورواية " المسخ" نموذجا " عالم الفكر ، مج ١٥ ، العدد ٢ ، ١٩٨٤ ، ص ٤٠٢ ، جون ماكوري ، الوجودية عالم المعرفة ، ترجمة د• امام عبد الفتاح ، الكويت ، العدد ٥٨ ، ١٩٨٢ ، ص ٤٩ ، ٢٨٠ ـ ٢٨٩ •

٥٨• البصائر ، ج ٤ ، ص ٩ ـ ١٠ ، قارن ج ٣ (١) ، ص ٥ ـ ٧ •

٥٩• يعتقد عدد من المؤلفين أن " امارة اغتراب الفرد هي عدم تكيفه مع المجتمع الذي يعيش فيه " • G. Petrović, " Alienation ", The Ency. of Philosophy, 1979, vol. I, P. 17.

الذي كان في صدر الاسلام من جهة أخرى • فيرى أن التكافل والتعاطف والايثار ، وهي من سمات المجتمع الماضي ، قد غابا عن لحمة مجتمع عصره • ويرى أنّ الخلفاء الراشدين كانوا نماذج للعدل والرأفة في الحكم وتحمل الأمانة التي عهد الله بها اليهم • فأدوا حقوق الرعية واستمسكوا بعرى الدين ومصلحة المسلمين عامة " فذهب هذا كله ، وتاه أهله (٦٠). لقد تفشى الجهل في طبقات المجتمع في عصره، واختلت معايير العقل الراشد حتى في أوساط العلماء،و" صار الغيّ متبوعاً ، والرشد مقموعاً ••• والحق منبوذاً (٦١) فأُهمِلَ الاجتهاد ، واستبدل بالصدق الكذب ، وجهر الناس بالمعصية ، وفَقَدَتْ الخلافة الاسلامية معناها وإشراقها (٦٢) • فقد تمزّقت العقيدة في النفوس بسبب كثرة الفرق والنِّحَل ، وغابت قيم الصلاح في المجتمع الذي كان يسوده السلام والوئام فيما سلف من أمره • وعاد الى حالة الفساد السابقة على الرسالة الاسلامية ، فأخذ الناس يضربون في التيه من جديد. " وهذه كلها كنايات عن الظلم والتجديف ، والخساسة والجهل وقلة الدّين وحب الفساد ، وليس فيها شيء مما قدّمنا وصفه عن القوم الذين اجتهدوا أن يكونوا خلفاء الله على عباد الله ، بالرأفة والرقة والرحمة والاصطناع والعدل والمعروف "(٦٣).ومقابل عظمة الرجال والمجتمع في الماضي ، يحس التوحيدي أن عصره قد اتسم بالتفاهة والعبث ، واختلت القيم الخلقية ، وأصبحت خفة الروح وملاحة الوجه وظرف الكلام ، ومهارة اللعب في الشطرنج وفي النرد،والبخل والفضول هي جميعاً سمات الشخصية الاجتماعية المطلوبة ، فحلّت محلّ الحكمة والخُلُق والأدب الرفيع والفضائل (٦٤). وصار الناس يبررون الغاية بالوسيلة ، وتفشّى الغش والدناءة والخساسة بين العامة ، وفي أصحاب الأسواق • وشاعت هذه الجرائم "في أصناف الناس من الجند والكتاب والصالحين وأهل العلم ، لقد حال الزمان الى أمر لا يأتي عليه النعت ، ولا تستوعبه الأخبار"(٦٥). ونظرة التوحيدي هذه للمجتمع زادت في عزلته وتغربه عن المجتمع أكثر وأكثر • فانقطع التواصل بينه وبين الناس ، وما كان بمقدوره بالطبع أن يغير شيئاً مما يشكو منه في دنياهم •

٦٠• الامتاع ، ج ١ ، ص ١٧ •
٦١• البصائر ، ج ١ ، ص ٤٠٥ •
٦٢• انظر الامتاع ، ج ٢ ، ص ٢ ١٤ – ١٤٤ •
٦٣• الامتاع ، ج ١ ، ص ١٨ – ١٩ •
٦٤• انظر الامتاع ، ج ١ ، ص ١٦ – ١٨ ، المثالب ، ص ٣٢٢ •
٦٥• الامتاع ، ج ٣ ، ص ٦١ – ٦٢ •

الفصل الثامن

الغربة والتحول الروحي

يعبّر التوحيدي ، حين يتناول الغربة ، عن تجربته الفعلية في الواقع . فهو يصوّر غربته النفسية وعزلته عن المجتمع ، وغربته عن وطنه حتى مرحلة الفرار الى الله . وللغربة ضروب : فقد يشعر المرء بالغربة عندما يفارق الوطن لظروف تضطره الى ذلك . فكأنه في هذه الحالة يُجتَثّ من مكان له ألفة في وجدانه الى مكان آخر لا يرتبط به . ومن الصعب أن ينسلخ الانسان عن انتمائه لوطنه الاول . وقد يشعر المرء بالغربة وهو في وطنه وبين أهله لاسباب شخصية أو لاسباب تتعلق بمجتمعه ، أو بالاثنين معًا ، فيقع في الغربة النفسية والاحساس بالوحدة . وفي هذه الحالة قد يهاجر الغريب الى بيئة أخرى يجد فيها ما يزيل قلقه ويحقق الأنس لنفسه (١). وقد يمعن الغريب في ترحاله فيزداد اغترابه عن موطنه الاول . فهو مضطر في بعض الاحيان الى الفرار " من مدينة الى مدينة ، ومن قلّة الى قلة ... ومن بر الى بحر ، ومن بحر الى بر ، حتى يسلم ، وأنّى له بالسلامة " (٢). واذا ما عجز عن التفاعل والتكيف مع المجتمعات الجديدة ، يزداد ذلاً ويأساً ، فيتوق الى الخروج من العزلة ليحقق اتصالا روحيا يعوّضه عما هو فيه من كرب (٣). وقد يلهج بغربته أمام الناس داعياً الى اللحاق به نحو الحق ، فيهجره أهل موطنه الجديد وينبذونه لريبتهم في الغرباء عادة ولاختلاف دعوته عما يألفونه من عادات " يا هذا ارحم غربتي في هذه اللغة العجماء ... لأن لغة ذلك البلد لاتفهم في هذه المدينة " (٤). وكلما حاول الخلاص منهم زاد اغترابه

١ . انظر الاشارات ، ص ١١٣ _ ١١٧ .
٢ . الامتاع ، ج ٢ ، ل / ٢٠ ، ص ٧٩ .
٣ . فارن نيقولاي برديائف ، العزلة والمجتمع ، ص ١٠٧ .
٤ . الاشارات ، ص ١٢٤ ، ٣١٢ .

واشتد عذابه واستحكم البلاء فيه " وأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه وأبعد البعداء من كان بعيداً في محل قربه ".(٥)

يقترب التوحيدي من مفهوم الاغتراب الميتافيزيقي ـ الديني . وهذا الضرب من الاغتراب يتضمّن موقفاً صوفياً يتخلّص فيه الانسان من كل علائق الدنيا ويتجه بكليته الى الحق . فوجود الانسان على الارض اغتراب عن " الجوار الاعلى " الذى كان فيه آدم في الاصل . وهو يزيد من قلق النفس بخصوص مآلها بعد الموت . فتحاول النفس المغتربة التغلب على هذا الشرخ ليتحقق الاتصال بالله والرجوع اليه، " اسمعُ هَينمة نفس قد طال نزاعها الى وطن عنه صدرت آمنة مطمئنة ، ثم انقطعت دونه خائفة " (٦).

يرى التوحيدي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد تنبأ بغربة الدين حين قال " بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ غريباً " (٧)، بمعنى أن المجتمع قد يتنكّر لقيمه السامية ويصبح من يدعو " الى الاذعان له ، والاقرار به " (٨) غريبا عنهم ويواجه الصدّ والعداء من أكثرية الناس في المجتمع . وتظهر الاعراض النفس ـ جسمية على الغريب ، كالحزن والكآبة والذبول والخمول الذي يفت جسده ، فيعكس مظهر الغريب المأساة التي يعاني منها(٩)، فهو ضعيف يائس لا أحد

---

٥ . الاشارات ، ص ١١٥ .

٦ . الاشارات ، ص ٢٢٣ . ويقول " سلوكك في هذا العالم في أغشية متكاثفة ، بين أهوال مختلفة ، على طرق مخوفة ، فأشكل عليك بلدك الذي أنت منه ، فأمنت في الغربة ببلد لست من أهله ، وأخذت بعادة كنت غنياً عنها لو عرفت مرماك منها " . المقابسات ، م / ٦٢ ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ . وتذكرنا مثل هذه النصوص بفلسفة أفلاطون بخصوص النفس ومعادها . وقد تمثلها الفكر العربي "وأسلمها" . ويبدو أن جذور مفهوم الاغتراب عند محي الدين بن عربي تضرب في حقول اشارة التوحيدي الميتافيزيقية التي تعني الغربة عن الحق فنسيج الوجود عنده هو هذه الغربة ، انظر الفتوحات المكية ، دار صادر بيروت ، ج ٢ ، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٩ .

٧ . الامتاع ، ج ٢ ، ل / ٢٠ ، ص ٧٨ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود كما بدأ غريبا ، فطوبى للغرباء من أمتي" . صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ج ١ ، مج ١ ، دار الفكر ، لبنان ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ ، ص ١٣٠ .

٨ . البصائر ، ج ١ ، ص ٥٤٠ .

٩ . انظر الاشارات ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ، وحول بعض أعراض الاغتراب المرضية انظر Fredric A. Weiss, "Self-Alienation: Dynamics and Therapy", Man Alone, pp. 463-464,466,468.

ينصره ، أو يلم شعثه (١٠) . ويفقد هذا الغريب اتصاله بقومه ليأسه منهم . فاذا أمر بالمعروف اتسعت الدقة بينه وبينهم ، واذا سكت عنهم ظهر الفساد وعم الجهل وغاب الصدق . فيفكر بالفرار بعيدا عنهم حتى لايضطر الى معاشرتهم والتعاون معهم ، سواء في المحلة أو في المسجد أو في السوق ، ولا يصطلي بوزرهم لان هذه من " الكبائر العظيمة والخلائق اللئيمة" (١١). ويعتقد التوحيدي أن الفتنة قد أذهلت العقول وحيرتها (١٢) ، وأن عصره هو عود البدء للغرباء الأخيار الذين ترى الواحد فيهم لا يعرج من الدنيا الا على بُلْغة ، ثم يكون كالغريب المحتبس عن أهله ووطنه ، الاسير في يد عدوه ، لايتهنأ بشيء في عيشه ، ولا يستريح الاّ الى الحيلة في التخلص مما حلّ به من الذل والاسر " (١٣). ونراه يقول : ولو " تعاونا على هذه الاحوال الحسنة في هذا الزمان الذى قد عاد الاسلام فيه غريبا كما بدأ غريبا ، كنا نجوم الارض وأعلام الخلق ، وآتانا الله من عنده ما نغتبط به ونتنافس عليه " (١٤).

كانت العزلة مصيراً شبه محتم على التوحيدي ،مضطراً اليه غيرمختار (١٥) ، ومع ذلك فانه يرى أن هذا النهج من العزلة حيدة عن جادة الصواب ، لان الانسان

---

١٠. انظر الاشارات ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .
١١. الاشارات ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ ، وانظر الشعر في الهوامل ، س / ٩١ ، ص ٢٢٦ .
١٢. الامتاع ، ج ٢ ، ل / ٢٠ ، ص ٧٦ ـ ٧٨ .
١٣. البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٢٩٥ .
١٤. الاشارات ، ص ٣٠٦ ، انظر البصائر ، ج ١ ، ص ٣٧٧ .
١٥. يميز بعض المفكرين بين المنعزل اجتماعيا وبين الذى يشعر بالوحدة ، فقد يتعذر اتصال الفرد بالاخرين في المجتمع لاسباب شتى ولايعني هذا بالضرورة شعوراً حاداً بالوحدة من جانب المنعزل في كل الاحوال . لكن ثمة ضرب في الغربة ينتاب الفرد فيه شعور حاد بفقدان الرفيق ، وليس هذا شعوراً بالعزلة أو انقطاعاً في العلاقات الاجتماعية ، فالوحدة حسّ باطني بحت ، فينشأ في الانسان رغم علاقاته الكثيرة في المجتمع ، انظر
Peter Townsend, " Isoloation and the Hold on life", Man Alone, P. 326.
وقد تقود العزلة الى حالة اغتراب ولكن ليس معنى ذلك أن كل منعزل مغترب . انظر .
ويرى بعض المفكرين أن التمييز ضرورى بين " وضع الفرد الذى يحاول أن يقيم اتصالا ذا مغزى مع الاخرين " ويفشل في ذلك ، وبين وضع الذى " يختار أن يحيا وحيدا ، كي يحقق غرضا معينا ما " فهو في هذه الحالة فرد مكتف بذاته ، انظر
R.Schacht, Alienation, P. 157.

لايستطيع أن يمضي في حياته وحيدًا على طول الخطو" لابد له من أسباب يحيا بها ، وبأعمالها يعيش ، فبالضرورة يلزمه أن يعاشر الناس ثم بالضرورة يصير بعضهم صديقا ، وبعضهم عدوا ، وبعضهم منافقًا ، وبعضهم نافعًا ، وبعضهم ضاراً "(١٦) ، أي أن الانسان مضطر أيضا للسعي فيما يقيم أوده ، وهنا تصطدم ارادته بارادات الاخرين . " الانسان مدني بالطبع " وبحكم الحاجة ، اذ " لابد من الاعانة والاستعانة ، لانه لايكمل وحده لجميع مصالحه ، ولايستقل بجميع حوائجه ، وهذا ظاهر " (١٧) . فاختلاط الناس وتجاورهم واتفاقهم واختلافهم وتبادلهم المنافع أمور لابد منها . وهذا هو أساس الاجتماع المدني ، فلا تطيب الحياة لمنعزل ولا تستقيم له . وبشكل عام ، العزلة شقاء .

عبّر التوحيدي في مؤلفاته عن خبرته العميقة الواسعة بالعلاقات الاجتماعية ، فقد ارتاد مجالس الوزراء والعلماء ، واجتمع بأصحاب المذاهب المختلفة - يقول: " قد خالطت العلماء ، وخدمت الكبراء وتصفّحتُ أحوال الناس في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم " (١٨)، ولا يكتفي بذلك ، بل يضطر أيضا الى معاشرة " الغرباء والمجتدين والاوفياء " (١٩)، والتعرف على مختلف طبقات الناس " في السفر والحضر ، صغاراً وكباراً وأوساطاً ".(٢٠)

ان الدور الاجتماعي الذي يختاره الفرد لنفسه على ضوء امكاناته الذاتية هو قطب الرحى في تحقيق الذات وإذا عجز عن الاضطلاع بهذا الدور ، أو منع منه ، فانه يشعر بالعجز والشلل . وهذا العجز من سمات الشخص المغترب(٢١). وقد نجد أبو حيان أدواراً عديدة في المجتمع ، لكنه مُنِعَ منها ، وكان يعتقد أن الطبقة الخاصة من الحكام والوزراء والعلماء ستساعده في تحقيق غايته ، والواقع انهم خذلوه . ويبدو أن ما طمح اليه مفكرنا هو أن يكون أديباً حكيمًا ، مُقْتَرَفَاً

---

١٦. الصداقة ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

١٧. الصداقة ، ص ٢٠٢ .

١٨. الامتاع ، ج ١ ، ل / ١ ، ص ٢١ .

١٩. الامتاع ، ج ١ ، ص ٧ .

٢٠. الامتاع ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ . قارن المثالب ، ص ٣٢٨ .

٢١. وحول موضوع تحقيق الذات "Self-realization" وعلاقته بالاغتراب انظر G. Petrović, "Alienation", The Ency. of Philosophy, vol. I. P. 77.

بفضله وله وزنه في تقديم المشورة للسلطة . (٢٢) " فاذا استطاع المفكر أن يؤثر في السلطان بعلمه ، فانه مستطيع عن طريقه أن يصلح الامة التي هي بالسياسة تابعة له " . وكان أبو حيان مؤهلا لشورى السلطان (٢٣)، كثيرا الاطلاع عميق الخبرة في الحياة ، ونوه ياقوت الحموي بكثرة تحصيله " للعلوم في كل فن " (٢٤). وقد اضطلع بدور المفكر السياسي عند ابن سعدان ، لكن مدة عمله هذا كانت قصيرة جدا .

ويبدو أن التوحيدي كان يتوخى ، من محاولاته الاتصال بالوزراء ، إحراز مكانة بارزة عندهم ، يقول : " والمكانة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة"(٢٥). وكان يرى أن تحقيق ذاته وتوكيدها لايتم الا باحراز هذه المكانة التي ينال بها اعتراف صفوة المثقفين في الطبقة المتنفذة ، وقد أخفق في تحقيق هذا الأمر (٢٦). وكان التوحيدي يشعر بتفوقه على أعلام عصره وبتقدمه على غيره أحياناً (٢٧) . وكان هذا الشعور يزيد في تميزه وتفرده ووحشته . ويرتبط هذا الشعور بالنزعة الاستعلائية عنده، وقد لخص آدم متيز هذه الميزة فقال : " كان أبو حيان ، غريباً بين أهل عصره ، وكان يعاني وحشة من يرتفع عن أهل زمانه ، ويتقدم عليهم " (٢٨). وتظهر هذه النزعة في مستواها الطبقي عندما كشف أبو حيان عن ترفعه على طبقة المهنيين وأصحاب الحوانيت وغيرهم من طبقات العوام المختلفة . وهو يعبر عن أزمته النفسية والاجتماعية هذه ، فيقول:

---

٢٢. وداد القاضي ، " علاقة المفكر بالسلطان السياسي ، في فكر أبي حيان التوحيدي " ، دراسات عربية واسلامية ، ص ٢٢٧ .

٢٣. المصدر السابق ، ص ٢٣ .

٢٤. معجم الادباء ، ص ٦ .

٢٥. الامتاع ، ج ١ ، ص ٣ .

٢٦. وبالرغم من تعدد التصورات الخاصة بمفهوم الاغتراب ، فان هذه التصورات تتمحور حول شعور المرء بفقدان هويته أو ذاتيته .. حيث أن للمغترب ذاتا أصيلة أو عفوية لم تتحقق بعد "
Erich and Mary Josephson, Man Alone, pp. 14 - 15.

٢٧. لقد سخر التوحيدي مثلا من أدب الصاحب وعلمه . وتعمد أن يكشف قصوره فيهما . انظر المثالب ، ص ٨٨ ، ٩٨ ، ١١٣ - ١١٧ ، ١٤٦ ، ١٥٠ - ١٥١، ١٦٧ - ١٧٤ .

٢٨. الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ١ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

" فقدت كل مؤنس وصاحب ومربق ومشفق ، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى الى جنبي من يصلي معي ، فان اتفق فبقال أو عصار أو نداف أو قصاب ، ومن اذا وقف الى جانبي أسدرني بصنانه ، وأسكرني بنتنه " (٢٩). وبالطبع لم تكن هذه الفئات مما يهدف أبو حيان الى اقامة العلاقة معها . بل تكاد تحس أنه يستعلي عليهم كما يبين النص السابق، فهم قد تحولوا في وعيه الى مواضيع لايؤبه لها .

فشل التوحيدي في الحصول على مايفي بحاجاته الأساسية ولم يجد الأعمال التي تناسب مؤهلاته متاحة له . فتذمر كثيرا من الأعمال التي اضطر الى شغلها واعتبرها امتهانا لمكانته الأدبية وسببَّتْ له شعوراً بالغبن واحساساً بالاضطهاد لشخصه . واعتبر التوحيدي حرفة الوراقة التي أرهقته طالع نحس له ، " انما توجهت من العراق الى هذا الباب وزاحمت منتجعي هذا الربيع لاتخلص من حرفة الشؤم"(٣٠).

يشير مفكرو الغرب أحياناً الى اغتراب العامل عن نتاج عمله ، وكراهيته لهذا النتاج لانه يُسْتَلَبْ منه بمقتضى القوانين التي تنظِّم علاقاتِ الانتاج،ولم تكن مهنة النسخ في نظر التوحيدي تدر عليه مايعادل الجهد المبذول فيها فشعر بالاستياء من عمله وصرح بكراهيته له (٣١) . وطلب في رسالته الى ابن العميد توفير عمل لائق به ، ويكون في مستوى امكانياته وليس دونها (٣٢).

---

٢٩. الصداقة ، ص٨ - ٩ . يرى أحمد أمين وزميله في هذه الشكوى دليلا على قذارة التوحيدي وقد كان يشمئز منها السادة الارستقراطيون لذلك" لم يرض أن يصلي بجانبه الا بقال أو زيات أو نحو ذلك من أهل الحرف الوضيعة " مقدمة البصائر ، ج ١ ، ص ج ؛ قارن د. محمد حسن توفيق ، مقدمة المقابسات ، ص ٩ ؛ د. زكريا ابراهيم ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٧٨ - ٧٩ ؛ د. ابراهيم الكيلاني ، مقدمة رسائل أبي حيان التوحيدي ، ص ٦٣ ؛ عبدالرزاق محي الدين ، أبو حيان التوحيدي سيرته وآثاره ، ص ٣٤ - ٣٥ ، ٢١٨ ؛ د. احسان عباس ، ابو حيان التوحيدي ، ص ١٠٥ .

٣٠. المثالب ، ص ٢٠٣ .

٣١. مهما اختلفت شروط العمل من مجتمع الى آخر ، فان معنى اغتراب العمل يتحدد بظروف العمل ونتائجه على الفرد ، وهي العوامل المهمة التي تؤدي الى انفصال العامل من عمله وكراهيته له . ولاغتراب العمل عند ماركس معنى يرتبط بوسائل الانتاج واستلاب العمل من العامل وانفصاله عن نتاجه . وهذا الاغتراب يتعلق بوضع العامل في المجتمع الرأسمالي . انظر :

Eric and Mary Josephson, Man Alone, pp. 22-24.

٣٢. انظر المثالب ، ص ٣٢٧ - ٣٣٢ .

واذا حاولنا أن ندرك كنه علاقة أبي حيان بالاخرين نجد أنها لم تكن مُرضِية ، خاصةً في مجال العمل ، فكان شعوره المرير بالمهانة ، وأحسّ أنه مستغل بـلا رحمة (٣٣). وهو يعاني من صراع قُطْباه : الطموحُ الشخصي الى تحقيق مكانة مرموقة مستقلة من ناحية ، وحاجتُه الى الاتصال بالناس الذين لايعترفون له بهذه المكانة من ناحية أخرى • وقد اعتقد أن للأديب حقاً على السلطان في الرعاية والعطاء • ولم يعترف السلطان بحقه هذا ، فأحسّ مذكرنا بالمهانة والتحقير ، وأصبح حانقاً على عمله وعلى السلطان • لقد صَدَمَهُ تصغير الصاحب له حين قال له في أحد الايام : " اقعد ان الورّاقين أخسّ من أن يقوموا لنا " (٣٤). وهكذا وقع التوحيدي تحت وطأة الازمة النفسية فكادت نفسه تنسحق بسبب الضغوط الخارجية التي نشأت عن انعدام تقدير الاخرين له ، وكان رد فعله أنه أخذ يؤكد تفرده بين مثقفي عصره ، ويهاجم كل من حاول انتقاص قدره ، وهذا " شأن من تجتمع فيه حدة الطبع ، ورهافة الشعور ، وتوقد الذكاء ".(٣٥)

ولجأ أبو حيان الى الدفاع الذي يعوّض عن الإخفاق الذي مُنِيَتْ به تطلعاته • وحين يدافع الانسان عن ذاته فانه يحاول أن يتجاهل جروحه وقلقه الذاتي (٣٦) ، ليبدو وكأنه يتكلم دفاعاً عن الحقيقة الموضوعية التي يتنكر لها الناس • ويبدو هجاء التوحيدي لشخصيات عصره وللوزيرين ابن العميد والصاحب انتقاماً " للامتهان الذي حصل له بسببهما •

٣٣• يذكر التوحيدي أنه عمل عند الوزير الصاحب ثلاث سنوات بدون أجر • انظر المثالب ، ص ٢٠٧ •

٣٤• المثالب ، ص ٩٩ ، ٣٠٥ •

٣٥• د• محمود ابراهيم ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٤٧ • لقد دعم د• ابراهيم حكمه هذا بشواهد تدل على ذكاء أبي حيان واحساسه القوي بالحياة • انظر ص ٢٨ ـ ٢٩ • ولقد عبر التوحيدي عن التصاقه بالحياة ونشوته بالدنيا حين قال " فان هذه العاجلة محبوبة ، والرفاهية مطلوبة •• والدنيا حلوة خضرة وعذبة نضرة " • الامتاع ، ج ١ ، ص ١٣ • وبرزت حساسيته الزائدة وانفعاله الحاد مثلا في الموقف الذي تعرّض له هو والنصيبي ، فكان ردّ فعل التوحيدي للحدث يختلف عن ردّ فعل رفيقه ، فقد نأى النصيبي بنفسه عن هذا المحسن ، لكن صدمة أبي حيان كانت أشد واعتبر باب ذلك المحسن آخر باب له في الزمان • وشعر كأن العالم ينفتح لكل الناس وينغلق دونه ، انظر الرسالة ، ص ٤٩ ـ ٥١ •

٣٦• انظر Fredenc A. Weiss, " Self Alienation: Dynamics and therapy", Man Alone, P. 468.

لجأ التوحيدي أيضا الى آلية التبرير • ففي تبريره لهجاء هذين الوزيرين ، وفي تفسيره لإحراق رسائله ، ادعى أن آخرين قد سلكوا مسلكه من قبل[٣٧]. كما أنه ردّ إخفاقه لظروف غير مواتية ولأشخاص استعملوا اللؤم معه • وأمعن في الشكوى بخصوص هذه العوائق واعتقد أن الشكوى تخفف من معاناته • فقد كتب " استرسال الكلام في هذا النمط شفاء للصدر وتخفيف من البرحاء ، وانجياب للحرقة ، واطراد للغيظ ، وبَرْد للغليل ، وتعليل للنفس " [٣٨] • وتنطوي شكوى أبي حيان على ميول عدوانية من جانبه فتتوخى سلب الآخرين شيئا من استقرارهم النفسي من باب الثأر لنفسه المعذَّبة ، وكأنه يود التخفيف من ثقل العبء النفسي بنقله الى من كان يعتقد أنهم سبب بؤسه • ومع ذلك فقد كانت الاخفاقات المتتالية للتوحيدي أثقل وطأة من التنفيس الذي يجريه بقلمه • فشكلت " الصدمات النفسية المتلاحقة في حياته ••• تجمعًا كميًا انفجر في النهاية عن تغير نوعي حاد فكانت حادثة إحراقه لكتبه "،[٣٩]

من الصعب استكناه النزعات الخفية في شخصية أبي حيان التي عمقّت دواعي عزلته ، وذلك لغموض كلامه من ناحية ، ولانه غلّف الفشل الذي مُنِيَت به طموحاته بأعذار كثيرة [٤٠] محصلتها العامة أن " الغير " هو السبب • ومما هو جدير

٣٧• انظر المثالب ، ص ٣١ ـ ٥٢ ، الرسالة ، ص ٢١ ـ ٢٢ ، قارن محمد يوسف علي ، " أبو حيان هل انتحر ؟ " مجلة آفاق عربية ، بغداد ، العدد ٤ ، ١٩٧٩ ، ص ١١٥ •

٣٨• الصداقة ، ص ٢٤ • انظر المثالب ، ص ٣٥٠ ، ٥٩ • ويبين التوحيدي عاقبة الانتحار من الناحية الشرعية ، وذلك حين أورد حادثة انتحار شيخ من أهل العلم ، عانى مرارة الاغتراب • بعد أن ضاقت عليه الارض ، وتعسرت أحواله ، وفقد أهل الكرم والاصدقاء ، وأصبح الناس كلهم أعداء في نظره ، فيأس من الحياة وانتحر • انظر المقابسات ، م / ٤٦ ، ص ١٩٦ •

٣٩• يوسف محمد علي ، " أبو حيان هل انتحر ؟ " مجلة آفاق عربية ، ص ١١٥ •

٤٠• يتخذ معظم الباحثين علاقة التوحيدي بالوزيرين الصاحب وابن سعدان منطلقا لتفسيرات اخفاقه • وباختصار فقد هجا التوحيدي الاول وكان على عداوة معه ، ومدح الثاني وأبدى له احتراما ، ويرد بعض الباحثين اخفاق التوحيدي الى سمات في شخصه ، وذهبوا مثلا الى أنه لايملك " اللباقة والكياسة " التي تؤهله للاختلاط بعلية القوم ، كما أنه لم يكن على مستوى الدهاء والحيلة في معاملة الوزراء عدا عن مظهره المُزْري ووعورة أخلاقه • انظر د• زكريا ابراهيم ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٥٥ ، ٤٤ ، ٩١ ، عبد الرزاق محي الدين ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٣٤ ، ١٥٣ ـ ١٥٤ • ومنهم من يرى أن التوحيدي " كان ذا قابلية نادرة على **

بالذكر أن أبا حيان نفسه لم يشر من قريب أو بعيد الى تفصيلات عن طفولته ونشأته يمكن أن تنير الطريق أمام الباحث في أسباب عزلته . لقد اكتفى بالحديث عن الازمة في علاقاته الاجتماعية . وهذا الغموض يجعل مواجهة بعض الاسئلة ليست أمراً ميسوراً ؛ فمثلا لماذا شعر التوحيدي بهذه العزلة الحادة ، وهو يملك هذا التصور الاجتماعي السليم بخصوص الصداقة وله مثل هذه العلاقات الاجتماعية العريضة.

نرى أن دراسة بريائف للعزلة تلقي ضوءاً على مشكلة التوحيدي ، فبرديائف يرى أن قيمة الاتصالات الاجتماعية تكمن في طبيعتها الرمزية . وهي تختلف عن الاتصال الروحي الذي يتشوق اليه الفرد أحيانا . وقد تحكم مؤسسات المجتمع قيم كمية مادية ، وهي عقبة تمنع " الانا " من تحقيق تواصل روحي أصيل في المجتمع . قد تلجأ " الانا " في هذه الحالة الى الاعتزال عن الاخرين ، لان وسائل الاتصال في الحياة الاجتماعية محكومة بلوائح واشارات تواضع عليها النظام الاجتماعي ؛ ومن شأنها أن توسع نطاق الضرورات ، وتقلل من مجال الحرية . والمجال الاخير هو الذي يجعل التواصل الروحي ممكناً . فاذا ضاق هذا المجال ، صارت العُزلة هي الحل الذي يعوّض " الانا " عن فشلها . ويبدو أن التوحيدي حاول أن يتأقلم مع ضرورات الحياة الاجتماعية في عصره لكنه كان يطمح من خلال بحثه في الصداقة مثلا الى توسيع النطاق الروحي في هذه العلاقات . لقد كانت الصداقة عند التوحيدي تمثل العلاقة الوجدانية التي تحقق وجود الذات وتحفظ لها التوازن الاجتماعي والروحي ، وهذا يعني تجاوز الذات والتقاءها بالاخرين ومشاركتها اياهم الحضور الواقعي . لكن العُزلة بالطبع تُفصحُ سلبياً عن صلابة النظام الموضوعي للعلاقات الاجتماعية في ذلك العصر . ولم يستطع التوحيدي في مجمل علاقته أن يحسّ الحياة الروحية الداخلية للآخر .

حاول التوحيدي التغلب على عزلته وأزمته بتكريس نفسه للكتابة وتحصيل المعرفة . لكن المعرفة تهتم بالمجرد والكلي ولا تكاد تشبع الأشواق الشخصية

** الاختلاط بشتى البيئات الاجتماعية ، محمد حسن توفيق ، " مقدمة "المقابسات" ص ٩ ، قارن وداد القاضي : علاقة المفكر بالسلطان السياسي في فكر أبي حيان التوحيدي" ، دراسات عربية واسلامية ، ص ٢٣٥ - ٢٣٧ . ويرى أحمد الجندي أن الوزيرين ابن العميد والصاحب لم يكونا على المستوى الرفيع من الادب والخلق ، "أبو حيان التوحيدي" ، مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق مج ٤٠ ، ١٩٦٥ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

التي تتجه بطبيعتها الى تحقيق الاتصال بالآخر على الوجه الصحيح من المودة . ان شعور الأنا بحضور " أنا " أخرى في أعماق وجودها يكشف عن المنافذ التي تخترق بها جدران عزلتها . لكن " الآخر " الذي تتوق اليه نفس التوحيدي يصير " صَنَماً " وموضوعاً متضخماً بسبب السُلْطة التي مُنِحَتْ له . إنه موضوع وليس ذاتاً . فالأنا في هذه الحالة لاتواجه ذاتاً أخرى ، بل تواجه موضوعاً مرادفاً للشيء . وهذا من شأنه أن يُعيق حركة الروح إذا حاولت أن تعلو على المواضعات الاجتماعية (٤١) . وفي العلاقة الثنائية السليمة ، تنمو الشخصية وتتحرر من قيود عجزها وعزلتها . بل ان الحب والصداقة قد تحيلان الأنا الى شخصية فريدة ، قادرة على العطاء وفيها حسّ الرضا والامتلاء (٤٢). ولقد أدرك التوحيدي تعذر تحقيق مطمحه في الاتصال الروحي ، فشعر بالاغتراب لأنه لم يجد صديقاً متعاطفاً يقدره في مودته .ولجأ الى العزلة التي " تضم المبدعين والمجددين والمصلحين وأصحاب الثورات الروحية " (٤٣)، وكانت مصيرهم في كثير من الحالات .

ونستطيع أن نتبين نزعة اصلاحية في فكر التوحيدي ، فقد حمل الرجل همه الشخصي فضلاً عن هموم مجتمعة السياسية والخلقية . ودعا الى الفضائل واتسمت حياته بالتوتر والقلق المزدوج : قلق على وضعه الشخصي ، وقلق على المجتمع ومصيره . لكن همه الشخصي طغى على الهم الاجتماعي في كتاباته الاخيرة .

ربما كان التوحيدي قد نجح في اقامة علاقة حميمة مع صديق أو أكثر في الفترة التي سبقت أزمته النفسية ، إذْ يخبرنا أنه فقد " صديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً " (٤٤) ولا يذكر له اسماً . ونلمس نغمة الإحترام والإجْلال التي كانت تسود أحاديثه عن السجستاني والسيرافي ، وغيرهما من العلماء . لكنه ينكر وجود الصديق ، وهو على علاقة بهما . وما يواجهنا في ثنايا كتاباته على نحو مستحوذ هو الحديث عن الوحشة والعزلة . وينفث التوحيدي مأساته في الاشارات الالهية لأنه " قد ابتُليَ بالنحس " الذي أقضّ مضجعه ، وكدّر عيشه . لقد قضى ستين عاماً من عمره ملتزما بمبادئ الصداقة ، يرعى الذمام ويصون العهد ، ويحفظ الودّ ،

---

٤١. انظر ، نيقولاي بردياثف ، العزلة والمجتمع ، ص٩٥ - ١١٥ .
٤٢. انظر بردياثف ، العزلة والمجتمع ، ص١٤٨ - ١٧٦ .
٤٣. بردياثف ، العزلة والمجتمع ، ص١٠١ .
٤٤. الرسالة ، ص١٩ ، انظر المقابسات ، ص٥٦ .

ومع ذلك لم يجد من يضمر له وداً أو وفاءً ، ويساعده على الخروج من عزلته يقول: " صحبت الليالي ستين عاماً مذ عقلت ، فما غدرني الا من استوفيته ، ولا كدّر عليّ الاّ من استرعيته ... ، ولا انحنى ظهري الا بمن نصبته عماده " (٤٥) وحين تعذر اتصاله بالناس على أسس المودة المتبادلة ، أحس أن الواقع الاجتماعي يعاديه . ولم يستطع أن يتخطّى هذه المشكلة ولبث عشرين سنة في آخر مقام له ولم يصح له وداد أحد (٤٦). وفي اخفاقه هذا يزداد شعوره بالقلق والعزلة الحادة فينطوي على نفسه ويكابد حزناً دائماً . لقد فشل في العثور على صديق تتجلى في شخصه مودة الصداقة التي تصورها ، بل ان مسكويه قد أكد له أن مثال الصديق الذي ينشده غير متعين في الواقع (٤٧) فضلا عن تعذر وجود الصديق المماثل لصديقه تماما . ولعلّ شخصية التوحيدي التي تميّزت بالفراسة والحساسية المرهفة والذكاء الحاد ، قد كشفت له نفوس الناس ونواياهم ، فازداد ابتعاداً عنهم (٤٨) .

تكمن أزمة التوحيدي اذن في الفجوة بين المثال الذي عبّر عنه في كتبه من جهة وواقع أفراد المجتمع وعلاقاتهم من جهة أخرى . فهو يؤمن بالأسس الدينية والتكليف وينظر الى المبادئ الخلقية نظرة جدية . وهذه نزعة مثالية ترنو الى الكمال الجمعي . ولم تَخْلُ مصنفاته المتداولة من تصويرها بروح متوترة وثابة الى الاستقرار على قممها العالية .

ان كتاب الاشارات الالهية ، الذي يرجّح أنه آخر مؤلفات التوحيدي المهمة ، يكشفُ عن موقف يائس تجاه الحياة الاجتماعية من جانب وعن موقف صوفي متجه الى الله تعالى ينشد منه الانس والعفو من جانب ثان . وتفصح أدعيةُ التوحيدي ومناجاته عن قلق بسبب انسياقه لهوى النفس وعن رغبة في الانعتاق من شؤون الدنيا، وفي باكورة أعماله يعبّر عن حسرته على فوات مأموله منها (٤٩). وتعتوره رغبة في

٤٥. الاشارات ، ص ٣٨٥ .

٤٦. الرسالة ، ص ١٩ .

٤٧. انظر الهوامل ، ص ١ - ٣ .

٤٨. قارن د. محمود ابراهيم ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٤٧ - ٤٨ ، ٥٣ ، د. ابراهيم الكيلاني ، مقدمة رسائل أبي حيان التوحيدي ، ص ١٣٤ ، ١٤١ .

٤٩. قارن البصائر ، ج ٣ (١) ، ص ٨ - ٩ ، يذكر بعض الباحثين أن كتاب البصائر والذخائر ، (٣٥٠ - ٣٦٥هـ) هو أول مؤلفات التوحيدي . انظر د. عبد الامير الاعسم ، أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات ، ص ١١٤-١١٥؛ د. محمود ابراهيم ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٣٢؛ عبد الرزاق محي الدين ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٣٤٣ .

الانفصال عن الدنيا ، والاياب الى الحق تعالى ، وهو يبين ندمه وحسرته على ما فرط في جنب الله . ويصور الصراع في نفسه الموزعة بين دار الفناء ودار البقاء. ويبدو أن إقباله على الدنيا يشكل مصدر قلق له ، ويعتبره ثلما في ايمانه . فيحاول أن يفرّ منها الى الله (٥٠) وثمة صدع تجده بين معتقد التوحيدي وهو ما أظهره للناس في كتبه ، وبين باطنه الذي كان يتعذب من أجل تحقيق المكانة الدنيوية اللائقة به . " فان الباطن اذا واطأ الظاهر كان توحدًا ، واذا خالفه الى الحق كان وحده ، واذا خالفه الى الباطل كان ضلاله " (٥١)

ويتمثل الظاهر في حركة الانسان عند ضربه في الأرض لاشباع حاجاته التي تعينه على الاستمرار في الحياة وتحسين أحواله ، ويشمل ما يعلنه الانسان من معتقداته وآرائه . أما الباطن فهو ما في السريرة من هواجس وطموحات ومكنونات ، وقد تكون إخلاصاً في العقيدة وقد تكون هواجس دنيوية أو تتردد بين هذين القطبين . على أن التوحيدي يتحدث عن نور روحاني يشع في الباطن فيبطل الهواجس الدنيوية " وهذا النور الروحاني على حسب ما يُعْطىٰ الانسان منه يكون مَرْغَبةً في العمل الصالح ... إنّ الله تعالى جعل للمؤمن نورين أحدهما ظاهره ، والاخر باطن ، فظاهره آلة لباطنه ، وباطنه عُدَّةٌ " لاخرته ومعاده " (٥٢). على أنه في مواضع أخرى يرى أن " الدنيا والاخرة ضرتان متى أرضيت أحداهما أسخطت الاخرى "(٥٣) . وأن الانسان كائن ضعيف كأنه مكتوب عليه أن يتذبذب بينهما من غير أن يشبع لبانته في الحياة أو ينال الرضا التام من الله .

وكان مفكرنا موزعاً بين هاتين الجهتين : فكلما اقترب من الاولى ، هزه القلق من عبثها ونقصانها وحياته فيها محددة ،فالدنيا " موجود ولكنه معدوم ، وحقيقةٌ ولكنه باطل ، ويقظة ولكنها حلم ، وكون ولكنه في طي اضمحلال " (٥٤) .

---

٥٠. انظر البصائر ، ج ٤ ، ص ٧ - ١١ ، ج ٣ (٢) ، ص ٤١٨ - ٤١٩ .

٥١. الامتاع ، ج ٣ ، ص ٩٦ . قارن د. ابراهيم زكريا ، أبو حيان التوحيدي ، ص ٢١٤ - ٢١٦ ، أحمد الجندي ، أبو حيان التوحيدي ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ص ٣٢٦ .

٥٢. البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٢٩٤ .

٥٣. الامتاع ، ج ١ ، ص ١٥ - ١٦ ، انظر البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٢٩٥ .

٥٤. المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

ولا تستحق الدنيا " عشق الناس لها وتناحرهم عليها " (٥٥) . ومَنْ تعلق بالدنيا وفضّلها على الاخرة فهو شقي . لقد صور الدنيا بأبشع الصور ونعتها بأفظع الأوصاف ، فمن رجا منها شيئا ، فقد مني بالخسارة والسقم ، وناله الذل والهوان ومَنْ أصابه خير منها يعيش في قلق : نشوان بالدنيا لكنه يشك بنعيمها ، وقلقه يفقده الكثير من متعته (٥٦) فلا أمن ولا طمأنينة فيها ". أما ترى صروفها ... في حتوفها ؟ أما ترى أهلها كيف تطرقهم طوارقها ، وفي طوارقها بوائقها ؟ ... ما أقبح الأمن في عرصة الخوف " (٥٧). يدور رحى الصراع في نفس التوحيدي الممزقة بين هذه الدنيا والاخرة ، بين اليأس والامل ، بين طلب السعادة العاجلة والسعادة الحقة (٥٨). ويثير الموت في فكر الانسان فزعاً فيهرب منه ويحاول أن يتغافل عنه ، ومع ذلك فهو في أعماقه يعي أن " الدنيا والدة الموت " (٥٩) . ويحاول التوحيدي أن ينأى عن " وطن بُني بالماء والطين " (٦٠). وخلا من نسمات المودة الى عالم آخر تسوده السكينة والاطمئنان ، ويتساءل عن كيفية الوصول اليه : " أين تقطف ثمار العقبى ؟ فقيل له : اذا سكن [المريد] في مساكن الغربة ، وتجرع الكربة بعد الكربة " (٦١) ، اذن ، فلابد من الرضا بالمعاناة فيما تبقى للانسان من حياة ، كي يؤهل نفسه لمغفرة الله تعالى .

ويظل التوحيدي شاكياً مما أصابه في هذه الحياة الدنيا . فنفسه " مشوبة بالاسى والحزن ... والسقم " (٦٢). وغربته مأساة متصلة يعبر عنها " في أقواله وأفعاله " (٦٣)، ويرى وجوده الشخصي بلاء ، ويرى الوجود على هذه الارض محنة ، لان الانسان فيه مضطر لركوب الصعب حتى يبقي على حياته (٦٤)، فنفسه محوطة بأسوار

---

٥٥. البصائر ، ج ٣ (٢) ، ص ٤٦٩ ، انظر المقابسات ، م / ١٠٦ ، ص ٤٨٠ .
٥٦. انظر البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٥٠٤ ، ج ٣ (١) ، ص ١٠٥ ، ٤٧٤ ، ج ٣ (٢) ، ص ٤١٨ـ ٤٢٠ ، ج ٣ (٢) ، ص ٤٠٦ ، ٣٩٥ ، المقابسات ، م / ٨٩ ، ص ٣٣٦ .
٥٧. الاشارات ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .
٥٨. انظر الهوامل ، س / ٢٤ ، ص ٧٢ ـ ٧٥ .
٥٩. البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٦٩٩ .
٦٠. الاشارات ، ص ١١٣ .
٦١. الاشارات ، ص ١٠٢ .
٦٢. الاشارات ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .
٦٣. الاشارات ، ص ١١٤ ، قارن عبد الرحمن بدوي ، مقدمة الاشارات ، ص ١٤ـ ١٧ ، جون ماكوري ، الوجودية ، عالم المعرفة ، العدد ٥٨ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .
٦٤. انظر الاشارات ، ص ٢١٤ ، ١١٤ ـ ١١٥ ، ٨٥ .

الاشجار من كل صوب ، سابحة في قلق الوجود في هذا الزمان ، في ذلك المكان ، فيحاول التحرر من أصفاد الخوف والاحساس بالقهر كي يثأر من الزمان المتنكر له (٦٥). وهكذا رسخ الزمان في وعيه قوة كونية تسر بعض الناس وتكرب أكثرهم (٦٦). يقول أبو حيان : " عدلت الى الزمان أطلب مكاني فيه ، وموضعي منه ، فرأيت طرفه عني نابيا ، وعنانه عن رضاي مثنيا ، وجانبه في مرادي خشنا " (٦٧).

وقد يعترف الانسان بأن سبب غربته كامن في نفسه ، هو ، فيرتد الى لوم نفسه ، وقد يتخطى لوم النفس بالاتجاه الى قوة عليا تحفظ عليه توازنه (٦٨) ، ويحاول التوحيدي أن ينطلق الى عالم الروح ، فيعبر عن أشواق روحه الى وطنها الاصلي (٦٩). ويزداد اضطراب النفس وهي تحاول الصعود من سجن الوجود الفاني الى رحابة العالم الباقي ، تنشد هناك الامتلاء بأفراح تختلف عن أفراح الدنيا . لكننا نحس في هذا التحول شيئا من التحسر . " الغريب من اذا استوحش منه "(٧٠). ونحس بالجهد الذى مارسه على نفسه كي تقبل بهذا الطريق الصعب الذى لم يؤهل نفسه له فيما سبق من أمره " فأما حالي فسيئة كيفما قلبتها لان الدنيا لم تؤاتني لاكون من الخائضين فيها والاخرة لم تغلب عليّ فأكون من العاملين لها ، وأما ظاهري وباطني فما أشد اشتباههما ، لاني في أحدهما متلطخ تلطخا لايعتريني

---

٦٥. الاشارات ، ص ١٢٥ ، انظر ص ٢٢٧ ، أيضا البصائر ، ج ٣ (١) ، ص ٥ .

٦٦. وهذه الفكرة جاهلية ، أبطلها القرآن صراحة ، لكن الادباء والشعراء وجدوا فيها جاذبية درامية . وهذا ما ذهب اليه المتنبي قبله :
" أتى الزمان بنوه في شبيبته ... فسرهم وأتيناه على الهرم " .
ديوان المتنبي ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ص ٤٩٨

٦٧. المثالب ، ص ٣٢٨ .

٦٨. يرى بعض المفكرين أن الانسان قادر على علاج نفسه بنفسه من الاغتراب " . وقد يكون السبيل الوحيد لعلاج الاغتراب هو قيام الفرد بمجهود أخلاقي أي بثورة من داخل الذات " . G. Petrović, "Alienation", Ency. of Philosophy, vol. 1, P. 80.
ويرى آخرون أن الايمان الديني بشكل عام " يخلق الروابط ويعززها بين المرء والطبيعة وعالم الاخرين الخارجي "
Erich and Mary Josephson, Man Alone, P. 24.
قارن نيقولاي برديائف ، العزلة والمجتمع ، ص ١٥٠ - ١٦٢ .

٦٩. انظر الاشارات ، ص ٢٢٣ .

٧٠. الاشارات ، ص ١١٧ ، انظر ص ١١٤ - ١٢٩ .

من أجله أحد ، وفي الاخرة متبذخ تبذخا لايهتدى فيه الى رشد ... وأما يقيني وارتيابي فلي يقين ولكن في ترك الشقاء ، فمن يكون يقينه هكذا كيف يكون خبره عن الارتياب ؟ "(٧١). هكذا يحس بضرورة الخلاص من أسر الهم الدنيوي ، على الرغم من أنه يعترف بأنه يفتقر الى الحافز القوي في التوجه الروحي - الديني ليجعل الرجاء في الحق تعالى شاغله الاوحد له . وهنا لابد من تحرير النفس من كدرها ومن سلطة الحواس عليها لتحرز حالة الصفاء اللازمة لهذا التوجه الروحي . " ولست تفهم هذه المعاني ، ولا تطلع على هذه المعالي ما دمت أسير ما تراه عينك ، وتلمسه يدك ، وتتمناه شهوتك ، لا والله حتى تتخلى منك ، أعني من جلبابك .. نعم حتى تتعرى من جسدك ... وكرامته وتأخذ مما لابد لك منه ، مكرما بذلك ذاتك ، ومهينا لما دنسك ، وأهلكك ... وأعلم أن بقاءك بفنائك ، وصفاءك بتفاني هذه الاشياء عنك " (٧٢) وهنا " يذوق " شيئا من التجربة الصوفية : " أتدرى ما السر ؟ السر أن يجتاح كلك في كلك بتمزيق بعضك على بعضك ، ليكون فناؤك في فنائك طريقا الى بقائك في بقائك "(٧٣) ، لان تحقيق الروح على هذا السبيل لايتم الا بتخطي محدودية البدن - السجن ، والفناء عن الذات ابتغاء نيل شرف البقاء مع الله وبالله ولله .

هكذا تمتلئ نفس أبي حيان بالطاقة واليقظة على الطريق الروحي الذى يتوسم فيه التعويض مما حل له من خيبة المسعى في الدنيا " أما ترى رقدتي في يقظني ؟ أما ترى تفرقي في تجمعي ؟ ... أما ترى ضعفي في قوتي؟ "(٧٤) ويستجمع قوى روحه ليتجاوز التشتت . " يا هذا اسمع وصفي لحال ملتحمة "(٧). فيحاول أن يتعالى على جراح غربته صاعدا على سلم الرجاء الذى يحفظ للروح اشراقها . " واذا سما بك الرجاء الى الطمأنينة ، فاهبط الى ساحة الخوف بالقلق "(٧٦) ، فغيابه عن شؤون الدنيا هو اليقظة وبداية الحضور في الابدية ،

---

٧١. الاشارات ، ص ٦١ - ٦٢ .
٧٢. البصائر ، ج ٢ (٢) ، ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .
٧٣. الاشارات ، ص ٣٥١ ، ٢٤٥ .
٧٤. الاشارات ، ص ١٣٣ .
٧٥. الاشارات ، ص ١٥٥ .
٧٦. الاشارات ، ص ١٩٤ ، قارن د . احسان عباس ، أبو حيان التوحيدي ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

واذ يعرف الانسان صفات الجلال والجمال للحق تعالى ، فانه ينفض يديه من كل ما هو دونه " وهذه المعارف بهذه النعوت هي سلاليم قلوب العارفين في الترقي الى ساحة الربوبية الغاصة بأحكام الالهية ... [و] حرام على قلب استنار بنور الله أن يفكر في غير عظمة الله ... حرام على من ألف فناء الله أن يعرج الى غير الله " (٧٧). ونبذ الدنيا هو وسيلة التسامي الروحي الى عالم الحق " وسكون النفس" الى الحق تعالى ، والانس به هو غاية المعرفة (٧٨)، وهي ليست عقلية ولا حسية ، وانما ذوقية (٧٩). تبدأ رحلة المعرفة عنده من النفس أولا ، فالوحي الذاتي شرط ضروري في معرفة العالم ، ومتى عرف الانسان نفسه، وعرف غيره استطاع أن يعرف " الاله الذي بجوده وجد ما وجد ، وبقدرته ثبت ما ثبت ، وبحكمته ترتب ما ترتب ، وبمجموع هذا كله دام ما دام "(٨٠). واذا عرف العبد ربه حق المعرفة ، فانه يفني عن وعيه بذاته المحدودة. ويمتليء الوجود كله بالحضرة الالهية ، وهذا هو " مقام المعرفة الصوفية التي ينكشف فيها للعارف معنى التوحيد [الذي] هو ادراك ذوقي للامتناهي في حالة شعور عميق بوحدة شاملة تغيب فيها معالم فردية الصوفي وشخصيته ، ولا يبقى ماثلا أمامه سوى الله " (٨١).

لغربة التوحيدي عن مجتمعه بعد روحي . وكان من الممكن أن يتحطم الرجل على صخرة الاغتراب في مجتمعه لولا أنه اعتصم بايمان عميق حفظ لروحه قوة التوتر والرغبة في التجاوز . فحاول أن يعلو على عزلته الاجتماعية ، ويتخطى بأسه وشقاءه باحثا في عالم الروح عن الانسجام الذي افتقده في حياته الاجتماعية ، لكن ليس هناك ما يدل على أنه حقق النجاح في هذه المحاولة .

٧٧. الاشارات ، ص ١٣٣ ، ٣٧٤ - ٣٧٥ .
٧٨. انظر الاشارات ، ص ٥٣٧ .
٧٩. انظر الاشارات ، ص ١٠١ .
٨٠. الامتاع ، ج ١ ، ل / ٩ ، ص ١٤٧. قارن عبد الرحمن بدوي ، الانسانية والوجودية في الفكر العربي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٧ ، ص ٤٠. من معاني معرفة النفس ، معرفة الله فيها فيهتدي بها الى الحقيقة والفضيلة والسعادة . انظر د. محمود قاسم ، في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام ، ص ٢٣ .
٨١. د. عفيفي ، التصوف ، ص ١٢٩ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، انظر ص ١٩٩ ، قارن ، ص ٣٢ ، ص ٢٧٧ ، أبو بكر محمد الكلاباذي (ت ٣٨٠هـ) التعرف لمذهب أهل التصوف ، تقديم وتحقيق محمود أمين النواوي ، مكتبة الكليات الازهرية ، دار عطوة للطباعة ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، ص ٦٤٧ ، ١٥٧ .

خـــاتمـــة

شكّلت قضية الصداقة عند التوحيدي أزمة رئيسة في حياته ، فهي الهاجس الذي لازمه منذ مطلع حياته الادبية ، وتجلّى بعمق في أعماله الاخيرة . الصداقة فيما يرى هي محور العلاقات الانسانية على المستوى الفكري والاجتماعي ، ولايشجع التدهور الاجتماعي الماثل في مجالات الحياة المختلفة الانسان الفرد على تمثل نموذج الصداقة ، وتطبيق قواعدها والالتزام بشرائطها . ومع أن التوحيدي يتفهم تنوع الناس من حيث مواقفهم الخلقية وتعذر التزام جميعهم بالفضائل ، الا أنه يدرك أيضاً أن القيم الخلقية لاتثمر بالتفرد والعزلة ، فهو يؤمن بالتواصل والتعاون من حيث هما ضرورة اجتماعية لازمة . ولم تكن الصداقة عنده الا النموذج الذي يسوّغ العلاقات الاجتماعية ويجعلها أخلاقية . فهي المودة الوجدانية اللازمة للعلاقات البشرية ، وهي عامل مهم في تحقيق الذات من خلال صلاتها بالذوات الاخرى .

اهتم التوحيدي بالانسان ، واعتبره محور العالم : يعلو على ما دونه من مخلوقات ، وتوسم فيه النزوع نحو الكمال . لقد كان التوحيدي على وعي بأن اختراق قشرة الحياة الانسانية ، ودراسة مكنوناتها الداخلية ، أصعب بكثير من دراسة العالم وظواهره الطبيعية . وعلى الرغم من خبرته بالواقع ، ومعرفته بالناس ، الا أنه يعبر عن حيرته في عبارة مشهورة : " وأوسع من هذا الفضاء حديث الانسان ، فان الانسان قد أشكل عليه الانسان "(١) . وكانت نظرة التوحيدي للفرد والمجتمع في مجملها واقعية ، الا أن موقفه من الصداقة كان مثالياً في محصلته العامة . فنتج عن هذا التباين في موقفيه نظرات لها طابع " الانثروبولوجيا الفلسفية " ، وتجمع بين دوافع غالبية الناس للصداقة وبين نتائجها على المجتمع الانساني .

لم تكن الأسر التي يرى التوحيدي مُجْتَمَعَه من خلالها سوى الأسر الدينية التي ترى في المجتمع أمة واحدة تلتزم بالفضائل على نور من العقل ، ورأى أن الانسان الاصيل هو الذي يلتزم بالايمان وما يشتمل عليه من فضائل الاخلاص ، والوفاء ،

---

١ . الهوامل ، س/ ٦٨ ، ص ١٨٠ .

والصبر ، والايثار ، والعدل وغيرها من الشيم التي تتضمن قدرة عالية من التحمل الانساني • وهكذا فالصداقة هي أحد المقومات المهمة في وجود الانسان وأمارة على سعيه نحو تحقيق كماله الانساني وهي من " العمل الصالح " ، كما أن الاخلاق أساس السعادة أيضاً • ولن يتم للانسان كمال ، أما السعادة فلا تتحقق بمعزل عن التديّن الذي هو سبيل خلاص الانسان ، من كل قلق وصراع يمزق وجوده •

وإذْ يجد التوحيدي أنّ هذه الخصائص والصفات لاتكاد تجتمع في فرد واحد في كل وقت وتحت كل ظرف ، فانه يوقن أن تحقق الصداقة الصافية في الواقع متعذر • وقد عاش التوحيدي أوضاعاً حادة من القلق والتوتر مع الاخرين ، وكان يرمي الى تحقيق مكانة أدبية تتناسب مع كفايته ، فعانى مرارة هائلة حين أُحْبِطَتْ طموحاته • وقد ارتد الى ذاته في خضم تجربة عميقة : استجمع فيها ارادته فأخذ بأسلوب العُزْلة والابتعاد عن الناس • فكانت وحدته من العالم ومحاولته تخطي الدنيا الى عالم الروح ، حيث يجد التعويض المناسب للذات • فحَالَ دون سقوطها في اليأس المطلق •

ويكشف اغتراب التوحيدي عن مستويين : النفسي والاجتماعي ، ويتمثل المستوى النفسي في عزلته الروحية ونشدان الخلاص على الطريق الصوفي • أما المستوى الاجتماعي ، فهو بُعْد سالب تلغي فيه الذات امكانات التوافق مع المجتمع ، وتلجأ الى نقد ما أَلِفَه الناس من عادات وما اصطلحوا عليه من قيم • على أساس من كل ذلك ، يتحول مركز الاهتمام في الذات من الحياة الاجتماعية الى الاتصال الروحي الذي يحقق توافقها • وقد يعتور نفس المغترب في المستوى الاول ، اليأس والخوف ، لكن الرجاء والامل هما الثغرة التي ينفذ منها الى المستوى الروحي •

لقد تعددت تفسيرات الصداقة بين بني البشر ، ومع ذلك فليس هناك من تفسير نهائي لهذا الموضوع ، وتأمّل التوحيدي علاقة الصداقة بعمق ، وحاول أن يكشف عن أسسها ، فأضفى مسحة شمولية على هذا الموضوع الذي حوى نزعات مثالية وواقعية •

---

٢ • الحياة ، ص٥٧ •

وقد لاحظنا أن أسس الصداقة عند التوحيدي تستمد مشروعيتها وحافزها من المبادئ الدينية - الأخلاقية . لكنه يحاول أن يُقيمها أحياناً على أساس عقلي ، هو المشاكلة في الطباع والتآلف النفسي . واذا كان هذا صحيحاً ، فانه من الممكن أن يتصادق اثنان متشاكلان في المجون والاستخفاف بمبادئ الخُلق والدين . وكثيراً ما يتصادق اثنان بسبب منافع مادية يشتركان في جلبها . والحق أن الاخوة في الدين لاتفسر الا ضرباً من الصداقة الخالصة شاع مثلا في أوساط أهل التقى والورع . ان الاخوة الدينية ممكنة ، لكنها لاتفسر كل شيء في الصداقة .

وفي نطاق الصداقة لا تزال ثمة أسئلة كثيرة بلا اجابة مقنعة . هناك مثلاً سؤال محيّر نسمعه كثيرا وهو : هل يحب المرء ما يعرف أم يعرف ما يحب ؟ وتتضح هذه المعضلة في مشكلة التعارف والتناكر التي أخذها التوحيدي عن الحديث الشريف " الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف" والحديث يجعل التعارف شرطاً للائتلاف والتواصل . لكن الائتلاف لايقتضي شخصين متشاكلين بالضرورة ، فقد يتآلف اثنان وبينهما تباين في بعض السجايا . ان معرفة التلاؤم والانسجام هي في أعمق أغوار وعي " الأنا " و " الأنت " . وغاية الصداقة هي الوحدة بين طرفين متكاملين بغض النظر عما اذا كان التباين أو التشاكل يجمع بينهما .

واذا ألقينا نظرة سريعة على القيم الانسانية التي عرضها التوحيدي وبيّن أثرها الفعّال في التقارب والتآلف بين الناس ، نلحظ الفجوة عنده بين النظرية والممارسة . فقد أفرد التوحيدي صفحات كثيرة للحديث عن الزهد ، ووضح قيمة الصفح والتواضع والصبر الذي يحفظ توازن المرء ويعطيه مرونة أكثر في تعامله مع الناس . لكن حادثة إحْراقه لكتبه تشير الى نفاذ صبره . بل ان شكواه وتذمره من الناس والعصر وعداوته للوزيرين وهجومه يدل جملة على كبريائه ورغبته في الثأر لنفسه . ان تعلقه بالدنيا وطمعه فيها وأسفه على ما فاته منها يتنافى مع الزهد الذي دعا اليه . والحق أنه لم يأخذ من حقائق التصوف الا أفكاراً لم يقدر على معايشتها ، فصاغها في الاشارات على سبيل البحث عن العزاء ، والتنفيس عن النفس التي علق بها الاحباط .

لقد قال أبو الحسن الدينوري (ت ٣٣٠ هـ) " من توالت عليه هموم الدنيا فليذكر همّاً لايزول ، ليستريح منها " (٣). ولقد حاول التوحيدي أن يذكّر نفسه " بالهم الذي لا يزول " وهو طلب الخلاص من غضب الله وطلب مغفرته " . لكنه لم " يسترح من الدنيا " . ان ما يفتقر اليه ، هو وأكثرية الناس ، هو تلك الارادة التي تجعل الحكمة فاعلة في صميم الممارسة اليومية .

---

٣. السلمي ، طبقات الصوفية ، ص ٣١٤ .

المراجـــع العربيـــــة

ملاحظـــة : ذكرت كتب التوحيدي التي استند اليها هذا البحث بشكل رئيسي فـــي قائمة الاختصارات ص هـ •

ابراهيم ، زكريـــــا • أبو حيان التوحيدي : أديب الفلاسفة وفيلســـوف الادباء • المؤسسة المصرية العامة للتاليـــف والانباء والنشر ، القاهرة •

———— • دراسات في الفلسفة المعاصرة • ج ١ ، مكتبـــة مصر ، دار مصر للطباعة ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٦٨•

———— • مشكلة الحب • دار مصر للطباعة ، القاهـــرة ، ١٩٧٥م•

ابراهيم ، محمـــــود • أبو حيان التوحيدي وقضايا الانسان واللغـــــة والعلوم • الدار المتحدة للنشر والطباعـــة ، بـيروت •

ابن حزم ،أبو محمد بن سعيد • الاخلاق والسير في مداواة النفوس • منشورات دار الافاق الجديدة ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٩م•

———— • طوق الحمامة في الالفة والالاف • ضبط وتحريــــر د• طاهر مكي• دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م •

ابن الدباغ ، عبد الرحمن الانصاري • • مشارق انوار القلوب ومفاتح أسرار الغيـــوب • تحقيق هـ • ريتر • دار صادر ـ بيروت •

ابن عدي ، يحـــــيي • " تهذيب الاخلاق " ، الفكر الاخلاقي العربي ، تحقيـــق د• ماجد فخري • الدار الاهلية ، بيروت ، ١٩٧٩م•

ابن عربي ، محي الديـــن • الفتوحات المكية • دار صادر ، بيروت ، ج ٢•

ابن منظور • لسان العرب • دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥م •

———— • لسان العرب • دار الفكر ، بيروت •

ابو زيد ، أحمـــــــد • " الاغتراب " ، عالم الفكر • وزارة الاعـــلام ، (الكويت) ، مج ١٠ ، العدد الاول ، ابريل ، ١٩٧٩م•

ارسطـــو • الاخلاق • ترجمة اسحق بن حنين ، تحقيق د• عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، ط ١، الكويت ، ١٩٧٩ م•

الاعسم ، عبد الامير • أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات • دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٠م•

امين ، أحمد • " تصدير " البصائر والذخائر • ج ١ • مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة •

افلاطون • محاورة المأدبة ، ترجمة د• وليم الميري ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠م•

البخاري • صحيح البخاري • ضبط مصطفى ديب البغا ، دار القلم ، دمشق - بيروت ، ١٩٨١م•

بدوي ، عبد الرحمن • الانسانية والوجودية في الفكر العربي • مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧م•

——— • "تصدير" الاشارات الالهية • دار القلم ، وكالة المطبوعات ، بيروت ، الكويت ، ١٩٨١م •

برديائف ، نيقولاى • العزلة والمجتمع • ترجمة فؤاد كامل عبدالعزيز• الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢م•

بهنسي ، عفيف • علم الجمال عند أبي حيان التوحيدي • وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة ، ١٩٧٢م•

بيرجيه ، مارك • " المثل الاعلى للصداقة عند أبي حيان التوحيدي"، مجلة المعرفة ، عدد ٢٦ • دمشق ، ١٩٦٥م•

التكريتي ، ناجي • الفلسفة الاخلاقية الافلاطونية عند مفكري الاسلام• دار الاندلس ، بغداد ، ١٩٧٩

الجاحظ ، أبوعثمان عمرو ابن بحر • رسائل الجاحظ • تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٤م•

جدعان ، فهمي • " داعيا لمشاكلة في نظرية الحب عند العرب "، دراسات عربية واسلامية ، تحرير وداد القاضي• الجامعة الامريكية ،بيروت ، ١٩٨١م•

الجرجاني ، الشريف • التعريفات ، مكتبة البابي الحلبي وأولاده ،القاهرة ١٩٨٣م •

الجندي ، أحمد • "أبو حيان التوحيدي" ، مجلة مجمع اللغة العربية ، مجلد ٤٠ ، دمشق ، ١٩٦٠م.

الجوزية ، ابن قيم • روضة المحبين ونزهة المشتاقين • دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م.

حسن ، جعفر هادي • "دفاع أبي حيان التوحيدي عن إحراق كتبه" ، مجلة العربي ، (الكويت)، عدد ٣٢٣ ، ١٩٨٥م.

حسين ، محمد توفيق • "مقدمة" المقابسات • مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٠م .

الحوفي ، احمد محمد • أبو حيان التوحيدي • مطبعة نهضة مصر ، ط ٣ ، القاهرة .

الخرائطي ، أبو بكر • المنتقى من كتاب مكارم الاخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها • للحافظ ابي طاهر السلفي • تحقيق مطيع الحافظ وغزوة بدير • دار الفكر ، دمشق، ١٩٨٦م.

الخطابي، حافظ ابوسليمان البستي • العزلة • تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري. دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان .

الرازي ، محمدبن أبيبكر • مختار الصحاح. نظارة المعارف ، المطبعة الاميرية ، ط ٢ ، ١٩١٠م.

رجب ، محمود • الاغتراب • منشأة المعارف ، الاسكندرية .

الرومي ، ياقوت الحموي • معجم الادباء • مصلحة الصحافة والنشر، بغداد .

الزبيدي ، محمد مرتضى • تاج العروس ، د. طاهر مكي • دار ليبيا للنشر والتوزيع ودار المعارف ، بنغازي - القاهرة ، ١٩٨٠م.

السلمي ، أبو عبدالرحمن • طبقات الصوفية • تحقيق نورالدين شريبة. جماعة الازهر للنشر والتأليف ، القاهرة، ١٩٥٣م.

________ • المقدمة في التصوف وحقيقته • تحقيق د. حسن أمين . بغداد ، ١٩٨٣م.

السندوبي ، حسن • "مقدمة" المقابسات . المطبعة الرومانية ، ط ١. القاهرة ، ١٩٢٩م .

الشافعي ، محمد بن علان • دليل الفالحين لطريق رياض الصالحين ، السعودية ، ج ٢ .

عباس ، احسان • أبو حيان التوحيدي . دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٦م .

العشماوي ، سعيد • تاريخ الوجودية في الفكر البشري . الوطن العربي ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٨٤م .

عفيفي ، أبو العلا • التصوف : الثورة الروحية في الاسلام ، دار الشعب ، بيروت .

العقاد ، عباس محمود • عبقرية الصديق . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٤٥م .

———— • عبقرية عمر . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٤٥ .

علي ، محمد كرد • امراء البيان . دار الامانة ، مطابع دار الكتب ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٦٩م .

الغزالي ، ابو حامد محمد • احياء علوم الدين ، ٤ أجزاء . وعلى هامشه كتاب المغني عن عمل الاسفار ، لابي الفضل العراقي (ت ٨٠٦هـ) ، دار المعرفة ، بيروت .

الفارابي ، أبو نصر • رسالة في العقل . انابلي بارو موريس وبوجيه ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت .

فخري ، ماجد • تاريخ الفلسفة الاسلامية ، نقله الى العربية د. كمال اليازجي ، دار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٤م .

فراج ، د. عز الدين • فن الصداقة . دار الفكر العربي ، بيروت .

فولكييه ، بول • الارادة ، ترجمة جهاد نعمان . سلسلة " ماذا أعرف " ، بيروت ، ١٩٧٢م .

قاسم ، محمود • في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام . مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٣ .

القاسمي ، ظافر • " الصداقة والصديق لابي حيان التوحيدي " ، مجلة المعرفة ، (دمشق) العدد ١٠ ، ١٩٦٢م .

القشيري ، أبو القاسم • الرسالة القشيرية • مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة ، ١٩٥٧م.

القاضي ، وداد • " علاقة المفكر بالسلطان السياسي في فكر ابي حيان التوحيدي " ، دراسات عربية واسلامية • الجامعة الامريكية، بيروت ، ١٩٨١م.

قنديل ، اسعاد • " تمهيد " كشف المحجوب للهجويري • دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠م.

الكلاباذي ، أبو بكر محمد • التعرف لمذهب اهل التصوف ، تحقيق محمود أمين النواوي • مكتبة الكليات الازهرية ، ط٢، القاهرة ، ١٩٨٠م.

الكندي ، يعقوب أبو يوسف • رسائل فلسفية للكندي والفارابي وابن باجة وابن عدي • تحقيق عبد الرحمن بدوي • دار الاندلس ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٠م.

———— • رسائل الكندي الفلسفية ، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريده • دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٠م.

الكيلاني ، ابراهيم • " مقدمة " المقابسات • وزارة الاعلام ، دمشق ، ١٩٨٤م.

ماكوري ، جون • الوجودية • ترجمة د. امام عبد الفتاح امام • عالم المعرفة ، العدد ٥٨ ، الكويت ، تشرين أول ، ١٩٨٢م.

الماوردي ، ابو الحسن • ادب الدنيا والدين ، تحقيق مصطفى السقا • مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة، ١٩٥٥.

المتنبي ، ابو الطيب • الديوان ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت.

المحاسبي ، الحارث بن أسد • العقل وفهم القرآن • دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م. ، ج ١ .

مجمع اللغة العربية • المعجم الفلسفي • الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة ، ١٩٨٣م.

مجمع اللغة العربية • المعجم الوسيط • المكتبة العلمية، طهران ، ج ١، ٢ .

محمــــود ، ابراهـــيم • " حول الاغتراب الكفكاوي ورواية المسخ نموذجا "، عالم الفكر ، وزارة الاعلام بالكويت ، مجلد ١٥ ، عدد ٢ ، سبتمبر (ايلول) ، ١٩٨٤م.

محي الدين، عبد الـرزاق • أبو حيان التوحيدي : سيرته ومؤلفاته. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٧٩م.

مرجـــــليوث • " ابو حيان التوحيدي "، دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد ١ ، ١٩٣٣م.

المسعودي ، ابو الحـسن • مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق : باربيـه دمنيارو باوه دكورتل . مؤسسة مطبوعات اسماعيليان ، ط ٢ ، ١٩٧٠م.

مسكويه ، أبوعلي بن محمد • تهذيب الاخلاق ، تحقيق قسطنطين زريق . الجامعـة الامريكية ، بيروت ، ١٩٦٦م.

مسلـــــــم • صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م.

ــــــــــــ • صحيح مسلم . دار المعرفة ، بيروت.

المكـــي ، ابو طالــب • قوت القلوب في معاملة المحبوب ، مكتبة مصطفـى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ١٩٦١م.

المكي ، محمد بن الشافعي • دليل الفالحين لطريق رياض الصالحين . ج ٢ .

ميـــــتز ، آدم • الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري ، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده . مكتبة الخانجـي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة وبيروت ، ١٩٨٠م.

ذياب ، اديب نايــف • " جدل الاضداد في الاحوال والمقامات الصوفيـة "، دراسات . الجامعة الاردنية ، مجلد ١٣، عدد ٤ ، عمان ، نيسان ، ١٩٨٦م.

وهـــبة ، مـــراد • المعجم الفلسفي . ، ط ٢ ، ١٩٧٩م.

= = = = = =

المراجـع الاجنبيـــــة

Acton, H.B. . " Idealism", The Ency. of Philosophy, Macmillan, 1967, vol. 4.

Aristotle . The Nicomachean Ethics, Translated by J.A. K. Thomson, Penguin Books, Harmondsworth 1976, Book 8.

Fromm, Erich . The Art of Loving., Unwin Paperback, London 1979.

__________ . To Have or to Be. Abacus, Cox and Wyman Ltd, London, 1979.

Josephson,E and A. Man Alone Alienation in Modern Society. Dell publishing co., INc. 15th pr., New york, 1972.

Hick, John . " The Problem of Evil ", The Ency. of philosophy. vol. 3.

Kaufman, Walter . " The Inevitability of Alienation ", Introdoction to R. Schacht; Alienation 1970.

Margoliouth, D.S . " Abū Hayyān Al-Tawhīdī", The Ency. of Islam, 2nd Edition, 1960.

Nicholson, R.A. . A literary History of the Arabs. Cambridge University Press, London, 1965.

Pappé, H.D. . " Philosophical Anthropology", The Ency of Philosophy. vol. 6.

Petrović, G. . " Alienation ", The Ency. of Philosophy. vol. 1.

Plato, . " Phaedo ", The Last days of Socrates, Translated by Hugh Tredennick. Penguin Books, Hormondsworth, 1982.

________ . The Republic, Introduced by Desmond Lee. Penguin Books, 2nd Edition, 1983.

Schacht, Richard . Alienation. George Allen Unwin, London, 1970.

Schimmei, Annemarie. Mystical Dimensions of Islam. The Univ. of North Car, Press, Chapel Hill.

Taylor, Gabriele . " Love ", Philosophy as it is. Edited by ted Honderich and Myles Burnyeat, Penguin books. Harmondsworth, U.K. 1978.

Townsend, Peter . " Islolation and the Hold on life ", Man Alone. Ibid.

Weiss, Fredric A ."Self Alienation: Dynamics and Therapy", Man Alone. Ibid.

ABSTRACT

The topic of friendship took an important stance in the Arab thought in the fourth century of Hijra. Abū Hayyān al-Tawhidi is considered the most prominent thinker who discussed this subject within a universal perspective. This research is concerned with the discussion of al- Tawhidi's conception of friendship and alienation. We expect this research to expand our knowledge concerning the spiritual and intellectual aspects in the life of al-Tawhīdī and his work.

The topic of friendship formed a major crisis to this writer. It had been his obsession which accompanied him since his early days, and was deeply reflected in his late works. He went on from the study of friendship to its opposite, that is, the state of alienation which he suffered from during his maturity and perhaps all through-out his life. He attempted to transcend his own sufferings by contemplating how friendship should be. Abū Hayyān looked at the religious foundations as well as the ethical standards that friend should comply with. Our thinker distinguished between the two concepts: love and friendship, on the grounds that love is based on passion and desire whereas friendship has an intellectual dimension. Out writer concentrated on the value of friendship as it reflects the purity of one's self. He confronted his contemporaries with notions that do not accept compromise or reconciliation. In particular, He stressed the values of sincerity from the standpoint of rationalims and morality. However, al-Tawhīdī's concept of friendship comprizes the

healthy ties and righteous contacts between people.

The research consists of three parts : Part 1 : The face and mask in Social relationship. In chap. 1, I have discussed here the role of mind in controlling desires and the make up of the will towards good within the frame work of Social rlationships. The study, in Chap. 2, examines the obstacles that may destroy friendship or distort it. The Social vices such as hypocrisy and desertion are also discussed in this connection. Contrast to causes of seperation, we find out, in Chap. 3, causes of love which come first from resemblance (=mushākalah) which al - Tawhīdī and others considered the main principle in every friendship. I examined this notion to show to what extent complete resemblance is possible.

Part II: The model and the reality of friendship. Chap. 4, investigates the motives for friendship and its ethical basis. I attempt to uncover the nature of feeling in man's experience which might differ from his visible behaviour in movement and signs. Chap. 5 looks into real friendship; It faces some psychological matters and values that affect friendship where we find Abū-Hayyān's situation in general fluctuating between the Ideals of friendship and its reality. In chap. 6, we present a model of friendship and its possiblility of realization. A number of definitions have been discussed in this context in order to shed light on the basic nature of the friend.

Part III: Isolation and the escape to God (=al-Firār ilā Allāh). Chap. 7 examines the aspects of alienation in al - Tawhīdī's experience. He was subjected to severe conditions which drove him towards isolation. The Chapter unfolds the warrants to this crisis, and the conflict between the personal as well as social tendencies in his thought. The last Chapter shows his own sufi attitude in the last stage of life in which he attempted to find refuge and consolation. At the end, the research comes to a summary of the main line in his thought from a synthetic and critical standpoint.